كتابي

٨ قروش



الأرملة المرحة

وكتب أخرى

حلمي مراد

كتابى

كتاب شهرى للقصة والثقافة الرفيعة

يصدر أول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب السابع عشر (السنة الثانية) : يولية ١٩٥٣

الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة: اقرأ التفصيلات بالداخل

المكاتبات : ١٨ شارع العباسيين ـ مصر الجديدة

تليفون ٦٥٦٠٨

عزيزى القارىء ..

◆ فى ٢٣ يوليو الحالى تحتفل مصر بالعيد السنوى الاول لثورة الجيش المباركة ، وقد رأيت لهذه المناسبة أن أقدم لك فى باب (قصص التاريخ ومآسيه) قصة حياة «مارى انطوانيت» ، ملكة فرنسا التى أدت تصرفاتها الى التعجيل بنشوب الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩ ، وهى الثورة التى حررت فرنسا من الطغيان والفساد كما حررت ثورة الجيش الاخيرة مصر .. مع فارق واحد يحق لمصر ان تزهو به على العالم أجمع : هو الروح السلمية المثالية التى تمت بها ثورة مصر ، بغير اراقة قطرة واحدة من الدم !

فاذا فرغت من قراءة سيرة مارى انطوانيت ، طالعت معى كتابا آخر يروى لنا قصة محاكمة زوجها الملك لويس السادس عشر واعدامه ، وملابسات تلك المحاكمة ومقدماتها ونتائجها .. والقصتان معا تعطيانك صورة وافية عن عصر الثورة الفرنسية وأحداثها ..

◆ وقد قرأت معى فى العدد الماضى قصة من الادب الايطالى المعاصر هى «مراهق» لالبرتو مورافيا .. واليوم يستأنف (كتابى) برنامجه فى اطلاعك على احدث ثمرات العقول والمطابع ، فيقدم اليك من الادب اليونانى الحديث قصة (القمر الاحمر) التى فازت - من بين أكثر من ألف قصة - بالجائزة العالمية التى رصدتها جريدة (نيويورك هيرالد تريبيون) لاروع القصص الحديثة ..

اما فى باب الكتب القديمة فانت تقرأ معى فى هذا العدد قصة من أروع ما كتب فيلسوف فرنسا الساخر (فولتير) ، وقد أطلق عليها - بحق - « العالم كما يسير » .. وسترى انها تمثل العالم كما يسير ، أمس .. واليوم .. وغدا !

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

كتابى

مجموعة الاعداد السابقة

كتابى الاول	«خطايا الحب»	وكتب اخرى	مارس	١٩٥٢
كتابى الثانى	«قلب عذراء»	« «	ابريل	«
كتابى الثالث:	«الهاربة من الجنة»	« «	مايو	«
كتابى الرابع:	«حواء الجديدة»	« «	يونية	«
كتابى الخامس	«احدب نوتردام»	« «	يولية	«
كتابى السادس	«جريمة حب»	« «	اغسطس	«
كتابى السابع	«عشيقة نابليون»	« «	سبتمبر	«
كتابى الثامن	«مذكرات كيوبيد»	« «	اكتوبر	«
كتابى التاسع :	«صنم تحطم»	« «	نوفمبر	«
كتابى العاشر :	«حديقة الله»	« «	ديسمبر	«
كتابى الحادى عشر :	«عندما تحقد المرأة»	« «	يناير	١٩٥٣
كتابى الثانى عشر :	«لعبة الحب والموت»	« «	فبراير	«
كتابى الثالث عشر:	«التوبة خاطئة»	« «	مارس	«
كتابى الرابع عشر :	«ايها الربيع ترفق»	« «	ابريل	«
كتابى الخامس عشر:	« الشيطان على الارض »	« «	مايو	«
كتابى السادس عشر:	«ليدى هاملتون»	« «	يونية	«

◆ وتطلب من صاحب كتابى (١٨ شارع العباسيين مصر الجديدة) ، وثمن كل عدد ١٠ قروش خالص أجر البريد (المسجل) ، ماعدا العددين الثالث والسادس فثمن كل منهما عشرون قرشا (تحديدا للطلبات ، نظرا لقرب نفادهما وعدم امكان اعادة طبعهما) .. وماعدا العددين الاول والثانى اللذين نفدا ، والعددين ١٣ ، و١٦ (الممتازين) ، وثمن كل منهما بالبريد ١٢ قرشا

◆ ملحوظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER ، ولا تقبل العملة الاجنبية او اذونات البريد الخارجية .

الاشـــتراكات

◆ وتشمل ضمنا الاعداد الممتازة ايضا ـ وترسل جميع الاعداد الى المشتركين في مصر والسودان بالبريد المسجل ، وفى الخارج بالطائرة

◆ قيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٠٠ قرش ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٥٥ قرشا ـ فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والحجاز والاردن .. الخ) ترسل القيمة بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد فى كل بلد MONEY ORDER وتحتسب القيمة بما يوازى ١١٠ قروش (عن سنة) و ٦٠ قرشا (عن نصف سنة) ـ أو تدفع قيمة الاشتراك الى مكاتب شركة فرج الله للمطبوعات فى بيروت او للمكتبة العصرية بسوق السراى ببغداد

الأرملة المرحة

قصة مصرية : للمحرر



- ١ -

كانت وهى تخطر الى داخل البيت الغاص بالمدعوين ، فى ثوب السهرة « الموسلين » الاسود الذى يغلف ذراعيها الناصعتين بكمين من الدانتلا ، تتقدمها نفحة من العطر المسكر تفسح لها الطريق ٠٠ تمثالا نابضا بالغواية ، ونموذجا للسحر الحرام !٠٠ للفتنة التى تمشى على ساقين ، فى خطو رشيق متزن ٠٠ خطو الجمال الواثق من نفسه ، وسلطانه ، فى غير زهو ٠٠٠ وكأنها تمشى على بساط من قلوب ، ومن جباه !

وتلقفتها أبصار الرجال بخليط عجيب من النظرات ، تحمل جميعا نفس المعانى ، والامانى ٠٠ والحسرات !٠٠ أما عيون النساء فقد تلقتها بفيض مخالف من المعانى ، والامانى ٠٠ واللعنات ! لم تكن بينهن الا من تخشى على رجلها من سحر هذه المرأة التى استفاضت فى مجتمعات (جاردن سيتى) أنباء حياتها العابثة الطليقة من يوم أن هبطت الحى ـ قادمة من مكان مجهول، وماض مجهول ! ـ فلم تمض شهور حتى صارت أقدار الرجال تقاس فى مجتمعات النخبة المصفاة من المترفين ، بمقياس العصر: بمقدار حظوتهم لدى (بهيجة) ، ونصيبهم من عناية بهيجة ، ولفتات بهيجة، وبسمات بهيجة!٠٠ كان السعيد هوالذى تشير اليه أصابع الناس وألسنة الناس حاسدة ، مشيدة بالشرف الرفيع الذى أتيح له : شرف عبور قدميه المتعثرتين عتبة (الجنة) ، أو مسكن بهيجة الخاص !

لكن همسات وغمزات الحاسدين ، المحرومين ، لم تكن تعرف الثبات أو الاستقرار ٠ كانت تتنقل كل حين بين مختارى بهيجة المحظوظين كما تتنقل كرة الروليت بين خانات مائدة القمار ، **فلا يمضي شهر الا وقد تغير « الجواد » المفضل (الفافورى) ، فازداد بتغيره عدد الظافرين بدخول جنتها واحدا ٠٠ وازداد عدد**

المطرودين من الجنة ـ المحاربين القدماء ! ـ واحدا٠٠ فان بهيجة امرأة قنوعة ، لا يلتقى فى جنتها عاشقان !

وأقبلت عليها ربة البيت مرحبة ، والتف المعجبون حولها فى تهافت العبيد ٠٠ أما هى فسارت تنثر على مستقبليها الضحكات الناعمة واللفتات الناعسة من طرفها الساجى ٠٠ حتى بلغت آخر البهو ، فانضمت الى حلقة مختلطة من الاصدقاء، لعلها آثرتها بشرف الجلوس معها ـ دون غيرها من الحلقات التى وجهت اليها الدعوة فى الطريق ! ـ لان مضيها الى أقصى البهو يتيح لها أن تعرض حسنها على الجميع ، قبل أن تخلد الى الجلوس وتستريح!

وفيما هى تعتدل فى جلستها ، فتضع ساقا على ساق وتدلى ثوبها فوق ركبتيها بأناملها الرشيقة ، فى حركة احتشام مفتعلة هى أمعن ما تكون اغراء ٠٠ التقت عيناها بعينين محمومتين كانتا تتبعانها دون وعى منذ افتر عنها باب المكان

ولاول مرة ـ فيما يذكر ـ أحس (فتحى) انه ٠٠ تعس !٠٠ وتولاه سخط قوى على نفسه ٠ **كيف يعيش عفيفا محروما وفى الدنيا مثل هذا الجمال ٠٠ المباح ؟٠٠ والى متى يظل يحيا على هامش الحياة، ينظر الى دنيا المتعة والخمر والنساء نظرة السجين الى حياة الحرية واللهو والانطلاق ، بل نظرة القانع بأن يقف مكتوفا وصحاف الطعام تتوالى أمامه حافلة بالمشهيات ، وموكب الحسن يتتابع أمام بصره مغريا بالحماقات ؟** ٠٠ الى متى يظل سجين هذا الخجل الممقوت الذى يكبل شبابه بأغلال موجعة ، أغلال من حرير ، أشد ادماء من أصفاد الحديد ٠٠ هذا الخجل الذى « نكبته » به نشأته المحافظة فى عصر كله تحرر ، ودنيا كلها أحرار ؟٠٠ أم ترى قد كتب عليه أن يكون الراهب الوحيد فى معبد كله زنادقة ؟٠٠ لقد طالما تندر اخوانه عليه ساخرين ، وعيروه بحياته « المصطنع » ، وبرداء الوقار البغيض والترفع الكاذب الذى يصر على أن يرتديه ، ويزهو به على الناس ٠٠

والذى ليس هو فى الواقع الا رداء العاجزين ، لا الزاهدين ، كما قالها له يوما صديقه حامد ٠٠ المرحوم حامد !

يا لمرارة الذكرى وسرعة مرور الايام !٠٠ أحقا قد انقضى أكثر من عام منذ فارق حامد الدنيا ؟٠٠ لقد اختطفه الموت من حياة كانت متخمة بالهناء ، وكأنما رأى انه قد استوفى حظه من مباهج الدنيا !٠٠ **كان أحد أولئك الذين يحبوهم القدر بموهبته الكبرى: فن الحياة ٠٠ فيحسنون الاستمتاع بكل قطرة منها ، ويعيشون ليومهم فقط ٠ يقتنصون المسرات أينما وجدت ويضللون الاكدار، يغرقونها فى لجة من الضحك والصخب والانشراح** ٠٠ وهكذا سعد حامد بالعزوبة ، ارتشف منها أمتع ملذاتها ٠٠ فلما أحس أنه ارتوى ، وتعب ، لم يضيع وقتا في التردد ٠٠ بادر بالزواج ٠٠ فكان كمن انتقل من جنة الى جنة ٠٠ نبذ معيشة الفوضى والبوهيمية بين أذرع صديقاته العابثات ، واستكان لحياة الانتظام والدعة ، فى عشه السعيد ، فى أحضان (ملاكه الطاهر) كما كان يدعو زوجته ٠ وحين رزق طفلته « سامية » ازداد تعلقه بالبيت واهماله (شلة) الاصدقاء ٠٠ فلم يعد يوافيهم فى المقهى و « يتعطف » عليهم بجلسة ، قصيرة ، الا حين نمت سامية وصار يأخذها معه كى تلاعب زملاء عزوبته وتضحكهم بلكنتها العذبة ٠٠

يا لليتيمة الصغيرة ! ان فتحى لم يرها منذ وفاة أبيها ، لكنه ما يزال يذكر ابتساماتها ونغمها الحلو وهى تناديه ب « عمى » كى تشكره على كأس الجيلاتي التى اعتاد أن يقدمها لها كلما رآها فى المقهى بصحبة أبيها ٠٠

❖

وأفاق فتحى من استرساله على جرس ضحكة فاترة من بهيجة ترقرقت فى سمعه كنوع من الخدر اللذيذ ٠٠ فانتشى وعاد يسترق نظرات ظامئة اليها ، وقد أحس بدمه يلهب جسده

كالسياط! كلا، انه ما عاد يحتمل. كفاه تبتلا وعذابا وحرمانا. انه سيتمرد على خجله ويحطم أصفاد الوقار الجائر، الذى لا يليق بالشباب! سيخلع رداء الترفع الكاذب الذى يزهو به على الناس وينزل من عليائه كى يشاركهم الحياة فى الوحـل . ان اللهو بالاوحال لعبة الاطفال، وهو يريد أن يعود طفلا يعبث كما يحلو له .. ويرتكب الحماقات! وأى انسان يقوى على مغالبة الحماقة أمام فتنة كالتى أمامه؟

وفيما هو يدير فى رأسه هذه الخواطر، اصـطدمت عجلة تفكيره بترس ضخم، بخاطر مفاجىء همس فى وعيه: «يا أحمق .. انك تراود نفسك كى «تضحى» وتقدم على هذه الحماقة، ولكن من أدراك أن فاتنتك ستعبأ بك؟.. من أنت .. وما هى مغرياتك؟ أهى وجهك الذى خاصمته الوسامة، أم جيبك الذى خاصمه المال؟.. بالله اعرف قدر نفسـك، واترك الميدان لفرسانه!»

واذ ذاك تملكه شعور بالضعة والهوان، أطفأ من حـدة حماسته وكبح جماح أطماعه! .. ثم أسلمه لشرود ذليل، طويل، لم يفق منه الا على صوت ربة البيت وهى تقبل عليه ضاحكة، متسائلة: «هوه هوه .. فى أى واد أنت؟ خليك معانا من فضلك. ولكنك معذور، فانك تجلس وحيدا. كيف لم أتنبه لهذا من قبل .. آسفة جدا . ولكنى سأكفر عن سيئاتى فورا!» ثم مالت على أذنه وهمست متخابثة: «سأقدمك الى خير من ترفه عنك، الى (الارملة المرحة) كما نسميها . ألم تسمع عن بهيجه هانم؟ هيا هيا .. فقط أرجو ألا تخيب رجاءنا فيك» .. وأردفتها بغمزة من عينها، ذات مغزى!

لكم يلذ أحيانا لربات الخدور، العفيفات، أن يتصدقن على العزاب .. بغيرهن!

ثم قادته من يده الى ... حتفه!

- ٢ -



- هل لك فى كأس خامسة يابهيجة هانم ؟

- شكرا ، لا أستطيع ..

- اذن فلنخرج الى الحديقة .

- ماذا ، هل سئمت ضجيج الراقصين ؟

- بل ضقت بهذه النظرات التى تكاد تلتهمنى من كل جانب .. لكأن الجميع يحسدوننى على رفقتك !

- ومالك تترنح ... هل ثملت ؟

- من خمر عينيك ..

- أهكذا سريعا ؟ .. يامسكين !

- (فى صوت غير مسموع) كنت مسكينا حقا ، فى ماضى حياتى .. أما الآن !؟

- (وهما يجلسان على أريكة فى الحديقة) ماذا تعنى بهذه النظرات ؟ .. ألم تتعب من التحديق فى عينى ؟

- اننى أسائل نفسى : كيف أحس بالظمأ ، وأمامى هاتان العينان ؟.. لكن يبدو أننى كلما اغترفت منهما نظرة زادتنى لهيبا . انهما تزيدان الظمأ .. كماء البحر !

- (كالشامتة) أرأيت ... لقد بدأت تشفى من الخيال والشعر ، وتهبط من سمائك !

- ان رائحة الشواء تطغى على عبير البنفسج !!

. . . .

. . . .

ـ ماذا تقول ·· أكنت تقول شيئا ؟

ـ هل كنت نائمة ؟ آسف اذ أيقظتك من أحلامك !

ـ بل أحس بدوار ·· لقد أثقلت على بالخمر · (وهى تتلفت حواليها) ماهذا ، أكثر المدعوين قد انصرفوا ؟ لابد أن الليل قد تقدم · يجب ن أذهب ··

ـ ومتى نلتقي ؟

ـ (فى ضحكة ساخرة ذات معنى) وهل افترقنا حتى«نلتقى»؟

ـ (فى ارتباك) آه ، عفوا ·· لم أكن أقدر أنك ستولينني شرف مرافقتك حتى البيت !

*

واستقلا عربة (حنطور) لم تكد تمضى بهما حتى أمالت بهيجة رأسها على كتفه ، واستسلمت لتخدر يشبه النعاس ! ·· وكان الهواء يعبث بشعرها فيلقى خصلات منه على خده تدغدغ أعصابه ، فيتفاقم احساسه بالتعاسة وهو يكظم شوقه الى احتضان هذا الجسد الحريرى اللاصق به ·· وكلما مرت العربة تحت أحد مصابيح الطريق اضاء بنوره الخافت وجهها الساجى، وأجفانها المسدلة، ورقبتها ـ الشبيهة برقبة تمثال من المرمر لاحدى آلهات الاغريق ـ فزادها بهاء، وسناء! وأحس الفتى انه فى حلم · حلم رائع سرقه من دنياه الكئيبة الخالية من المسرات وألقاه فجأة فى فردوس بهيج من الاحاسيس والاخيلة الممتعة ، لم يكن له عهد به من قبل !

·· **والعربة** ماضية بهما فى سكون الليل ·· والجواد يخب فوق أرض الطريق فى انتظام رتيب، وكأن حوافره توقع (رومبا) ثائرة، رقص على نغمها قلب الفتى بين ضلوعه رقصة النشوان ·· وتملكته رغبة مباغتة فانحنى على الفم الناضج بين خديها يقطف عنابتيه ، وهو يودعه قبله استجابت لها المرأة بشفتيها وهى تغمغم كالنائمة ، دون أن تحرك ساكنا ! ·· وكانت العربة

قد بلغت بيتها ، وهي ما تزال في سبات المخمورة ٠٠ فحملها الفتى على ذراعيه الى المصعد ٠٠ ولحظتها فقط بدأت تفيق ، وتمسح النعاس عن أجفانها المتكسرة بأناملها الوردية ، وهي تبتسم له بعينيها الناعستين ، ابتسامة تسلب الوعى ٠٠ ثم دعته للدخول ، كي يستريح من عناء ٠٠ المصعد !

كلا ٠٠٠ ان هذا كثير ٠٠٠ ما عاد المسكين يحتمل هذه الفرحة الدافقة التي تسرى في بدنه وتنهش أعصابه ٠ أحقا آن له أن يعبر عتبة « الجنة » ؟ ٠٠ انه لا يصدق نفسه ، وحسه ٠ لا يصدق أن سنوات حرمانه الشاق قد انتهت ، وفردوسه المفقود قد وجد !

وأدخلته الى الصالون ، ثم استأذنت منه في أن تغيب لحظات ٠٠٠ فغاص في مقعد وثير ، وأسند رأسه الى الخلف ٠٠ وغاب في تأملاته السعيدة، وابتسامة الارتياح الخالص ترف على فمه٠٠

كم مضى عليه في جلسته تلك ؟٠٠ انه لا يذكر ٠ لا يذكر الا أنه تنبه فجأة على حفيف خطوات خفيفة بالقرب منه ، فاعتدل في جلسته ٠٠ واذا أمامه طفلة رائعة حافية القدمين تفرك عينيها لتمسح النعاس ٠٠٠

ـ سامية ٠٠ رباه ٠٠ سامية ! أهذا ممكن ؟

ـ فين ماما ٠٠ وفين داده ؟ صحيت مالقيتش حد في الاوده ٠٠ أنا خايفه أنام وحدى

ـ سامية ياحبيبتى ٠٠ انت لسه مش عارفانى ؟ مش فاكرة أونكل فتحى ؟

ـ أونكل ٠٠ فتحى ؟ أيوه صـــحيح ٠ كنت فين من زمان يا أونكل ؟ وفين بابا ٠٠٠ امتى حيرجع من السفر٠٠٠هو لسه ما اشتاقش على ؟

٠٠ وأدركتها الغصة فأغرورقت عيناها بالدموع وانخرطت في نشيج خافت بين ذراعيه ٠٠٠ بينما راح هو يغرق وجهها بقبلاته ودموعه ، وقد تناهبته الافكار : اذن فبهيجة هي (الملاك



الطاهر) الذى كان حامد يتعبد في محرابه طيلة سنوات الزواج؟!

٠٠ وكاد فتحي يستسلم لطوفان الذكريات والمشاعر التى داهمته، لولا أن تنبه لموقفه ٠٠ فأراد أن يحسمه قبل فوات الاوان ، فتناول وجه الطفلة بين راحتيه وهو يقمع دموعه :

– ساميه، اسمعي ياحبيبتي ٠ أنا رايح آجى مرة تانية علشان أجيب لك حاجة حلوة ٠٠ لكن دلوقت أنا ماشي ٠٠ لازم أمشى ٠ بس أرجوك تقولى لماما ان أونكل فتحي اللى كان صاحب بابا ٠٠ بيسلم عليك !!

وطبع على خد الصغيرة قبلة أخيرة ٠٠ ثم انفلت من الغرفة يسترق الخطى ٠٠ وفيما هو يعبر الردهة ، متلصصا ، قفز قلبه ٠٠ لمح بهيجة واقفة أمام المرآة فى زاوية مخدعها المعطر تتزين ، وتطوى (روبا) حريريا على بدنها الرخص ، وهى تتمايل وتبتسم ٠٠ لنفسها !

انتابه دوار قاس ٠٠ فتردد برهة ، ثم وقف يرقبها من مكانه وهو يرتجف ، كريشة فى مهب أعصار من الاحاسيس المريرة المتضاربة ٠٠ ثم – كأنما ليقطع على نفسه الطريق – أغمض عينيه، ومد يده المرتجفة الى الباب يفتحه فى حذر، ثم يغلقه خلفه!

وانطلق يهبط السلالم عدوا وهو يلهث ٠٠ كمن يفر من خطر داهم !

وحين استوى في داخل أول (تاكسى) صادفه ، وأمر السائق بالاسراع ، تنفس الصعداء ٠٠ أحس بارتياح ٠٠ موجع ! رباه ٠٠ لقد نجا !

الخالدون



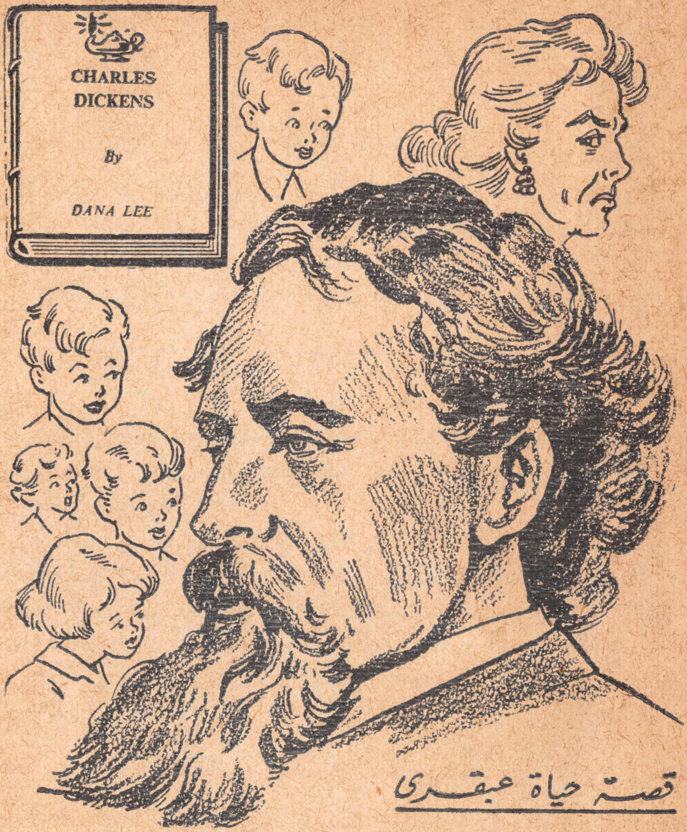
عظماء .. في غير السياسة

عزيزي القارئ ...

في الاعداد السابقة قدمت لك في هذا الباب على التوالي قصص حياة : « ديغاليرا » .. و « غاريبالدي » .. و«لويس باستير» .. و«اميل زولا» .. و«ماركوني» .. و«تشايكوفسكي» .. «مصطفى كمال» .. ثم «شوبان» .. و«جي دي موباسان» واخيرا «مختار» .. وهم من هم من العظماء في السياسة، والطب ، والادب ، والاختراع .. والموسيقى .. الخ

واليوم اقدم لك فيما يلي سيرة الروائي والناقد الاجتماعي الخالد «تشارلس ديكنز» ، مؤلف (قصة مدينتين) و(دافيد كوبرفيلد) و(أوليفر تويست) .. الخ

وفي الاعداد التالية اعرفك باذن الله بهؤلاء الذين تشتاق الى معرفتهم منذ بعيد : لورد بيرون ، شيللي ، براونتج .. بيتهوفن ، شوبرت .. فولتير ، شوبنهاور ، نيتشه ، ارسطو .. بوذا ، كونفشيوس .. داروين ، اينشتين .. شكسبير ، جوته ، اديسون ، فورد .. بلزاك ، والتر سكوت ، ديماس ، دستويفسكي .. كولمبوس ، الاسكندر المقدوني ، بطرس الاكبر ، فردريك ، بسمارك .. مايكل انجلو ، رفاييل ، ليوناردو دي فنشي ، وغيرهم



قصة حياة عبقري

تشارلس
ديكنز

طفولة تعسة

شغف تشارلس ديكنز – فى أكثر رواياته – بتصوير شخصيات صبية تجتمع فيهم الحماقة والطيش والمزاج السمج ، الى جانب الظرف واللهو واللعب .. ويختلط فى صدورهم الامل بالالم .. وقد كان هو فى حياته الواقعية واحدا منهم ، ولكن فى رجولته لا صباه !

أما فى صباه فكانت دنياه أبعـــد ما تكون عن الامل واللهو والمزاح .. **كان طفلا سقيما نحيل الجسم ، تصيبه كل حين نوبات من التشنج الناتج عن نقص التغذية .. مما جعل أباه يقول عنه : « ان هذا الصبى لن يعيش حتى يذوق مرارة سن النضوج وتجاربه ..! »**

وكان أبوه نديما للمرارة والاسى ، وقد شاركته أسرته فى ذلك مضطرة .. كان عمله كموظف بسيط فى محطة « بورتس » البحرية يفرض عليه أن يعانى صعوبة فى كسب عيشه ، وكان ميله الفطرى الى التبذير يغريه بانفاق النقود فى سهولة وسرعة .. فكانت العاقبة المحتومة لذلك انه عاش يكافح طوفانا هائلا متزايدا من الديون !

ولم يكد تشارلس يبلغ العام الثانى من عمره حتي نقل والده الى العاصمة « لندن » .. وكان معنى ذلك أن يزيد ايراده زيادة ضئيلة ، فى الوقت الذى تزيد فيه نفقاته زيادة كبيرة !.. وزاد الطين بلة انه الى جانب اسرافه وتبذيره فى انفاق المال كان مسرفا فى انجاب الذرية ، فلم تنقض على زواجه سنوات حتى كان قد ساهم فى تعمير الكون بثمانية أطفال ، من الذكور والاناث ، تركهم فى رعاية خالقهم وذهب ليقضى فترة راحـــة من مطاردة الدائنين له ، فى سجن « مارشالسى » .. سدادا لدين من ديونه العديدة !

وفى ظروف كهذه كانت فرصة ابنه « تشارلس » فى أن يتلقى قدرا وافرا من التعليم خيالا أوهى من خيوط العنكبوت .. فبدأت أمه بتعليمه المبادىء الاولية على ركبتيهــا .. ثم تلقى معلومات سطحية فى اللغة اللاتينية فى مدرسة «القس جايلز» . وكان يذهب بين حين وآخر الى المسارح تحت اشراف ابن عمه « جيمس لاميرت » .. **فلما بلغ سن الحادية عشرة كان قد نضج ـ فى عرف والديه ـ الى الدرجة التى تؤهله لان ينتقل من مرحلة الدرس والتحصيل الى مرحلة العمل لكسب العيش !**

وهكذا بدأ « تشارلس ديكنز » باحتراف الغناء الهزلى على خشبة المسارح الشعبية ، لقاء بنسات معدودات ، لم يجد فيها مشجعا كافيا على انفاق وقته و« مواهبه » فى التشرد على ذلك النحو .. فتعاون أبوه وابن عمه على البحث له عن عمل آخر أفضل . وبعد جهد تمكنا من الحصول له على عمل فى مصبغة بمنطقة « هنجر فورد ستيرز » .. وكانت وظيفته فيها أن يطلى « اليفط » واللافتات بالالوان !

بدأ حياته « نقاشا » !

وكانت الوظيفة مضنية وتافهة فى وقت معا .. كيف لا وهى تقتضيه أن يقف أمام نافذة المصبغة من الصباح الى المساء يعمل فرشاته فى الاصباغ والالوان ليطلى بها اللافتات المختلفة، والمارة يتوقفون عن سيرهم كل حين كى يلقوا فى وجهه بملاحظاتهم السمجة السخيفة ؟.. على أنه لم يكن يعدم منصفا يطرى أحيانا موهبة «هذا الفتى الصغير العجيب ذى الانامل البارعة ! »

وفى عطلة نهاية الاسبوع كان تشارلس يستمرىء لذة الشعور بأنه « ثرى » ، يملك ستة شلنات كاملة ! فكان يشترى لنفسه فطيرة يابسة يأكلها .. ثم يحمل بقية المبلغ الى والديه ..

وفى أيام الآحاد كانت نزهته الوحيدة أن يمارس رياضة المشى مع أبيه ـ الذى كان قد أطلق سراحه من السجن ـ فكانا يذرعان

شوارع المدينة ، من أحيائها الوضيعة الى أحيـــائها الراقية ، **وهناك فى « جنة الاغنياء » أو « أرض الاحلام » كان يحلو له أن يقف ليتأمل قصرا فاخرا فوق تل « جادز » ٠٠ فلم يكن أبوه ينتهره أو يسخر من أحلامه ، بل كان يشجعه بقوله : « اذا ثابرت على العمل بجد واجتهاد ، فقد تستطيع يوما ما أن تسكن هذا القصر بالذات ! »**

لكن تشارلس كان يجيب يائسا : « ياله من حلم مستحيل! »

يصدر مجلة وهو فى الخامسة عشرة !

◆ **وثابر** الفتى على عمله بجد وجلد ٠٠ وكانت أطماعـــه وأحلامه تتزايد بازدياد نضوج عقله وتفكيره ٠٠ وخطر له أن يستعيض عن « جنة الاحلام » البعيدة عن متنـــاول يده بجنة أخرى وهمية يخلقها لنفسه خلقا ٠ ومن هنا قرر أن يصير ٠٠ كاتبا !

وكانت أولى محاولاته فى هذا الصدد أن أصدر مجلة لمدرسة « ولنجتون هاوس » التى كان يتردد عليها فى أوقات فراغـــه ليستزيد من العلم ٠٠ وكان هو مؤسس المجلة ومحررها الوحيد، الذى يبيع نسخها لقاء قلم من أقلام الاردواز أو كرة زجاجية من الكرات الصغيرة التى يلعب بها الصبية ٠٠ وانتفخ صدره زهوا بهذه الثمرة لجهاده ، فقد اعتبر نفسه بسببها رجلا من « رجال الاعمال » الناجحين !

لكن أبويه كانا فى حاجة الى أشياء أهم فى نظرهما من الاقلام الاردوازية والكرات الزجاجية الصغيرة ، كى يواجهـــا مطالب الحياة ومطالب أطفالهما العديدين ٠٠ ومن ثم أخرجاه من مدرسته الليلية هذه ــ وهو فى الخامسة عشرة ــ ليلحقاه بمكتب أحد المحامين ٠٠

ولم يكن تشارلس يتوق الى أن يصير محاميا ، فان أمنيتـــه القديمة فى أن يصبح « مؤلفا » كانت ما تزال تداعب خياله ٠٠



ديكنز فى شبابه

فدرس الاختزال ، فى مكتب المحامى الذى يعمل عنده ، فى الوقت الذى داوم فيه على الكتابة كلما وجد فسحة من الفراغ ٠٠ وعلى هذا المنوال لم يبلغ العشرين حتى كان يعمل «بروحين» : فى النهار مندوبا برلمانيا لاحدى الصحف ٠٠ وفى الليل كاتبا يصور الحياة فى عاصمة بلاده تصويرا خياليا طريفا ، ويوقع قصصه بتوقيع مستعار هو : «بوز» !

وقبلت صحيفة شهرية تدعى « منثلى مجازين » أن تنشر تلك القصص ، أو الصور ، فى أعدادها ٠٠ بغير أجر ! **فلما وقع بصر تشارلس على قصته الاولى منشورة على صفحات المجلة - وكان وقتئذ فى قاعة وستمنستر - ظل يدور فى أنحاء القاعة أكثر من نصف ساعة « من فرط فرحتى وزهوى اللذين ألقيا على عينى سحابة عجزت معها عن رؤية الطريق ٠٠! »**

كانت حياة ديكنز الشاب فى تلك الفترة ذات وجهين : كان فى أوقات عمله نموذجا للمكافح المثابر ، لا يمل أو يتعب ٠٠ وفى أوقات لهوه نموذجا للصديق المرح الخفيف الروح والحركة ، أو على حد تعبير معاصره « لى هنت » ذات يوم : « كان وجهه يفيض حياة وحيوية ، وكأن جسمه يضم أرواح خمسين كائنا حيا ، لا كائنا واحدا ! »

يصدم فى حبه الاول !

◆ **لكن** « حياته وحيويته » لم يعوضاه عن افتقاره الى المال - عماد الحياة والحيوية فى عصر المادة - الذى حال بينه وبين

أن يظفر بالمخلوقة التى أحبها أكثر من جميع البشر ، **وهى فتاة تدعى « ماريا بيدنل » كان أبوها مديرا لاحد بنوك لندن ٠٠ فقد طلب تشارلس يدها للزواج ، فكان جواب أبيها : « ان ديكنز شاب لطيف ، لكن احترافه كتابة القصص لن يجعله قادرا على أن يناسب ابنتى من ناحية المظهر ! »**

ومن مضحكات الاقدار أن تلك الفتاة « ماريا » لم تلبث أن تزوجت من شخص غنى ، فلم تمض سنوات حتى صار فقيرا معدما ! بينما استمر ديكنز فى كتابة القصص فصار فى خلال سنوات معدودات رجلا « ثريا » ! فقد بدأ المال ينهال عليه من حيث لا يعلم ــ ولم يكن قد جاوز العشرين الا بسنوات! ــ وكان الفضل فى ذلك لقصصه القصيرة التى كان يوقعها باسم «بوز» والتى أعجب بها الناشران «تشابمان وهول» الى حد جعلهما يعهدان اليه بأن يكتب لهما حلقات مسلسلة شهرية تعليقا على صور رياضية لرسام مشهور يدعى « روبرت سيمور » ٠٠ **لكن السلسلة التى كان مفروضا فيها أن تكون عملا صحفيا عابرا استحالت بفضل قلم ديكنز الموهوب الى عمل أدبى خالد ، هو الكتاب الذى يعرف الآن باسم « أوراق بيكويك » !**

حبه الثانى ٠٠ وزواجه

وقد كانت الصفحات الاولى من « أوراق بيكويك » عادية ، لم تلق نجاحا كبيرا ٠ ورغم ذلك فقد وجد ديكنز أثناء تلك الفترة المقترنة بالفشل الجرأة الكافية للاقدام على الزواج من مختارته الثانية « كاترين هوجارث » ، التى أحبها بحيث كان يرقص كالمعتوه تحت نافذتها ! ٠٠ ثم تلا ذلك حادث مفاجىء ، هو انتحار الرسام « روبرت سيمور » واختيار رسام آخر للصحيفة يدعي « هابلوت براون » ــ الذى اتخذ له رمزا اسم « فيز » ــ ومنذ تلك اللحظة كتب لاوراق بيكويك نجاح هائل ٠٠ فقد تم الانسجام بين « بوز » و « فيز » فاستحث كلاهما الآخر على

الاتقان والتجويد حتى بلغا القمة فى صفحات امتزج فيها الضحك بالبكاء امتزاجا فريدا ٠٠!

وشاءت الظروف لديكنز وهو يكتب « أوراق بيكويك » أن يمتزج البكاء بالضحك في حياته الخاصة أيضا، حين فقد «مارى» شقيقة زوجته ـ التي كانت تعيش معهما منذ زواجهما ، وكانت لها في قلبه مكانة خاصة ـ فانقطع عن كتابة فصوله المسلسلة المتعة شهرين كاملين ، مما اضطر الناشرين الى الاعتذار لقرائه بهذه العبارة : « بعد ظهور الفصل السابق من هذه الفصول فجع المؤلف فجأة فى نفس شابة من أقرب النفوس اليه وأعزها عليه، وقد كانت رفقتها بالنسبة اليه ـ لفترة طويلة من الزمن ـ عزاءه الوحيد عن متاعبه ومجهود عمله ٠٠ »

ولم يفق ديكنز من آثار تلك الصدمة تماما طيلة حياته ٠ صار كل ذكر للموت فى رواية من رواياته ، أو موقف من مواقفه يصوره فيه ، ينكأ جرحه القديم ويجعله ينزف من جديد !٠٠ وحين استأنف كتابة فصوله « أوراق بيكويك » بعد ذينك الشهرين كانت له نفسية شيخ حزين حكيم ، رغم انه لم يكن قد جاوز عامه الرابع والعشرين !

مجد باكر ٠٠

◆ وشربت لندن بأسرها نخب نجاحه ، أو على حد قول أحد معاصريه : « لم يبق مكان فى انجلترا لم ينفذ اليه (بوز) ٠ **صار الطبيب الشهير يقرأ فصوله وهو فى عربته منطلق الى مرضاه ، والقاضي الكبير يقرأها وهو على المنصـــة حين يخلو المحلفون للمداولة ! بل ان شخصا يحتضر قال لقسيسه وهو على شفا الموت : « أشكر الله لانى أستطيع الآن أن أموت فى سلام ، فقد فرغت منذ برهة من قراءة آخر فصول بيكويك ٠٠ »**

ونتيجة لذلك النجاح الشعبى أمطر الناشرون ديكنز بطلباتهم كى يكتب لهم المقالات والقصص القصيرة والطويلة ٠٠ فقبل كل

ما طلب منه ، قائلا : « ان الحياة أقصر من أن يضيع المرء منها وقتا ، ومخيلتى مزدحمة بالشخصيات التى تتوسل الى كى أخرجها الى الحياة ! » ٠٠ وهكذا صار يقتل نفســـه من فرط الاجهاد والانكباب على الورق ، فكتب فى عام واحد ثلاث روايات طويلة وقصة « أوبريت » وقصة هزلية ، فضلا عن توليه رياسة تحرير احدى المجلات الادبية ٠٠

لكن افراطه فى العمل لم يحجبه عن المجتمع ، فكان يظهر فى المساء فى مجتمعات الادباء والخاصة من المثقفين - أو « ملح الارض » كما سماهم - حيث كان الكاتب الشاب يتـألق فى سترته الخضراء الزاهية ، وعينيه المشرقتين ، غير مبال بتعبه فى عمله طيلة النهار ٠٠ وبذلك أشعل ديكنز شمعة عبقريته من كلا طرفيها ، واستمرأ أن يراها تتألق وتتوهج ٠ وراح يبعثر ماله وصحته ، ويضاعف كتبه وشهرته ٠٠ ونسله ! - ولكن من امرأة لم يكن يحبها !

علقم التعاسة الزوجية !



◆ **ذلك** أن زوجته «كاترين» كانت برغم جمالها ، خرقاء ، « تصطدم بكل من يمـر فى طريقها» على حد تعبيره، تهتم بالسفاسف من الامور وتنفجر غاضبة لأوهى الاسباب!٠٠ أو هذه هى الصورة التى نراها عليها من خلا ل عينى ديكنز، واعتمادا على روايته٠٠ولاشك أن للصورة جانبا آخر ، من وجهة نظرها

هى ، وهو جانب لعلها لم توضحه لان موهبة زوجها فى الوصف ووسائله فى النشر كانت تنقصها ·· **لكن الانسان يستطيع أن يتصور بغير كبير عناء مبلغ الحلم واللباقة وحسن التصرف التى لابد أن تتحلى بها زوجة رجل مشهور تتهافت عليه نساء لندن!**

وغنى عن البيان أن كاترين ديكنز لم تكن المرأة التى وهبتها الطبيعة كل هذه الصفات · ولكن ايا كانت علة انعدام التكافؤ الزوجى بينها وبين زوجها فالمقطوع به أن تشارلس ديكنز قد ذاق شهد النجاح مشوبا بعلقم التبرم والنكد ومرارة الجو فى بيته ! لكنه ابتلع الشراب المخلوط الذى فرضه عليه القدر ، وواصل النهوض بعمله الادبى ··

خيبة أمله فى أميركا !

◆ **فى** تلك الاثناء كان ديكنز مشوقا الى زيارة أمريكا ، بقدر اشتياق الامريكيين الى رؤية الكاتب الذى طبقت شهرته الآفاق! ·· وأخيرا ــ وفى سن الثلاثين ــ قام ديكنز برحلته الاولى الى أمريكا ، لكن الزيارة التى بدأت فى جو من الشوق المتبادل ختمت فى جو من خيبة الامل ، المتبادلة أيضا ! ·· فعندما حان وقت رفع الكلفة بين الضيف ومضيفه ــ بعد جولة موفقة فى أنحاء نيويورك وبوسطن وبلتيمور وفلادلفيا وواشنجتون وعشر غيرها من مدن أمريكا الكبرى ، وهى جولة ألقى فيها ديكنز عشرات المحاضرات واستمتع بمختلف مظاهر الاستقبال ومآدب التكريم والحفاوة ــ نقول حين جاء أوان رفع الكلفة بين الكاتب الانجليزى وجمهوره الامريكى ، **رفع كلا الطرفين نقاب الاحترام والنفاق فتبادلا المصارحة بالاحتقار المتبادل ، وغالى كل منهما فى تجسيم عيوب الآخر ·· فوصف ديكنز أمريكا ، بسخريته المعهودة ، بأنها « البلاد التى يتناثر بصاق أهلها على المسافرين فى القطارات ، كما يتناثر الريش من وسادة شق بطنها ! » ·· ونعتت مجتمعات أمريكا ديكنز بأنه « دجال حقود ، يعض اليد التى تمطره بالمال وتصب الذهب فى حلقه صبا ! »**

والواقع أن مبعث الخلاف بين الطرفين انحصر فى شكوى ديكنز من « قرصنة » الناشرين الامريكيين ، الذين استغلوا تسامح قوانين بلادهم فى حفظ حقوق النشر للمؤلف فطبعوا ملايين النسخ من كتب ديكنز وباعوها فى أنحاء بلادهم دون أن يدفعوا له مقابل ذلك دولارا واحدا !

الروائى الذى أصلح المجتمع !

◆ **ثم** عاد ديكنز الى وطنه ، فشرع – عن طريق قصصه وكتبه – فى شن حملة بل سلسلة من الحملات الاصلاحية التى تهدف الى اظهار مفاسد ونقائص نظم الحكم والمجتمع فى بلاده ٠ وأعانه على نجاح حملاته ورواجها قلمه « الكاريكاتورى » الساخر وأسلوبه الشاعرى ٠٠ **وهكذا ظل يدفع حكومة بلاده من اصلاح الى اصلاح ، آنا بالتملق وآونة بالتعنيف ٠٠ تارة بالسخرية وتارة بالتهديد ٠٠ الامر الذى يلمسه القارىء فى كل رواياته بلا استثناء !** ٠٠ حتى لقد قال زميله « تاكرى » يصف أدبه : « لقد كتب قصصه لقراء ناضجين ، بعقلية أطفال ! » ٠٠ ورغم أن تاكرى قد أدلى بهذه العبارة بتأثير حسده لزميله وغيرته من نجاحه ، فقد شكره عليها ديكنز معلقا بقوله : « هذا صحيح ٠٠ فانى أكتب للجنس البشرى ! » ٠٠ يعنى بذلك أن البشر أغبياء أكثر منهم أشرارا أو فاسدين ، والرجال فى هذه الدنيا ليسوا غير أطفال ذوى لحى ، ومن ثم فهو يستطيع أن يجعلهم يضحكون من غبائهم ذاته بأن يعرض عليهم صورا لانفسهم فى أوضاع محرفة ! ٠٠ وهكذا يشعر القارىء لمؤلفات ديكنز كأنه قام برحلة فى مدينة للملاهى حافلة بالمرايا المقعرة والمحدبة التى تجسم العيوب والملامح بتكبيرها أضعافا ! ٠٠ وليس أصدق فى هذا الصدد من قول أحدهم : « ان انجلترا قد أنجبت اثنين من أعظم الفنانين فى العالم : هما «رينولدز» رسام الجسم البشرى ، و « ديكنز » رسام النفس البشرية ! »

« دافيد كوبرفيلد » صورة محرفة لحياة ديكنز

◆ **على** أن ديكنز كان أكثر من مجرد رسام ٠٠ كان قصصيا نابغة ! وكانت سهولة حبكه لعقد رواياته موضع حسد وغيرة منافسه « تاكرى » ، الذى كان دونه بكثير فى سعة خياله ، وان فاقه بكثير فى فلسفته ! ٠٠ **وقد وصف معاصر آخر « ديكنز » بقوله : « ان هذا الرجل يبدو وكأنه شاهد كل بقعة فى كل بلد ، وعرف كل شخص ، وأحس بتجارب كل انسان ! » ذلك أن كل رواية من رواياته تحوى وصفا لسياحة المؤلف ـ بجسمه وروحه ـ فى أنحاء العالم كله ، ولو أن فى كل منها بضعة من حياة ديكنز الخاصة !** ٠٠ وأدق مثل لهذه الظاهرة قصة «دافيد كوبرفيلد» ، التى وصفها فى احدى المناسبات بقوله : «ان أردتم أن تعرفوا حياتى ، فاقرؤا دافيد كوبرفيلد ! » ٠

لكن فى هذا القول شيئا من المغالاة ، فقصة دافيد كوبرفيلد انما هى قصة «خيالية» لحياته ، « أما وقائع حياتى الواقعيـة » ـ كما قال مرة للاديب الذى ترجم القصة الى الفرنسية : «فانى أحتفظ بها لنفسى ! »

فقصة دافيد كوبرفيلد اذن هى الصورة المحرفة لتشارلس ديكنز ٠٠ بل ان الحرفين الاولين من اسم بطل القصة همـــا نفس الحرفين الاولين من اسمه هو ، ولكن معكوسين ! ٠٠ ودافيد يشبه تشارلس فى أنه نشأ مثله طفلا فقيرا ، لكنه يخالفه فى كونه قد اضطر لان يعيش فى كنف زوج أمه القاسى « ادوارد مردستون » ٠ وفى سن الحـادية عشرة بـدأ كل من دافيـد وتشارلس حياته العملية ، وهنا نرى مثلا من أمثلة مزج الحقيقة بالخيال ، فبينما يشتغل دافيد فى تلك السن لكسب عيشه نراه يقطن مع مستر ولكنز ميكوبر وزوجته وأولادهما الصغار ٠٠ لكن بنسيون أسرة ميكوبر هذا هو فى حياة ديكنز الحقيقية

منزل أهله ! ·· **ومستر ميكوبر – فى القصة – يطابق فى أوصافه شخصية والد ديكنز نفسه ، الرجل الطيب المؤمن بعدالة العناية الآلهية ، والذى يتوقع دائما أن يحدث شىء يعدل كفة الميزان ، لكنه لا يحرك قط اصبعا كى يبدأ تحريك الكفة !**

وكما تسبب دائنو ديكنز الاب فى ادخاله السجن وفاء لديونه ، نرى مستر ميكوبر يسجن لنفس السبب ، ثم يقع فى قبضة عصابة من المستغلين الاشرار ·· وأخيرا تعينه عمة دافيد على أن يبدأ صفحة جديدة من حياته فى بلاد الغربة ، أستراليا ·· ولعل ديكنز حين نقل بطل قصته الى تلك القارة النائية قد عبر عن أمنية عقله الباطن فى أن يرى أباه سليما سعيدا محبوبا ، ولكن بعيدا عنه بقدر الامكان ، فان وجود الاب كان حملا دائما على ميزانية ابنه وازعاجا دائما لسكينة نفسه !

أما بقية القصة فهى أيضا خلط بارع للحقيقة بالخيال ، فان دافيد يعمل – مثل تشارلس – فى مكتب محام ، ويتعلم الاختزال ، ويصير مؤلفا ناجحا ، ويتزوج من مخلوقة جميلة خرقاء ·· **ولكن هنا يعود فيظهر الاختلاف بين القصة والحياة ، فان زوجة دافيد كوبرفيلد تموت ، ويتزوج من امرأة أخرى تناسب أطماعه ·· بينما زوجة ديكنز تبقى على قيد الحياة! ويفسر علماء النفس هذه الظاهرة بأن تخلص المؤلف من زوجة بطل قصته انما هو تعبير عن رغبة مكبوتة فى التخلص من زوجته هو !**

وعند هذا تقف أوجه الشبه بين قصة دافيد كوبرفيلد وحياة مؤلفها تشارلز ديكنز ، وتمضى القصة بعد ذلك من نسج الخيال المحض ، الخيال الذى هو بالنسبة للمؤلف يشبه الحقيقة ، فانه من العسير وضع حدود حاسمة بين وحى الواقع ووحى المخيلة فى ذهن الفنان الخالق ·· وفى هذا يقول ديكنز : « اننى أعيش مع كل شخصية من شخصيات أبطالى »

طفل ذو نزوات وأهواء ٠٠ !

◆ ٠٠ **وكلما** تقدم ديكنز فى السن ، ازداد ميله الى الاختلاط بالناس والظهور فى المجتمع ٠٠ وكانت حياته قد أضحت سلسلة متصلة الحلقات من الانفعالات السارة البهيجة ، فقد ظل دائما يؤلف الكتب الجديدة ، ويتعرف الى الاصدقاء الجدد ، ويتعلم خطوات الرقصات الجديدة ! ٠٠ **وتروى ابنته فى هذا الصدد انه عقب تلقينه أصول رقصة جديدة معقدة ، ذات مرة ، قفز من فراشه فى منتصف ليلة باردة وبدأ يتدرب على الرقصة على أنغام صفيره الخاص ، برغم مضايقة أفراد أسرته الذين أيقظتهم الحركة !**

وطيلة حياته ظل ديكنز أشبه بالطفل المدلل ، الذى لا يشعر بالمسئولية ٠٠ الطفل ذى النزوات المتقلبة والاهواء المتغيرة والميل الى الاسراف والتبذير والتنقل من مكان الى مكان٠٠وبقدر ماكانت النقود تدخل جيبه بسهولة كانت تخرج منه بنفس السهولة ! ٠٠ وكان هو يحس ـ ويستمتع ـ بطابع الثمل والنشوة الذى يطبع حياته ، فيصيح مهللا : « ان ثلاثة أرباعى مجنون ، والربع الباقى مخمور يهذى ! »

وكان عقله ـ المتفوق على عقول أكثر الناس نشاطا وحيوية ـ ينفر بطبعه من الاخلاد للحياة الهادئة المنتظمة أو المستقرة ، ومن ثم هداه الى مجال جديد يمارس فيه جديدا من الانفعالات ٠٠ ولم يكد العقل يرسم الخطة حتى سارع الجسم الى تنفيذها ، رغم انهاكه الشديد ٠٠ **وهكذا رأت انجلترا ديكنز ينقلب من مؤلف الى مخرج مسرحى ، وصاحب فرقة ، وممثل ، فى وقت واحد ! ٠٠ وعلى رأس فرقته أخذ يجوب الاقاليم فيعرض الروايات القديمة المشهورة ، ويؤلف مسرحيات جديدة ، ويغازل الحسان ٠٠ تاركا خلفه فى كل بقعة يحل فيها جوا ضاحكا مرحا !** وكان أخص ما يهواه من التمثيليات قصص

الاطفال ، أصدقائه الذين يفهمهم ويفهمونه أكثر من سواهم ، والذين لم يبخل عليهم بوقته فى أى مرحلة من مراحل انشغاله بعمله ، فكان يسليهم فى كل مناسبة ويداعبهم ٠٠ وكان بيته على الدوام يعج بالاطفال ـ الذين كان منهم عشرة من صلبه ! ـ والباقون أصدقاؤهم وخلانهم الكثيرون الذين جاءوا لزيارتهم ٠٠ وكثيرا ما كان ديكنز يترك عمله فى منتصف عبارة من العبارات كى يشارك الاشقياء الصغار لهوهم ولعبهم !

حبه الرقيق « الشاذ » للاطفال ٠٠

وكان مسلك ديكنز مع الاطفال مظهرا لاغرب أطواره وأكثرها شذوذا وأدعاها الى الضحك ٠٠ بل مظهرا لرقة شعوره الزائدة! وفى هذا يروى صديق له أنه **بينما كان يتمشى معه ذات ليلة باردة من ليالى الشتاء فى أزقة حى من أحياء لندن « وقف أمام أحد البيوت واختطف طفلا صغيرا من ذراعى أمه الثملة وحمله على ذراعيه ـ رغم قذارته ـ كى يدفئه ويعنى بأمره ! »** ٠٠ وفى مرة أخرى كان الصديقان يسيران فى سوق «هنجر فورد» حين رأى ديكنز عربة فحم تسير أمامه ، وفى مؤخرتها جلس رجل يحمل على كتفه صبيا متوردا ملطخ الوجه بالفحم ٠ وكان ظهر الرجل الى الصديقين بحيث لم يكن يراهما ، فأعجب ديكنز بالصبى و«غمز» له بعينه ٠٠ فرد له الصبى الغمزة بمثلها ٠٠ وتطور الامر بينهما من الغمز الى التفاهم الصامت الطريف ، فما كان من ديكنز الا أن ابتاع من أحد الباعة سلة من « الكرز » وأخذ يلقم الصبى حباتها حبة بعد الاخرى وهو سائر خلف العربة ٠٠ حتى فرغت السلة ، دون أن يلحظ والد الصبى شيئا من هذه الرواية اللطيفة !

بهذه العقلية ، والنفسية ، كان ديكنز يرى أن الحياة ذاتها يمكن تحويلها الى رواية هزلية ، اذا نظر اليها المرء من الزاوية

الصحيحة ! ٠٠ وقد كانت الاقدار فى الواقع تلقم ديكنز حبات الكرز ـ المجد والشهرة والثراء ـ حبة حبة ٠٠ بكل ما تحمله من لذة للمذاق ونشوة للنفس !

ولكن أخيرا أصيبت المعدة بعسر الهضم ! ٠٠ **كان الروائى الكبير قد اشترى قصر « تلال جادز » الذى مناه أبوه به يوما وهو صبى فقير ٠٠ واقتضاه شراؤه والسكنى فيه مزيدا من الاسراف ، ومن ثم مزيدا من العمل ، ومن الاصدقاء ، ومن اللهو، ومن الاستفزاز لاعصاب زوجته ٠٠ الامر الذى انتهى الى انفصال حاسم بينهما ، أعقبه انهيار صحته !**

لكنه لم يكف مع ذلك عن العمل ٠٠ كانت نفقاته فى ازدياد، واقبال الجماهير ـ ومن ثم اقبال الناشرين على قصصه ـ فى ازدياد مماثل ٠٠ فشرع فى القيام بجولة فى أنحاء انجلترا وأمريكا كان يقرأ خلالها مقطوعات من قصصه على الجماهير فى قاعات المحاضرات٠٠ فقوبل فى كل مكان بالترحيب والتصفيق ٠٠ والذهب !

أمريكا تنسى له اساءاته السابقة !

وكتب من « ايكستر » الى صديق له فى لندن يقول له : « لم أحلم يوما بمثل هذا التعلق الذى أمطرتنى به الجماهير ! » ٠٠ **حتى لقد استوقفته امرأة ذات يوم فى أحد شوارع نيويورك كى تقول له : « مستر ديكنز ٠٠ دعنى ألمس اليد التى ملأت بيتى بالاصدقاء ! »** ـ تشير بذلك الى أبطال قصصه ـ وكتبت امرأة أخرى من بوسطن تقول : « ان هذا الرجل ساحر حقا ، تتغير ملامحه كلما انتقل من وصف شخصية الى وصف شخصية أخرى ٠٠ ويتغير صوته ويتبدل بقدر عدد شخصيات قصصه »

وأحيانا كان المستمعون يضجون بالتصفيق الحاد ، الجنونى، عند سماع بعض مقطوعات قصصه أثناء القائه اياها ٠٠ الى حد تختلط معه أصوات الايدى بدقات الاقدام وصيحات الاستحسان

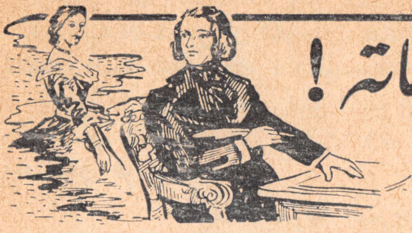
والاستعادة مرة بعد مرة ٠٠ حتى تبح أصوات الحاضرين من الضحك وتسيل دموعهم أنهارا !

٠٠ **وديكنز** ماض فى جمع المال ، واستنزاف صحته ٠٠ حتى عاد من أمريكا ــ بعد جولة استغرقت خمسة أشهر ــ يحمل فى جيبه مائة ألف دولار ٠٠ ويحمل على وجهه طابع ٠٠ الموت! فبرغم أن قلبه كان ما يزال قلب طفل ، فان جسمه أمسى جسم شيخ مهدم ٠ صار أبسط انفعال يصيبه يدفع الدم الى يديه حتى لتبدوان أحيانا سوداوين ! وساء هضمه الى درجة أعجزته عن تذوق الطعام ، وأرغمته على الاكتفاء بشرب السوائل ٠٠ وهبط غذاؤه اليومى الى بضع قطع من البسكويت مغموسة فى القشدة ، وقدح من حساء لحم البقر ، وكأس من « الشيرى » ، وبيضة مخفوقة بملعقة من الروم ، كى يعطيها طعما !

مأتم شعبى !

ثم هاجمه الارق والسهاد المتواصلين ، والشعور بفقدان الشهية ٠٠ وان استمرت قراءاته القصصية للجماهير طيلة ربيع سنة ١٨٦٩ ، ثم خريفها ، فشتاء سنة ١٨٧٠ وربيعها ! ٠٠ حتى عجز آخر الامر عن احتمال المجهود ، فقال فى محاضرته الاخيرة موجها كلامه الى سامعيه : « **سوف أختفى الآن ــ الى الابد ــ من هذه الاضواء الباهرة ، بقلب يملؤه الشكر والاحترام، والحب لكم جميعا ٠٠!** »

ولم تمض أسابيع حتى مثل ــ لاول مرة ــ أمام جمهور نظارته الجدد الخالدين ، من الاطفال الظرفاء المرحين الضاحكين ، الذين تحفل بهم رحاب الفردوس ! ٠٠ وكانت وفاته ــ فى سنة ١٨٧٠ ــ مأتما « شعبيا » مشهودا ، حتى لقد كانت بطاقات الرثاء والعزاء الخاصة به تباع فى طرقات لندن !!



ديكنز .. وملهماته !

صفحات من حياة
العبقري الخاصة .. ورسائله

ديكنز ٠٠ وملهماته

◆ قرأت معى فيما سبق قصة حياة ديكنز من ناحيتها العامة ، وقد عرفت منها طرفا من حياته الخاصة وقصة شقائه الزوجى ، بقدر ما تعرض لها مؤلف الكتاب ، فى المامة خاطفة .. وقد رأيت ان اتقصى لك ماأهمله المؤلف المذكور من هذه الناحية الهامة فى كتابين آخرين : احدهما تحدث فيه مؤلفه - ماتانيا - عن غرام ديكنز بالممثلة «الين تيرنان» .. والثانى روى فيه مؤلفه - تشارلس أوسبورن - قصة صلة الروائى الخالد بالبارونة «برديت كوتس» ..

وفيما يلى خلاصة وافية للقصتين الشائقتين :

١ - غرام ٠٠ فى الخامسة والاربعين !

◆ **بينما** كان «ديكنز» منصرفا الى تأليف فرقة من الممثلين المحترفين ، لاخراج احدى مسرحيات صديقه «ويلكى كولينز» فى (مانشستر) ٠٠ لقى عناء فى اختيار العناصر النسوية ٠٠ وفجأة ، تذكر فتاة ٠٠ فتاة كانت له معها قصة عابرة ! ٠٠ اذ كان قبل ذلك بزمن، يجوس وراء كواليس مسرح «هايماركت» أثناء التمثيل - ذات مساء - واذا به يرى رأسا أشقر صغير يهتز فوق جسد انكمش فى أحد الاركان خلف المسرح ٠٠ واقترب من الفتاة ، فألفاها تبكى ٠٠ !

وذابت عواطفه اشفاقا ، فرفع الرأس الاشقر الصغير فى حنان ، واذا بعينين زرقاوين تتطلعان اليه من وراء الدموع ٠٠

وسألها عما أبكاها ·· وفى صوت لم يسلبه الاسى عذوبته ، شكت اليه الفتاة من ان القوم استصغروا شأنها كممثلة مبتدئة، فعهدوا اليها بدور تافه ، وألبسوها ثيابا رثة ··

وواساها «ديكنز» فى حنو الاب وحكمة الكهل، ثم أنهضها وقد طمأن نفسها وسرى عنها ·· ولم يتمالك ان أعجب بجمالها وامتشاق قوامها ··

بطلة الفرقة المسرحية ··

ولكن الامر لم يعد يومئذ هذا الحد ·· وان كان مظهر «الين تيرنان » _ تلك الممثلة المغمورة _ قد حرك قلبه ، فى انتفاضة عابرة (اذا كانت تشبه أول فتاة علق بها قلبه ، وهو بعد فتى فى مرحلة المراهقة !)

ومر الزمن ··

ثم تذكر « ديكنز » الفتاة وهو يؤلف الفرقة المسرحية ·· وضم «الين» الى الفرقة ·· وضم معها أختها « ماريا » ، وأمهما !

واذ راح يرعى الفتاة ، أخذت الروابط تشتد وتتوثق بينهما، حتى ان « الين » كانت لا تكاد تفارقه ·· تجلس الى جوار مكتبه اذا انصرف الى التأليف ، وتستوى على مسنة مقعده تغنى معه اذا جلس الى العزف يرفه عن نفسه ··

واختار « ديكنز » لنفسه دور البطل فى مسرحية صديقه ·· وعهد بدور البطولة الى « الين » ·· وكان البطل رجلا تنتهى المأساة بموته وهو يبارك الرجل الذى ود أن يقتله ، والبطلة التى شغف بها هوى ! ·· وأجاد « ديكنز » تمثيل دوره حتى ملك على النظارة مشاعرهم ··

قلب يتمرد ·· فى الكبر !

ولم يكد الستار يسدل فى نهاية العرض الاول ، حتى أحس «ديكنز» ان القلب الذى خاله كبر واستقر _ قلبه _ قد أعلن

الثورة وألهبته نزوات الشباب النزق ، فى حين أنه كان فى الخامسة والاربعين من عمره !

ولم يفت « كاترين » ـ الزوجة التى عاشرته واحدا وعشرين عاما ، وأنجبت له عشرة أطفال ـ ان تلاحظ التطور الذى أصاب زوجها ٠٠ وانقلب التوجس الى تأكد يوم أظهر ديكنز « الين » فى دور « لوسى » فى احدى مسرحياته ٠٠ وكانت تقول لصديقة لها :

ـ لعلك عجبت مرة أو اثنتين من بقائى حتى اليوم دون زواج ٠٠ لسوف أبقى هكذا ياعزيزتى طوال العمر ، لان الرجل الذى أحببته من كل قلبى ٠٠

وتسألها زميلتها فى المنظر ملتاعة : « مات ! ؟ »

فتقول : « مات ٠٠ بالنسبة لى ٠٠ فهو متزوج ٠٠ وما أظنه حدس يوما مدى حبى »

وبدأت كاترين ـ أو «كيت» ـ تقاوم القدر ٠٠ وحاولت أن تتشبث بزوجها حتى لا يجرفه التيار ٠٠

ولكن ٠٠ حدث ذات يوم ان تلقت سوارا ثمينا ، لم تلبث ان تبينت ان زوجها أرسله هدية الى « الين » فحمل اليها خطأ !

وكان مشهدا عنيفا فى حياة « ديكنز » ٠٠

بين الزوجة والعشيقة

◆ ولكن تلته مشاهد أعنف ٠٠ وذات يوم سمعت «كيتى» ـ كبرى بنات « ديكنز » ـ نشيج أمها يرتفع من مخدعها ٠٠ وكانت الفتاة قد أدركت العاصفة التى تعبث بالاسرة ٠٠ وأسرعت الى أمها ، لتعلم ان «ديكنز» ـ الرجل الذى طالما دعا الى تمجيد الاسرة ـ قد أصر على أن تسعى زوجته الى زيارة عشيقته ، قطعا لالسنة المتقولين ، وصونا لسمعته أمام الناس !

وضربت « كيتى » ـ الابنة ـ الارض بقدمها صائحة : « لن تنصاعى له ٠٠ ولن تذهبى » !

ولكن «كيت» ذهبت وهي تدوس كبرياءها بقدميها ٠٠ فقد كانت لا تزال تهوى « تشارلس » ، وتعتبر رغبته أمرا مقدسا !

ولكن « تشارلس » كان قد انصرف عن هواها ٠٠ وبدلا من أن يأسره صنيعها ويرده الى حجاه، ألفى نفسه يفكر فى الانفصال عنها ٠٠ عن الزوجة التى طالما أحبها ، والتى عاش معها كل ذلك العمر ، وأنجب منها كل هؤلاء الاطفال !

وكان من الطبيعى أن يتلمس المعاذير ليسكت صوت الضمير ٠٠ وكان من تلك المعاذير المنتحلة ان «كيت» لم تكن تأبه الا لبيتها وأطفالها ، فلا تصلح شريكة لرجل ذى مكانة تحتم عليه الظهور فى المجتمع ٠٠ اذ أنها تكره الحفلات ، وقد أصبحت تتثاقل عن مرافقته فى أسفاره وتنقلاته ٠٠

فاتت فرصة الاصلاح !

وفعلت المعاذير فى ضميره فعل المخدر القوى ٠٠ فبدأ يرى حياته مع «كيت» شقاء وتعاسة ٠٠ ومن ثم لم يلبث يوما ان كتب الى وصيفة زوجته ـ أثناء رحلة للاسرة ـ أن **تغلق الباب الذى يصل غرفة مكتبه بمخدع « كيت »، وان تستحضر نجارا يثبت فى فراغ ذلك الباب أرففا للكتب ! ٠٠ ثم ابتاع سريرا ينام فيه فى غرفة المكتب ٠٠**

وكان لا يفتأ يقول لاخلص أصدقائه :

ـ اننى أود لو أستطيع الفرار من نفسى ٠٠ من الخطأ للمرء أن يتزوج مبكرا ٠٠ ولم يزدنى طول سنى الزواج الا ندما ٠٠ انها معركة فاشلة ، ميئوس منها ٠٠ وقد فاتت فرصة الاصلاح !

◆ **وجاء** عيد الميلاد فى سنة ١٨٥٧ ٠٠ ولاول مرة ، يبدو العيد كئيبا فى بيت الرجل الذى نبه الناس الى أنه أقدس أعياد الاسرة ! ٠٠ وانصرف أولاد ديكنز ـ « تشارلس » و « كيتى » و « مامى » و « ادوارد » ـ عنه ٠٠ وأبدى أهل « كيت » الذين كانوا فى ضيافة الاسرة ، نفورا منه ٠٠ اللهم الا أختها

« جورجينا » ٠٠ وبدا النابغة شارد الذهن ، مهموما ، محيرا ٠٠ كان يدرك ما أثاره الانفصال من أقاويل ، أسفت فى بعض الاحوال حتى أوشكت أن تخلق فضيحة تربطه بجورجينا ، لانها كانت مستمرة فى وفائها له ، برغم موقفه من شقيقتها !٠٠

وكان يدرك ان الهمس لن يلبث أن يغدو دويا ، حين تتخذ علاقاته بألين تيرنان الشكل الذى كان يشعر أنها متجهة اليه !

وهكذا وقف النابغة الداعى الى تمجيد الاسرة ، أمام أقسى موقف عاناه صاحب رسالة ٠٠ كان عليه أن يدمر هناء أسرته ، انسياقا وراء ضعف ونزوات لا يقوى على كبحها أو مقاومتها !٠٠ وكان عليه ـ وهو الذى كان حريصا على التقى والنقاء ـ ان يرى نفسه مضطرا الى أن يسلك المسلك الكفيل بأن يلطخ سمعته بأقذار الفضيحة ! ٠٠ وكان عليه ـ وهو الذى طبع قلبه على الرحمة ـ أن يشهد زوجته تتعذب وتشقى ، نتيجة للتصرفات التى يدفعه اليها نزق ذلك القلب !

نهاية زواج ٠٠ كان سعيدا !

◆ **ولكن** عنان نفسه كان قد أفلت من يده ٠٠ وبدا مسوقا بقوة جبارة لا قبل له بعصيانها ٠٠ ولم يكفه الانفصال الذى دبره فى البيت ، بل أراد انفصالا أكبر ٠٠ انفصالا كاملا !

وغادرت «كيت» دارها باكيا لتقيم فى منزل صغير فى ناحية « كامدن تاون » ٠٠ ولم ينس « ديكنز » في غمرة نزقه أن يحمل أمها وأختها الكبرى على أن توقعا وثيقة أعدها بأن هذا الانفصال لم يكن نتيجة لظروف « تمس أخلاق المستر ديكنز أو تشوه سمعته أو سمعة سواه » !!

والظاهر ان شعوره النفسى كان يضاعف له من تصوير تأثير هذا الحادث ، فكتب فى مجلة « هاوس هولد ويردز » ـ التى كان يمدها بقصصه ـ مقالا استدرج فيه القراء الى أمـوره العائلية ، ثم راح يستنكر « الاشاعات الزائفة ، والروايات الكاذبة » ويتوعد أصحابها ومردديها !

فى غمرة الهوى المحرم !

أما وقد تم الانفصال الذى اشتهاه ، فقد سعى حتى أقنع « الين » بأن تغدو « خليلة » علنية له ، واستأجر لها منزلا ! ..

ومن المهازل ان الدنيا ضاقت فى عينيه فلم يجد المنزل الذى يروقه الا فى منطقة « كامدن تاون » التى أوت اليها زوجته !

وأوغل فى علاقاته بعشيقته .. وغرق فى هذا العشق المحرم ..

حتى اذا كانت سنة ١٨٦٥ ، صحب « الين » فى رحلة الى فرنسا وكان يحاول أن يقنع نفسه بأن حياته الجديدة كفيلة بأن تشيع السعادة فى نفسه ، ولكن ندم « الين » وتقريع ضميرها للدور الذى أدته فى انفصال «ديكنز» عن زوجته ، كان حائلا كثيرا ما ينتصب بينه وبينها ، ملقيا ظلالا كثيفة على شعوره بالسعادة ..

وكانت هذه الحال كفيلة بأن تدفع «ديكنز» الى مسلك مسف فى الصخب والارهاق ، مما عجل بنهايته ..

.. ومن العجيب ان موته لم يخفف من ثورة ضمير «الين» عليها ، بل ضاعف منها .. حتى لقد صرحت فى أواخر أيامها بأنها تكره وتلعن «مجرد التفكير فى تلك العلاقة» التى ربطته بها !!

٢ ــ قصة صداقة خالدة

> **◆ أما الملهمة الاخرى من ملهمات ديكنز فكانت «أنجيلا جورجينا برديت كوتس» ، وقد روى قصة صداقتها بالاديب الكبير ــ بتصريح خاص منها ــ سكرتيرها المدعو تشارلس أوسبورن ، فى كتاب أصدره بعنوان «رسائل تشارلس ديكنز الى البارونة برديت كوتس» ، وقد عرضت هذه الرسائل للبيع بالمزاد فى اكتوبر الماضى فرست على احدى مكتبات نيويورك مقابل مبلغ كبير**

◆ كانت «أنجيلا» قد ورثت ثروة جدها الطائلة وهى فى الثالثة والعشرين (سنة ١٨٣٧) ، فأصبحت بذلك اغنى وارثة فى انجلترا ! ومكنتها هذه الثروة من ان تغدو اسخى محسنة

فى بلادها ، فى عصر كثر فيه البر والاحسان .. على انها كانت تراعى فى احسانها دائما ان ينحو نحو تحقيق اهدافها فى الاصلاح الاجتماعى والتقريب بين الطبقات ..

وكان طبيعيا من امرأة فى مثل قوة عقلها ورقة قلبها ان تعجب بذوى الشخصيات القوية من الرجال ، فكان من اخلص اصدقائها : دوق ولنجتون ، والجنرال غوردون ، ولويس نابليون ، وغيرهم .. بحيث لا يكون من المبالغة القول بأنها كانت على صلة شخصية بأبرز زعماء البلاط ، والكنيسة ، والبرلمان ، الى جانب النوابغ من رجال الفن والادب والمسرح والعلم ، من المنتسبين لثلاثة اجيال متعاقبة على الاقل !.. وكانت اول امرأة ينعم عليها بلقب (البارونة) ، اعترافا بجهودها المشكورة فى نواحى الحياة العامة.. بل ان الملك ادوارد السابع وولى عهده البرنس اوف ويلز كانا يتحدثان عنها باعتبارها ابرز امرأة فى وطنها ، تأتى فى المرتبة التالية مباشرة لوالدته ..

اللقاء الاول ..

◆ **وقد** التقت انجيلا بالاديب تشارلس ديكنز لاول مرة فى اوائل سنة ١٨٣٩ ، فاعجبها منه فورا اخلاصه وطابع الجد الذى يبدو عليه . كما ادهشها نشاطه وحيويته ، فتزايدت صداقتهما بانتظام منذ يوم تعارفهما ، بحيث لم يلبث ديكنز ان صار لها بمثابة الناصح الذى تستشيره فى كيفية توزيع احسانها ، فى الوقت الذى كان هو فيه كثيرا ما يستشيرها بدوره فى مشكلاته ويرضخ لحكمها فيها .. وقد خصها باهداء كتابه «مارتن شيزلويت» ، كما قرأت هى الكثير من كتبه قبل ان ينشرها .. وبلغ من صداقتها له ولاسرته انها قامت بدور ايجابى فى تربية وتنشئة ابنه الاكبر !

وعلى ضوء هذه الصلة كان طبيعيا ان تكون هى من أوائل من كتب اليهم يوضح موقفه حين لاحت فى حياته الازمة التى انتهت الى انفصاله عن زوجته .. وان تفعل هى ما فى وسعها للتوفيق بين الطرفين المتنازعين !

لم يكن ديكنز ناجحا البتة فى زواجه ، فقد كانت «كاترين» مريضة باعصابها ، ولم يكن هو بدوره رجلا يسهل العيش معه. وكانت قد انجبت له عشرة اطفال مات واحد منهم وبقى تسعة على قيد الحياة . وكانت أختها الصغرى (جورجينا هوجارث) هى التى تسهر على تربيتهم منذ عاشت معهم كاحدى افراد العائلة على اثر مولد ابنهم الرابع ..

ولم تكن قد انقضت ايام على احتفال ديكنز وزوجته بالعيد الثانى والعشرين لزواجهما – الذى عقد يوم ٢ ابريل سنة ١٨٣٦ – حين تحرجت العلاقة بين الزوجين الى اقصى حد .. ولم تلبث ان انتهت – فى ٢١ مايو سنة ١٨٥٨ – بتوقيعهما اتفاقا بالانفصال !

وحين استقر رأى ديكنز على هذا القرار ، صارح به ابنه الاكبر ، ثم كتب الى صديقته انجيلا الخطاب التالى :

الاحد ٩ مايو سنة ١٨٥٨

عزيزتى مس كوتس .. لقد كنت صديقة مقربة وعزيزة لدى طيلة سنوات ، فضلا عن كونى مدينا لك بكثير من الروابط والاعتبارات ، بحيث لا يليق ان اخفى عنك نبأ عائليا محزنا لعلك تتوقعينه – ببصيرتك – الى حد ما ..

لقد كان زواجى منذ سنوات وسنوات أتعس ما يكون الزواج ، فلست أعتقد أن مخلوقين يمكن أن تتنافر عواطفهما وطباعهما وكل عصب فيهما ، مثلما تتنافر زوجتى معى .. وانها لتعاسة بالغة بالنسبة لها ، وتعاسة بالغة بالنسبة لى . لكن الطبيعة قد أقامت بيننا حائلا لا يمكن تخطيه !

لا تحسبى اننى اكتب هذا لاغريك بالانحياز الى أحد الجانبين ، وانما اكتبه لعلى أوفق الى الظفر برثائك لكلينا ! وانت تعلمين اننى ارتكب أخطاء كثيرة ، نتيجة للحياة الخيالية الطليقة التى أحياها .. لكننى صبور للغاية وطيب القلب ، وكان بودى لو استطعت ان اشق لنفسى طريقا الى خاتمة اسعد لرحلة الحياة ، لو كان ذلك فى امكانى ..

لقد عشت وزوجتى منفصلين زمنا طويلا ، ولكن ينبغى الآن ان نزيد المسافة الفاصلة بيننا عن الحد الذى يسمح ببقائنا تحت سقف واحد ! .. ولو كان الاطفال يحبون أمهم ، أو أحبوها يوما ما ، لكان الانفصال يصبح مهمة أيسر .. لكنها لم تدع نفسها تتعلق بواحد منهم ، أو تدع واحدا منهم يتعلق بها . لم تلعب معهم فى صباهم ولا صارت موضع سرهم حين كبروا .. بل انها لم تظهر لهم يوما فى صورة الام الحقيقية ! فكانت النتيجة أن ابنتى

(مارى وكيتى) ـ اللتين عرفتا برقة قلبهما ودماثة خلقهما يكتسى وجهاهما طابعا صارما ((حجريا)) فى حضورها ، ويغلق قلباهما فى وجهها !

.. ومامن أحد يستطيع أن يفهم هذا كله سوى ((جورجينا)) ، التى رأته ينمو ويستفحل عاما بعد عام ، والتى هى انبل الكائنات البشرية واسماها تضحية وتفانيا . وكانت اختها مارى ، التى عاشت معنا قبلها زمنا ـ ثم ماتت فجأة ! ـ قد أدركت بدورها الامر على حقيقته ، منذ الاشهر الاولى للزواج ! .. وان تعاستى لتكمن فى أن أحدا لن يستطيع يوما أن يعرف الحقيقة بكل قوتها ، أو يعرف اية حياة ضائعة مهدرة كانت حياتى الزوجية !

أن محامى يحاول أن يتفق مع أم زوجتى على كافة الامور ، لكنى أوقن أن امها نفسها لا تطيق أن تعيش معها .. وان اختها الصغرى واخاها لا يستطيعان ذلك بدورهما !.. لن تستطيع ذلك غير خادمتها العجوز التى انفقت فى تربيتها ١٦ عاما كاملة !.. أما أنا فالجميع يعلمون استعدادى لعمل أى شىء من أجل راحتها .. وانفاق أى مبلغ عليها ..

انى لاحس براحة كبرى لانى كتبت هذا الخطاب اليك . فلا تسيئى الظن بى ، ولا بها .. فانى مقتنع تماما بأن كل اناء ينضح بما فيه ، وأنه ليس فى وسعها ـ بطبيعتها وطباعها ـ أن تكون غير ما هى الان ! .. فلو أنها تزوجت رجلا من طراز آخر لربما كانت النتيجة أفضل .. فانى اعتقد أنها كانت كالاعمى ، تمد يدها نحوى تحاول أن تتحسسنى ، دون أن تستطيع لمسى ، وما ذاك الا بسبب حماقاتها التعسة وغيرتها المجنونة .. بل ان عقلها كان فى بعض الاحيان يبدو مضطرب الميزان !

فلتذكرى هذه الامور يا عزيزتى مس كوتس ، ولتحتفظى لى فى اعتبارك بالمكانة التى كانت لى عندك دائما ..

المخلص المحب لك

تشارلس ديكنز

◆ **على** ان الصديقة لم تكن ـ كما ظن ديكنز ـ تتوقع هذا النبأ الذى فاجأها به صديقها الكبير .. فقبل ثلاثة ايام فقط كان الزوجان يحضران حفلة كبرى فى احدى دور شارع ستراتون ، دون ان تبدو على ايهما ادنى مظاهر نفور من الآخر !.. وقد عاشت الصديقة بعد ذلك مدى حياتها تعرب عن اسفها على الخطوة التى اتخذها ديكنز بذلك الانفصال !

وسرعان ما شاع نبأ انفصال الزوجين ، لكنه اقترن بشائعات فاضحة كثيرة : فقد قال البعض ان الباعث عليه غرام آثم بين ديكنز وشقيقة زوجته الصغرى ((جورجينا)) ، التى تساكنه داره !.. بينما اذاعت ((حماته)) ان غرامه الآثم انما

كان بالممثلة الشابة ((الين تيرنان)) .. وقد كذب ديكنز كلا الشائعتين ، ووصفهما بانهما «اراجيف دنيئة ، خبيثة ، زائفة، ظالمة !» .. وعلى اثر ذلك كتبت اليه مس برديت كوتس تطلب مقابلته ، فرد عليها بالرسالة التالية :

عزيزتي مس كوتس ..

اعتقد أنني أعرف لماذا تبغين لقائي .. ولكم أقدر صداقتك ، ولكم احبك واحترمك ، أكثر مما تحسبين .. ولكن لا توجد قوة على الارض ـ ولا حتى أنت ! ـ ولا أي اعتبار ، دنيوي أو سماوي ، يستطيع أن يحولني عن القرار الذي اتخذته ..

اني قادم لزيارتك بعد قليل ، ولكـــني لا أرى جديدا يمكن أن يطرأ على الموقف !

◆ **لكن** الزوجة وامها لم تلبثا ان اصدرتا تصريحا موقعا منهما تنفيان فيه التهم التي كانتا قد اذاعتاها بخصوص صلة ديكنز بالممثلة المذكورة ، وتقرران انهما قداقتنعتا بعدم صحتها ! .. كما اضطر ديكنز الى ان ينشر كلمة تكذيب للشائعات في المجلة التي كان يشرف على تحريرها .. ورغم ذلـك فقـد خاضت الصحف والمجتمعات ـ سواء في انجلترا او امريكا ـ في هذا الموضوع ـ الى حد ضاعف من الشائعات الرائجة ، فبدأت تنسب الى الاديب الكبير انه انجب من «جورجينا» ـ شقيقة الزوجة ـ ثلاثة اطفال !

ورغم ان ديكنز واجه هذه الاقوال بشجاعة ملحوظة ، فانه اعترف لصديق له بانها قد «حطمـت قلبه وخلفتـه هشيما !» .. وحين الحت عليه صديقته البارونة في ان يعود الى زوجته ، اجابها برسالة جاء فيها : **((انني اصفح عنها .. واريد ان انساها ! .. فان الطعنات التي تلقيتها منها خلال العامين الاخيرين ، كانت من الكثرة والعمق والايلام بحيث لم اعد اجد في قلبي مكانا لم تمزقه هذه الطعـنات !))** .. وفي رسالة اخرى قال الاديب لصديقته : «انني جدير بالرحمة والاشفاق فان الغلطة القاتلة التي ارتكبتها في شبابي ـ يوم

اخترت كاترين زوجة لى ! – ما تزال تسمم حياتى ، وتنتج المزيد من المضاعفات كل يوم ..»

◆ **واستمرت** صداقة ديكنز والبارونة «كوتس» ، وان فترت قليلا عما كانت من قبل ، بسبب كثرة رحلات ديكنز التى كان يقرأ فيها قصصه على الجماهير ، ثم بسبب اعتكافه بقية الوقت فى قصره البعيد فى «تلال جادز» ..

اما «زوجته» فقد عاشت وحيدة ، ملتزمة الصمت المطبق ، لا يؤنسها غير ابنها الاكبر «تشارلس» الذى تطوع للعيش معها .. وفيما عداه لم تكن المرأة ترى بقية اولادها وبناتها الا فيما ندر .. **كما انقطعت كل صلة لها بشقيقتها الصغرى «جورجينا» – التى اتهمتها الشائعات بالصلة الآثمة مع ديكنز – فلم تتقابل الشقيقتان بعد ذلك الا حين رقدت جورجينا على فراش الاحتضار فى نهاية حياتها !**

واما البارونة الصديقة فقد لزمت الحياد بين الزوجين المنفصلين ، ولو انها كانت فى قرارة نفسها تعطف عطفا كبيرا على الزوجة ، ولا تتحدث عنها الا بقولها « العزيزة المسكينة مسز ديكنز » !.. بل انها زارتها بعد ذلك اكثر مما كانت تزورها قبل الانفصال ! وعندما مات ديكنز ، كانت البارونة اكرم من اظهر العطف والمواساة للارملة !

وحين فتحت وصية الاديب الكبير ، وجدت فيها اشارة عابرة الى زوجته ، قال فيها : انه منذ انفصالهما كان يرسل لها بانتظام ستمائة جنيه سنويا ، ويتحمل من جانبه جميع نفقات اسرته الكبيرة ..

اما شقيقتها «جورجينا» ، فقد اسهب فى الحديث عنها ، واطراء صفاتها ، وعرفان جميل انصافها له .. من زوجته ، اختها !

ترى هل كان بريئا حقا من صلة الغرام الآثم بها ؟ ان التاريخ لا يعرف الجواب !

حوافز الحياة



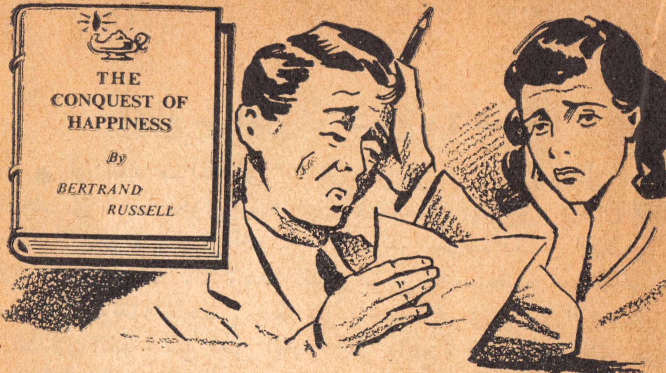
النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ...

فى هذا الباب قدمت لك فى الاعداد الماضية من كتابى ، الكتب الاتية على التوالى : «كيف تصارح اولادك وبناتك بالحقائق الجنسية» للعالم النفسانى ماكدونالد لادبل ، ثم «طريق السعادة الزوجية» لفردريك برينك ، و «مركب النقص» تاليف و. ماكبرايد و «حواء الجديدة» – مرشد المراة العصرية المستنيرة الى سعادتها ، قبل الزواج وبعده – للدكتور كورتنى بيل ، ثم «كيف تقهر الخجل» تاليف س. تيار ، و «كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة» لجون كنيدى ..

ثم قدمت لك فى الاعداد التسعة التالية ، من فنون الحياة التى شرحها المفكر العالمى «أندريه موروا» : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن السعادة ، فن التفكير ، وأخيرا فن الاستمتاع بالشيخوخة ..

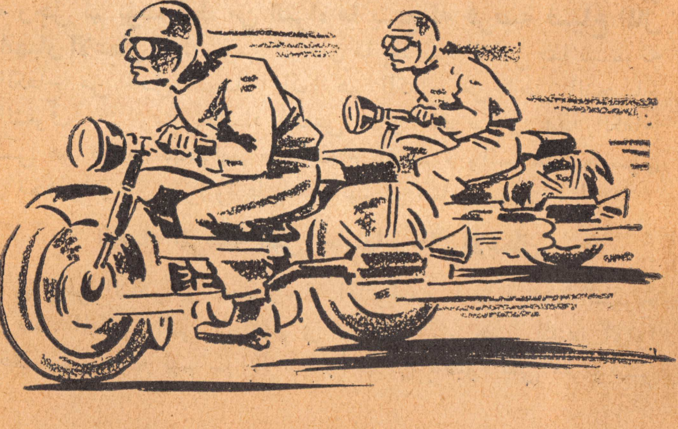
ثم انتقلت بك فى العدد الماضى من صحبة اندريه موروا الممتعة الى صحبة مفكر عالمى آخر هو الفيلسوف الانجليزى المعاصر «برتراند رسل» الذى سيشرح لنا بدوره موضوعات امتع من سابقتها وأروع ، ومنها : كيف تقهر الحسد ، كيف تقاوم القلق والخوف ، كيف تفهم أسرتك ، كيف تستمتع بالحياة والحب والعمل ، كيف تنجح بغير كفاح !.. الخ



"غزو السعادة" لبرتراند رسل

المنافسة.. والضجر.. والإرهاق

أسباب الشقاء الرئيسية فى المجتمع الحديث



الكفاح من اجل .. النجاح ، لا الحياة !

◆ **لو** انك سألت اى انسان امريكى ، او اى رجل اعمال انجليزى ، عما يحول بينه وبين الاستمتاع بالوجود ، لقال لك : «انه الكفاح من اجل الحياة» .. وهو يقولها بكل اخلاص ، لانه يؤمن بذلك .. وهذا الذى يؤمن به صحيح من ناحية معينة ، ولكنه محض خطأ من ناحية اخرى بالغة الاهمية . ذلك لان الكفاح من اجل الحياة امر واقع ، قد يحدث لاى فرد منا اذا عانده الحظ ـ وقد يكون كفاحا حقيقيا يذهب الى حد الصراع والاقتتال من اجل الحياة ! ـ ولكن رجل الاعمال لا يعنى هذا النوع من الصراع حين يذكر «الكفاح من اجل الحياة»، وانما هى عبارة غير دقيقة اختارها ليخلع بها بعض الرواء والعزة على امر يعتبر تافها بطبيعته .. **والا ، فسله كم رجل ممن عرف فى طبقته مات جوعا ؟.. سله عما جرى لاصدقائه بعد انهيار اعمالهم ، (فان كل امرىء يدرك ان رجل الاعمال قد يستمتع ـ بعد افلاسه ـ باسباب للراحة تفوق ما يستمتع به رجل لم يؤت قط من الثراء ما يتيح له فرصة ضياع المال وانهيار الاعمال !)** .. ومن ثم فان ما يقصده الناس بما يسمونه «الكفاح من اجل الحياة» انما هو الكفاح من اجل النجاح والتفوق .. وما يخشاه الناس حين يخوضون هذا الكفاح ليس هو تعذر حصولهم على طعام غدهم ، وانما هم يخشون أن يخفقوا فى ان يبرزوا على جيرانهم او منافسيهم .. !

الحياة المرهقة التى يعانيها رجال الاعمال

◆ **ومن** النادر ان تجد رجالا افلتوا من قبضة هذا الطموح او هذه المطامع التى تبتلعهم فى دوامتها .. حتى الذين اوتوا دخلا طيبا يتيح لهم ـ اذا شاءوا ـ ان يحيوا على ما توفر

لديهم من مال ، تجدهم لا يقنعون ، بل يرون فى ذلك عارا لا يقل عن عار الجندى الذى يفر من الجيش حين يواجه العدو ! .. وان كانوا يحارون فى العثور على رد يجيبونك به اذا انت سألتهم عن القضية العامة التى يخدمونها باعمالهم وبالحياة الصاخبة التى يتحمسون لها ..

تصور حياة رجل من هذا الصنف أوتى ـ بطبيعة الحال ـ بيتا بديعا ، وزوجة فاتنة ، واطفالا ساحرين .. مثل هذا الرجل قد يستيقظ مبكرا فى الصباح ويهرع الى مكتبه واهله نيام .. وهناك يقتضيه عمله ان يشرع فى املاء الرسائل ، والاتصال تليفونيا بعدة شخصيات هامة ، ودراسة السوق ، ثم لا يلبث ان يتناول الغداء مع شخص يسعى الى ابرام صفقة معه !.. وتتكرر هذه العمليات طيلة ما بعد الظهر ، فاذا انتهى الى داره اخيرا وصل متعبا ، وليس امامه سوى وقت ضيق كي يبدل ثيابه ويخرج لتلبية دعوة للعشاء .. وتجد حول مائدة العشاء طائفة من رجال متعبين مثله، ولكنهم «يتظاهرون» بالاستمتاع برفقة السيدات الموجودات ، اللاتى لم يتسرب اليهن التعب بعد .. والرجل المسكين لايدرى متى يتاح له الفرار !.. فاذا قدر له اخيرا ان يعود الى بيته لينام ، لم ينعم بالراحة الا لسويعات قلائل يستأنف بعدها القصة بعينها ، والبرنامج بحذافيره !

طلب المال دين رجل الاعمال وديدنه

◆ **وهكذا** نرى ان الحياة العملية لهذا الرجل تجرى كالسباق، ولكنه سباق لا ينتهى الا الى القبر .. فهو فى انهماك دائم يتكاثف حتى يلهيه عن اولاده وزوجته !.. انه يترك الدار فى الصباح وهم نيام ، واذا اجتمع بزوجته فى المساء فانما تضمهما مناسبة اجتماعية تحول بينهما وبين تبادل الاحاديث الودية .. وهو طيلة ايام الاسبوع فى مكتبه ، وفى يوم عطلته

فى النادى مع زملائه او منافسيه ! .. وهو لايعرف الربيع ولا موسم الحصاد الا من حيث علاقتهما بالسوق ، ولعله قام برحلات رأى فيها بعض البلاد ، ولكنها رؤية سريعة خاطفة .. وان الكتب لتبدو له سخفا لا جدوى من ورائه ، والموسيقى ضجيجا متكلفا .. وهكذا تجده يزداد انطواء فى عمله وعزلة عن اسرته عاما بعد عام ، فتذوى حياته خارج نطاق العمل .. حتى اذا صحب زوجته واولاده يوما فى رحلة او نزهة، صحبهم بجسمه دون عقله .. وبدا ضجرا ، مضنى ، لا ينفك يفكر فيما يحتمل ان يكون جاريا فى مكتبه او منتداه فى تلك اللحظة ! **.. ولا تلبث زوجته ان تسأمه فى النهاية وتنصرف عنه ، معتقدة ان دابه انما هو جشع الى المال ، ولا يخطر ببالها طبعا انه فى الحقيقة ضحية لطمعها ونهمها ، وان الدافع الاصلى له الى هذا الاغراق فى العمل قد يكون كلمة سمعها منها ذات يوم، تذمرت فيها من حاجة الى مال ، او اشتهت شيئا اغلى من موارده !.. وبعبارة اخرى فان مثل هذا الرجل اشبه بالارملة الهندوكية التى تقضى اصول دينها ان تحرق مع جثمان زوجها، فهى تستسلم لمصيرها لان الدين قضى بذلك .. ودين رجل الاعمال ومجده يتطلبان ان يجد فى طلب المال فيتحمل الضنى فى هذا السبيل راضيا !**

ولو شاء رجل الاعمال ان يسعد حقا ، لوجب عليه ان يتخلى عن هذا الدين ، لان حياته سوف تضيع فى دوامة هذا الارهاق، ولانه سيظل يشتهى السعادة فلا يحظى بها ، طالما كان يؤمن بكل مشاعره بأن واجب الانسان يتمثل فى الجرى وراء النجاح ! .. وليس ابسط مثلا لذلك من عمليات الاستثمار ، فكثير من الامريكيين ـ ومعظمهم من الطراز الذى ذكرناه من رجال الاعمال ـ يؤثرون ان يلقوا بأموالهم فى عملية غير مضمونة تدر عليهم ربحا معدله ٨ فى المائة ، عن ان يستثمروها فى عملية

مأمونة ربحها ٤ في المائة ! .. ولا يستتبع هذا سوى توالى الخسائر المالية ، وتتابع القلق والهم .. وعندى ان اقصى ما اصبو اليه من وراء المال ، هو الفراغ والطمأنينة ، ولكن الرجل الحديث لا يرجو من ورائه الا مزيدا منه ، ليبرز على اقرانه ويفوقهم بذخا ، ورفاهية .. وكان من جراء ذلك ان اصبح الميزان الاجتماعى فى امريكا غيرواضح بل هومذبذب باستمرار، وغدا المال هو المقياس المقبول للعقل والحكمة ، ومن ثم تجد الرجل اذا ما تذبذبت السوق اسير شعور كذلك الذى يتسلط على الصغار يوم الامتحان !

التنافس لا يمكن ان يكون العنصر الاوحد للسعادة !

◆ **والواقع** ان ثمة عنصرا من الخوف الحقيقى ـ وان لم يستند الى مبرر ـ يزيد من هموم رجل الاعمال .. واعنى به الخوف مما يترتب على الخراب والافلاس !.. ولست ارتاب فى ان اكثر الناس معاناة من الفقر فى حداثتهم ، هم اكثرهم جزعا من ان ينكب ابناؤهم بما نكبوا به من قبل ، فهم يسعون دون هوادة الى الاطمئنان الى انهم جمعوا من المال ما يقوم سياجا دون هذه النكبة .. وتشتد مثل هذه المخاوف عادة لدى الجيل الذى يصارع الفقر ويجمع المال، ولكن اثرها يقل بالنسبة للاجيال التالية التى لم يقدر لها ان تعرف الفقر المدقع .. وهذه الاجيال الاخيرة لا حساب لها فى حديثنا هذا

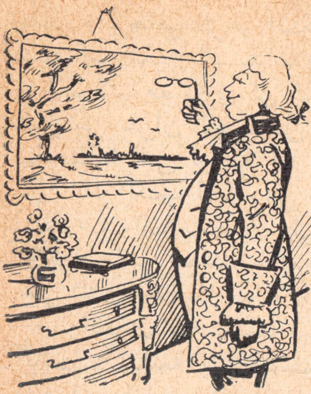
ولو تتبعنا اكثر متاعب الحياة فى العصر الحاضر لوجدنا ان منشأها ليس سوى الاسراف فى المنافسة والجرى وراء النجاح ، كما لو كان المورد الرئيسى للسعادة !.. ولست انكر ان الشعور بالنجاح ييسر الاستمتاع بالحياة ، وان المال ـ الى حدما ـ قمين بان يضاعف من السعادة ، ولكنى اعتقد انه يخلق العكس اذا تجاوز ذلك الحد !.. فالنجاح لا يمكن الا ان يكون «عنصرا من عناصر السعادة» فحسب ، ومن الخطل التضحية فى سبيل احرازه ببقية العناصر !

ومع ان النجاح ينطوى على عامل التنافس والتزاحم ، الا اننى أرى ان الجديرة بالتقدير هى المهارة التى اوجدت النجاح ، لا النجاح ذاته !.. ولقد يتاح لاى عالم ان يجمع ثروة، ولكن التقدير الذى يلقاه لعلمه لن يقل فى شىء اذا هو لم يوفق الى الثراء .. ولا عجب فى ان نجد قائدا شهيرا يعيش فى فقر، بل ان الفقر فى هذه الظروف ، قد يكون مبعث فخر له ، من بعض وجهات النظر .

المال لدى الامريكيين هو كل شىء !

◆ **لهذه** الاسباب نجد ان الصراع والتنافس من اجل المال ينحصر ـ فى اوربا ـ فى اوساط قد لاتكون اكثر الاوساط نفوذا او اجدرها بالاحترام .. اما فى امريكا فان الامر على العكس ، لا حساب فيها يذكر ـ او دور فى الحياة القومية ـ «للخدمات» التى يؤديها الفرد ، بقدر ما يحسب الحساب ويقام الوزن للمال الذى جمعه هذا الفرد من «خدماته» المذكورة !.. ففى المهن المكتسبة مثلا ، تجد ان غير الاطباء لا يقدرون الطبيب بمدى معرفته بالطب ، وغير المحامين لا يقدرون المحامى بمدى درايته بالقوانين ، وانما يقدر اصحاب المهن بمدى دخلهم بالقياس الى مستوى حياتهم !.. ومن جراء ذلك نجد ان صاحب المهنة الحرة فى امريكا يقلد رجل الاعمال ولا يكون لنفسه مجتمعا او «طبقة» خاصة كما فى اوربا.. ومن ثم يشعر الامريكيون من باكورة اعمارهم بان المال هو كل شىء ، فلا يعبأون بأى نوع من التربية خلو من القيمة المادية ..

وفى الماضى كان التعليم يعتبر ـ الى حد كبير ـ نوعا من المران على اكتساب القدرة على الاستمتاع بالحياة .. واعنى بذلك الاستمتاع بالامور الرفيعة ، المرهفة ، التى لا تبين لغير المثقفين من الناس .. **وكان من مظاهر «الوجيه» ـ فى القرن**



الثامن عشر – ان يسرف فى تذوق الادب ، والصور ، والموسيقى .. ولكنا اليوم لا نرى هذا الرأى ، بل ان الغنى فى ايامنا قد لا يكون مثقفا فى كثير من الاحيان . فهو لا يعنى قط بالاطلاع .. وهو اذا اقتنى صورا فانما يقتنيها كأداة للشهرة ، ويعتمد فى اختيارها على الخبراء .. ولا يكون سروره بها وليد الاستمتاع بتأملها ، وانما تنحصر لذته فى ان يحول دون استحواذ احد غيره من الاغنياء عليها ! .. وكذلك الحال عنده بالنسبة للفنون الاخرى .. فتكون النتيجة انه لا يدرى كيف يستغل فراغه .. حتى جمع المال لا يعود يشغل منه وقتا يذكر ، لانه يسهل عادة كلما ازداد صاحبنا ثراء !.. حتى يصل فى اواخر عمره الى يوم يصيب فيه من المال ما لا يدرى كيف ينفقه .. وهكذا يتأتى عن «نجاحه» ان يجد نفسه فى حيرة ! وهو مصير لامفر منه طالما اعتبرنا النجاح الغرض الاوحد فى الحياة .. ذلك لان احراز النجاح كفيل بان يجعل المرء فى النهاية فريسة للملل والسأم ، مالم يتعلم منذ البداية ما ينبغى ان يفعله بهذا النجاح حين يحرزه !

الاسراف فى التنافس يقضى على المتع الذهنية

◆ **وتجنح** «عادة» التنافس – ألتى فطر عليها بعض الناس – الى اقتحام آفاق اخرى غير ميدان العمل والتكالب على النجاح .. ولعل «القراءة» خير مثال لذلك ، فان ثمة باعثين يحفزان المرء على قراءة اى كتاب : حافز الاستمتاع

بالكتاب ، وحافز الزهو الكاذب به !.. وقد اصبح من مستلزمات الحياة للسيدات فى أمريكا ان يقرأن — او يتظاهرن بقراءة — كتبا معينة فى كل شهر .. فمنهن من يقرأنها بأسرها، ومنهن من يقرأن الفصل الاول منها ، ومنهن من يقرأن التلخيصات التى توضع لها .. ولكنهن جميعا يحرصن على حيازة تلك الكتب !.. وهن مع ذلك لا يقرأن المؤلفات القديمة المشهورة ، وانما يقتصرن على الكتب الحديثة التى قلما تتوفر لها الميزات التى تجعلها خالدة .. وهذا كله من آثار التنافس الأعمى الذى يشقينا جميعا فى هذا العصر !

والواقع ان مما لاشك فيه ان الدراية بأطايب الادب متعة « كانت » شائعة بين المتعلمين حتى خمسين عاما مضت — وبلغت أوجها فى « الصالونات الفرنسية » فى القرن الثامن عشر — لكنها أصبحت اليوم قاصرة على نفر قليل من الخاصة والعلماء! وهكذا هجر الناس فى هذا العصر كل المسرات الهادئة، والمسئول الاول عن ذلك هو شيوع تلك الفلسفة الزائفة للحياة، التى توحى بأن الحياة «مباراة» أو منافسة ، لا احترام فيها الا للغالب الظافر ..

وقد تسأل : وما السبب فى شيوع هذه الفلسفة الزائفة ؟ والجواب ان **المغالاة فى الطهر والتقوى — وفقا للمذهب البيوريتانى — قد أنشأت نوعا من الناس نمت عزائمهم فوق ما ينبغى ، بينما كانت حواسهم تعانى الظمأ والجوع .. فكانت النتيجة ان انتهج هؤلاء القوم فلسفة تعوضهم عن حرمانهم بالانكباب على العمل والانغماس فيه وبالتالى التنافس على التفوق والصراع من أجل الغلبة وبلوغ قمة النجاح !** .. ولا ينتظر أن يتغير هذا الوضع قبل انقضاء مائة عام أخرى على الاقل ، حين يبدأ مجتمع هذه الطبقة فى التناقص والانقراض بسبب زهد هؤلاء المتكالبين على النجاح فى انجاب الاطفال واكتفاء أكثرهم بطفل واحد أو طفلين ، لانشغالهم بأعمالهم وبجنون

المنافسة من ناحية ، وعدم شعورهم بمتع الحياة العائلية التى ترغبهم فى انجاب النسل من الناحية الاخرى .. الامر الذى سوف يقضى عليهم بالهلاك والانقراض ، ليخلفهم من بعدهم قوم أكثر مرحا وابتهاجا وتذوقا للنعم البيتية فى ظلال السلام والقناعة وسكينة النفس ..

والواقع ان المنافسة اذا اعتبرت أهم ما فى الحياة كانت الحياة كئيبة ، ممضة ، لا تعدو أن تكون توترا للعضلات ، وارهاقا للعزيمة ، فى سبيل تهيئة أساس معقول لحياة جيل أو جيلين على الاكثر . فاذا تجاوزت هذا الهدف أفضت الى تعب عصبى ، والى عدة مظاهر للفرار والتنفيس والانغماس فى الملذات ، فى اسراف لا يقل عن العمل ارهاقا ، لا سيما وقد غدت الراحة ضربا من المستحيل .. ثم ينتهى الامر الى تلاشى القوى والعقم .. وهكذا نرى ان فلسفة التنافس لا تفسد العمل وحده بسمومها ، بل هى تسمم الفراغ أيضا .. فاذا بهذا الفراغ القمين بأن يعيد الى الاعصاب هدوءها يتحول الى ملل مضجر ..وهى حال تميل الى التفاقم والاستفحال حتى تنتهى بطبيعتها الى المخدرات ، ثم الانهيار .. ولا علاج لها الا بالتزام قدر من المتعة العاقلة ، الهادئة ، فى حياة مثالية متزنة ..

حذار من المقارنة بين الحاضر .. والماضى السعيد !

◆ **وفى** رأيى ان الملل – كعامل فى تحديد التصرف الانسانى – لم يلق من الاهتمام ما يستحق ، مع أنه – فى اعتقادى – من أعظم القوى الحافزة فى التاريخ ، وهو اليوم أكثر أثرا منه فى أى زمن آخر ..

والاغلب أن الملل احساس قاصر على الانسان وحده ، فمع ان الحيوانات تغدو فى الاسر قلقة لا تقاد تستقر ، الا اننى أعتقد انها فى أحوالها الطبيعية لا تعرف شيئا من الاحاسيس التى تمت للملل بصلة ، بل هى فى معظم الوقت يقظة متحفزة للاعداء ،

أو للطعام ، أو لكليهما ٠٠ وهى أحيانا منصرفة الى الغزل والتزاوج ، وأحيانا أخرى منهمكة فى حفظ نشاطها ودفء دمائها ، ولكننى لا أراها قط ملولة ضجرة ، حتى فى أويقات شقائها ٠٠

ذلك ان من أهم أسباب الملل مقارنة « الانسان » بين الظروف الحاضرة وظروف أخرى أكثر ملاءمة ومواتاة ، تفرض نفسها على الذهن والخيال فرضا لا سبيل الى مقاومته ٠٠ كذلك من أهم دواعيه ان لا يجد المرء مجالا لاستغلال كل كفاءاته العقلية استغلالا كاملا ٠٠ فالفرار من الاعداء الذين يريدون انتزاع حياة المرء ، أمر غير مستحب ، ولكنه قطعا لا يبعث على الضجر ٠٠ وما من انسان يشعر بملل أثناء اعدامه ، اللهم الا اذا كان قد أوتى شجاعة خارقة ٠٠

وخليق بنا ان نذكر ان عكس الملل - فى المعنى اللغوى - ليس السرور أو المتعة ، وانما هو الانفعال واللذة المثيرة ٠٠ والرغبة فى هذا اللون من اللذات عميقة متغللة فى نفوس البشر ، لا سيما الذكور منهم ، وأعتقد انها كانت أسهل اشباعا فى العصر الذى كان الانسان يعيش فيه على الصيد ، منها فى أى عصر تلاه ٠٠ فكانت مطاردة الفريسة تستفزه ، والحرب تهيجه ، والغزل يثيره ، وله فى كل منها متعة تلذ له ٠٠ وان الانسان الهمجى البدائى ، ليستمرىء مثلا جريمة الزنا مع امرأة ما وزوجها نائم بجوارها ، وهو موقن بأن الموت يترصده لو استيقظ الزوج فى أية لحظة ! ٠٠ مثل هذا الموقف - كما يخيل لى - لا يمكن أن يبعث على السأم ٠٠

الملل فى الماضى وفى الحاضر

بيد ان ظهور الزراعة لم يلبث أن أشاع فى الحياة فتورا ، اللهم الا لدى علية القوم الذين ظلوا يعيشون - ولا يزالون - فى عصر الصيد ٠٠ وانا لنسمع كثيرا عن الملل الذى يستولى على

النفوس فى العصر الحاضر من مراقبة الآلات وادارتها ، ولكنى أحسبه يقل كثيرا عن ذاك الذى كان يتأتى عن استخدام أساليب الزراعة القديمة٠٠ بل اننى أذهب ـ على عكس مايذهب اليه معظم المعنيين بخير الجنس البشرى ـ الى القول بأن عصر الآلة قد خفف كثيرا من وطأة الضجر فى الدنيا ، اذ لم يعد العمال يعانون الوحدة فى ساعات العمل ، كما ان ساعات الليل أصبحت توزع على كثير من المتع التى لم يكن من سبيل اليها فى القرى الريفيه قديما ٠٠

كذلك تجد ـ اذا استعرضت ما طرأ على حياة صغار أبناء الطبقة الوسطى ـ ان أفراد الاسرة كانوا فيما مضى يجتمعون حول المائدة ـ بعد أن ترفع الزوجة وبناتها فضلات العشاء عنها ـ ليحظوا بما كانوا يسمونه « جلسة عائلية هانئة » ٠٠ وكان معنى هذه الجلسة ان يستسلم رب الاسرة الى اغفاءة ، بينما تنصرف الزوجة الى التطريز ، وتتمنى البنات لو خلصهن الموت من وطأة السأم ٠٠ فما كان لهن أن ينشغلن بالقراءة ، أو أن يبرحن الغرفة ، اذ كان السائد اذ ذاك ان هذه هى الفترة التى يحلو لرب الاسرة ان يجاذب بناته فيها أطراف الحديث ان شاء ، ومن ثم فعليهن انتظار هذه المشيئة ! ٠٠ **ومع هذا الذى كانت تعانيه البنات ، فانهن كن لا يتورعن ـ اذا أسعدهن الحظ بالزواج ـ عن أن يفرضن على أبنائهن حياة كئيبة كتلك التى كن يضجرن منها !!**

لهذا يخلق بنا أن نذكر كل هذا الملل والضجر اذا شئنا أن نتصور حال الدنيا منذ مائة سنة٠٠ وكلما أوغل المرء رجوعا الى الوراء ، ألفى ان الملل كان أشد وطأة وأكثر قدرا ٠٠ ويكفى أن نتصور فصل الشتاء فى تتابعه الكئيب المتواتر فى قرية من قرى العصور الوسطى ! ٠٠ لم يكن فى وسع الناس اذ ذاك ان يقرأوا أو يكتبوا ، اذ لم يكن لديهم من مصدر للضوء ـ بعد

غروب الشمس - سوى الشموع ٠٠ وكان دخان الموقد يملأ جو الغرفة الوحيدة التى يلوذون بها من البرد ٠٠ وكانت الطرق وعرة المسالك ، فكان المرء لا يكاد يرى أحدا من سكان أية قرية أخرى ٠٠ ولعل الملل من حياة كهذه هوالذى أوحى اليهم بالسحر كرياضة وحيدة يقضون فيها أمسيات الشتاء !

الاندفاع وراء الملذات المثيرة ٠٠

◆ **ومع** اننا أقل ضجرا مما كان أجدادنا ، الا أننا أكثر منهم خوفا من الملل ٠٠ وقد أدركنا - بل أيقنا - ان الملل ليس غريزة فطر عليها الانسان ، فخيل الينا ان من الممكن تفاديه بالاندفاع وراء الملذات المثيرة ٠٠ وانا لنرى الفتيات اليوم يعملن لكسب القوت ، فيهىء لهن ذلك أسباب السعى وراء اللهو فى الامسيات، ليهربن من « الجلسات العائلية السعيدة » التى كانت جداتهن يعانين وطأتها ٠٠

ونحن نرى اليوم كل قادر على السكنى فى المدن يفضلها على الريف ، والذين لا يستطيعون سكنى المدن يقتنون السيارات أو الدراجات على الاقل ليسعوا عليها الى المدن حيث يترددون على دور السينما ٠٠ كما انهم يمتلكون أجهزة الراديو فى دورهم ٠ وفضلا عن ذلك ، فان أسباب التلاقى بين الشبان والشابات غدت أقل عسرا مما كانت فى الماضى ٠٠ حتى الخادم أصبح من حقها أن تستمتع مرة فى الاسبوع - على الاقل - بفرصة تنال فيها أقصى ما تشتهى من اللهو الصاخب ٠٠ ويزداد الاندفاع وراء هذا اللون من المثيرات بارتفاع المستوى الاجتماعى، فأولئك الذين يستطيعون الاستمتاع به لا ينفكون يتنقلون من مكان الى آخر ، حاملين معهم أينما ذهبوا المرح ، والرقص ، والشراب ، وهم يتوقعون دائما - ولسبب ما - ان استمتاعهم بهذا كله يزداد لذة بانتقالهم الى مكان جديد ٠٠

والذين تقتضيهم ظروف الحياة ان يعملوا ليكسبوا عيشهم

يعانون ـ بالضرورة ـ قسطا من الملل حتى فى ساعات العمل ، وأما الذين أوتوا من المال ما يغنيهم عن العمل فهم يعانون قسطا أكبر ، ويزيد من وطأة مللهم أنهم يضعون نصب أعينهم حياة مثالية ، يتصورونها خالية من الملل تماما ، وعنوانا للكمال ! ولكنى أخشى أن تكون ـ ككل شيء مثالى ـ أشق تحقيقا مما يخال طلابها ٠٠ ولا ينبغى أن ننسى ـ بعد كل هذا ـ ان الملل مسألة قياسية ، فالنهار قد يبدو مملا بالقياس الى ما استمتعنا به فى الامسية التى سبقته من ألوان اللهو الصاخب ٠٠ والمرء فى العشرين من عمره يظن أن الحياة تنتهى فى الثلاثين فيسف فى ملذاته، ولكنني ـ وقد بلغت الشيخوخة ـ لم أعد أرى هذا الرأى، ولعل من الخرق أن يبدد المرء رأس ماله من القوى الحيوية كما يبدد رأس ماله من النقود ٠٠ بل ربما كان من المستلزمات الماسة للمحافظة على الحياة أن يتخللها شيء من السأم والضجر، اذ لا يخفى مافى الانفعال المستمر من انهاك للجسم ومن استهلاك و « احتراق داخلى » للدم والانسجة والاعصاب !

نصف خطايا البشر تنشأ عن خوف الملل

◆ **والرغبة** في الفرار من الملل رغبة طبيعية أبدتها جميع الاجناس البشرية حين سنحت فرص ابدائها ، فعندما تذوق الهمج أولى قطرات الخمر من أيدى الرجال البيض ، وجدوا فيها المهرب الذى كانوا ينشدونه من ملل العمر كله ، فراحوا يشربون حتى يموتوا أو تتداركهم الحكومة بتدخلها ٠٠ وكذلك كانت الحروب ، والثورات ، والاضطهادات ، حلقات في خطط الفرار من الملل ٠٠ حتى الشجار مع الجيران وسيلة تنتزع الناس من السأم !

ومن ثم نتطرق من هذا الى أن الضجر والملل مسألة بالغة الاهمية لعلماء الاخلاق ، اذ تترتب نصف خطايا وذنوب الجنس البشرى على الخوف منه ، والسعى الى تجنبه ! ومع ذلك ، فلا ينبغى ان ننظر الى الملل على أنه شر مطلق ٠٠ بل ان ثمة نوعين

منه : نوع مثمر ، ونوع أهوج ٠٠ فالاول ينشأ من الامتناع التام عن جميع المخدرات ٠٠ والثانى ينشأ عن نقص النشاط الحيوى ٠٠ ولست أزعم ان ليس للمخدرات أى نفع فى الحيـــاة على الاطلاق ، فالطبيب النطاسى قد يؤثر فى بعض الحالات تخدير مريضه ، وأعتقد ان هذه الحالات أكثر مما يتصوره دعاه تحريم المخدرات ٠٠ ولكن الشوق الى المخدرات مسألة لا يحسن تركها لسلطان التقدير الشخصى والوازع الطبيعى ، فضلا عن ان الاكثار منها يجعل المرء ــ اذا ما حرم منها ــ فريسة للملل لا أكاد أجد له علاجا سوى الزمن ٠

وكل ما يقال عن المخدرات يمكن أن يقال أيضا ــ فى نطاق محدود ــ عن الملذات المثيرة واللهو الصاخب العنيف ٠٠ فالحياة اذا تشبعت بهذا اللون غدت مرهقة لا غنى فيها عن طلب المزيد من المنبهات والمثيرات ، بازدياد مطرد ، لخلق تلك الرجفة التى تعتبر ضرورية للذة ٠٠ **وما أشبه الشخص الذى يتعود الاسراف فى الملذات المثيرة ، بذاك الذى يتولاه شغف جامح بالفلفل ، فلا يلبث أن ينتهى به الى العجز عن الاحساس بطعمه مهما تناول منه ! ٠٠ هذا فضلا عن ان الاسراف في الملذات لا يقتصر عـلى تقويض صحة المرء ، بل هو يقضى على قدرته على تذوق أى لون من المتع !**

ولست أتطرف فى معارضة الملذات المثيرة ، بل اننى أرى انها ربما كانت ذات نفع شامل اذا توخينا فيها الاعتـــدال ، فأمرها اذن يتوقف على الكمية ، كما هو الحال فى كل أمـر آخر ٠٠ ومن ثم فان المغالاة فى « الاقلال » منها أيضا قد توقظ الشوق اليها وتذكيه ، والاشتطاط فى الافراط فيها يؤدى الى الإرهاق ٠٠ !

علموا الابناء كيف يحتملون الملل

◆ وعلى كل ، فلابد لكى نهنأ بالحياة من أن نروض أنفسنا على احتمال قدر من الملل ٠٠ وخليق بنا لهذا أن نعلم الشباب كيف

يطيقون الضجر ! ٠٠ ولا مراء فى أن كل مؤلف ضخم تتخلله فصول مملة، وكل حياة عظيمة تتخللها فترات من الفتور المضجر ٠٠ ولو ان شخصا نقل التوراة بخطه وتقدم بها الى ناشر ــ فى عصرنا الحديث ــ على أنها من ابتداعه ، لما تحرج الناشر عن أن يقول له : « هذا الفصل ياسيدى يحتاج الى شيء من الطرائف المشوقة ، والى الاقلال من سرد أسماء الاشخاص الذين لم يرد فيه من سيرة حياتهم سوى النذر اليسير٠٠اننى أعترف بأنك بدأت قصتك بأسلوب ممتع ، فاستهوانى سحرها لاول وهلة ، ولكن رغبتك الجامحة فى أن تسرد كل ما لديك من مادة ، جعلتك تحشوها بالوقائع والاسماء ٠٠ وجـــدير بك أن تبرز الاجزاء المثيرة فيها ، وان ترفع منها الاسهاب الذى لا لزوم له ، وان تختصرها الى حجم مناسب ، ثم تعود بها الى من جديد ! »

والناشر قد لا يتورع عن أن يقول هذا عن الانجيل أو حكم كونفوشيس أو القرآن أو سفر كارل ماركس «رأس المال» وغير ذلك من الكتب التى تحمل رسالات دينية أو دنيوية ٠٠ ذلك لان فى كل كتاب فقرات مملة ٠٠ والرواية التى تلمع فيهـا الاحداث من الصفحة الاولى حتى الاخيرة لا يمكن ان تصبح من الكتب العظيمة ٠٠ وكذلك حياة العظماء من الرجال ، لم تكن مثيرة وحافلة بالاحداث الا فى فترات قليلة منها ٠٠

والقدرة على احتمال الحياة الرتيبة المطردة خلة يجب أن تلقن منذ الطفولة ، ومن أجل هذا يستحق الآباء فى عصرنا الحديث أكبر اللوم ، اذ أنهم يوفرون لاطفالهم من أسـباب التسـلية السلبية أكثر مما ينبغى ــ كحفلات السينما وكالمآكل الطيبة ــ دون أن يحسبوا حسابا لما قد تأتى به الايام من تواتر وتشابه فى كثير من الفترات ٠٠ والواقع ان متع الطفولة يجب أن تكون متعا يستخلصها الطفل نفسه من بيئته ببعض الجهد والابتكار٠ أما المتع المثيرة التى لا تتطلب جهدا بدنيا ، كالتردد على المسرح،

فخليق ان لا تتكرر الا نادرا ·· ذلك لان المتعة الصاخبة ذات مفعول مخدر فى النفس ، كما ان انعدام الجهد البدنى أثناء الإنفعال أمر مناقض للغريزة ·· وانما يحسن أن يترك الطفل ينمو على سجيته ، دون ازعاج ، كالنبتة الصغيرة فى جوف التربة ·· ومن ثم فالاسفار الكثيرة وتعدد المؤثرات ليست فى صالح الصغار ، اذ أنها تجعلهم أكثر عجزا ـ كلما كبروا ـ عن تحمل الملل والاسترسال الرتيب الذى لا سبيل الى بعض الاشياء الطيبة الا اذا توفر قدر منه !

وانك لترى الصبى أو الشاب الذى يسعى وراء غرض جدى نافع ، يتحمل عن رضى وطواعية قدرا كبيرا من الضجر ، اذا تبين ان هذا ضرورى لسعيه ، غير ان الاغـراض الانشـائية النافعة لا تخلق نفسها فى ذهن الصبى اذا كان يعيش فى بذخ واسراف ، لان أفكاره فى هذه الحال تكون متجهة دائما نحو اللهو والعبث ··

لكل هذا فان الجيل الذى لا يقوى على احتمال الملل يكون أبناؤه صغار النفوس ، تذوى الحوافز الحيوية فيهم وئيدا ، كأنهم زهور اقتطفت من أرضها ووضعت فى وعاء ، فهى تذبل رويدا ··

نحن جزء من الارض !

◆ **ومهما** كانت اتجاهاتنا الفكرية ، فنحن خلقنا من طين ·· نحن من الارض ، وحياتنا جزء من حياة الارض ، كما اننا نستمد منها غذاءنا ، مثلنا فى ذلك مثل الحيـوان والنبـات ·· وقد طبعت حياة الارض على التطور البطىء الرتيب : فالخـريف والشتاء ضروريان لها ضرورة الربيع والصيف ·· والسكون لازم لزوم الحركة·· ومن ثم كان من الضرورى ـ للطفل أكثر مما هو للرجل ـ الاحتفاظ بشىء من الارتباط أو التناسق بين استرسال حياته واسترسال الحياة الارضية ·· وقد رأيت

طفلا فى الثانية من عمره لم يبرح لندن قط ، ثم قدر له يوما ان يخرج للنزهة فى الريف اليانع الخضرة ٠٠ وكان الفصل شتاء ، والماء والوحل يكسوان كل شيء ٠٠ ولم يكن ثمة ما يروق عين المرء الناضج أو يثير ابتهاجه ٠٠ أما الطفل ، فقد راح يقفز فى نشوة غريبة ، ثم جثا على الارض المبتلة ، ودس رأسه فى الاعشاب ، وغمغم بصيحات غير مفهومة للتعبير عن ابتهاجه ٠٠ كان السرور الذى خالجه بدائيا ، ساذجا ، عرما ٠٠ وهذه الحاجة «العضوية» التى أشبعها عميقة متأصلة ، حتى ان الذين يحرمون من اشباعها كثيرا ما يصابون باختلال العقل ٠٠

الملاهى التى تترك بعدها كآبة !

وكثير من الملاهى ، كالميسر ، لا تنطوى على مثل هذا العنصر — عنصر الارتباط بالارض — ومن ثم فهى بمجرد زوالها تترك المرء مكتئب النفس ، غير راض ، متعطش الى رغبة لا يدرى لها كنها ٠٠ فهى بذلك لا يمكن أن تعتبر مبعثا للابتهاج والسرور ٠٠ وعلى العكس من ذلك المسرات التى تصل بيننا وبين الحياة والارض ، فهى تنطوى على شعور عميق من الرضى والارتياح ، فاذا ما انتهت خلفت وراءها السعادة التى اجتلبتها ، وان كانت المتعة التى صاحبتها أثناء وجودها أقل من تلك التى تصحب فى العادة الملذات الاكثر استثارة ، من أبسطها الى أكثرها انطباعا بالمدنية والحضارة ٠٠ لقد أرانا الطفل الذى رويت حكايته فيما سبق أبسط مظاهر الاتحاد بين الحياة والارض ٠٠ ولكننا نرى مظهرا أرقى له خلال القصائد الشعرية ، ولعل السر فى روعة قصائد شاعر كشكسبير هو انها مفعمة بنفس الابتهاج الذى ملك على الطفل الصغير نفسه ، فهى تشرح فى أسلوب متمدين راق عين الشعور الذى خالج الطفل ابن العامين فلم يجد ما يعبر به عنه سوى تلك الغمغمة غير المفهومة ٠٠

والفارق بين الحب والفتنة الجنسية يكشف لنا المسألة

ذاتها من ناحية أخرى ٠٠ فالحب تجربة تنعش كل كيـــاننا وتبعث فيه حياة جديدة ، كما يفعل المطر ـ الذى يسقط بعد الجفاف والقيظ ـ بالنبات ٠٠ أما الاتصالات الجنسية الخالية من الحب فينقصها هذا الانتعاش البهيج ، وما ان تنتهى اللذة العابرة فيها حتى تخلف تعبا ، واشمئزازا ، وشعورا بأن الحياة فارغة ٠٠ ذلك لان الحب جزء من الحياة والارض ، على العكس من العلاقة الجنسية المجردة من الحب ٠٠

وعندى ان ذلك النوع من الضيق والضجـر الذى يعـانيه سكان المدن الحديثة انما يرجع الى ابتعادهم عن الحياة والارض، فان هذا الابتعاد يبعث جفافا وظمأ فى نفوسهم ، كما يحـدث للضارب فى الصحراء فى وقدة القيظ ٠٠ ولعل ذلك النوع من الملل الثقيل الذى يجثم على نفوس أولئك الذين أوتوا من الثراء ما يتيح لهم اختيار الحياة التى تروقهم ، راجع الى خوفهم من الملل ٠٠ وليس فى ذلك أى تناقض ، فهم فى فرارهم من الضجر المثمر يلقون بأنفسهم فى أنواع من الضجر أسوأ أثرا ٠٠

وعلى ذلك ، ينبغى للحياة ـ اذا شئنا ان نشيع فيها السعادة ـ ان تكون حياة هادئة الى حد كبير ، لان البهجة والسرور الحقيقيين لا يعيشان الا فى جو من الهدوء

فلسفة التعب

◆ **والعنصر** الثالث من عناصر الشقاء ـ بعد المنافسة والضجر ـ هو التعب ٠ وللتعب ألوان تتباين من حيث مدى خطورة تأثيرها على السعادة ٠٠ فالتعب البدنى ـ طالما كان بعيدا عن الارهاق المسرف ـ من بواعث الهناء ، اذ أنه يفضى الى النوم العميق ، والى تفتح الشهوة للطعام ، والى مضاعفة الاستمتاع بما فى أيام العطلات من مسرات ٠٠ أما اذا تجاوز التعب حد الاحتمال فانه ينقلب الى شر خطير ، وبسببه نرى النساء فى المجتمعات الفقيرة يهرمن ولما يتجاوزن الثلاثين من أعمارهن ، تحت وطأة الضنى

المفرط ٠٠ ولقد كان الاطفال ـ فى أوائل العهد بالصناعة ـ يعانون من ارهاق العمل ما يوقف نموهم ، بل وما يقضى عليهم فى باكورة أعمارهم ٠٠ ذلك لان الجهد البدنى اذا تجاوز حدا معينا تحول الى عذاب مضن ، وكثيرا ما أدى التمادى فيه الى جعل الحياة عبئا لا يطاق ٠٠ **غير ان التعب البدنى قد خف الى حد كبير فى أكثر أرجاء العالم تحضرا بفضل ما أدخل على ظروف الصناعة من تحسينات ، ومن ثم أصبح أخطر أنواع التعب فى المجتمعات الراقية فى عهدنا هو التعب العصبى ٠٠ ومن الغريب انه أكثر تفشيا بين ذوى اليسار من رجال الاعمال وذوى الاعمال الذهنية منه بين الكادحين من العمال !**

وتفادى العناء العصبى فى الحياة الحديثة من أشق الامور ٠٠ فان العامل الذى يعيش فى المدن يتعرض خلال ساعات العمل بوجه خاص للضجيج ٠٠ ومع انه يتعود ان يسمع معظم هذا الضجيج بطريقة لا شعورية ـ أى انه يسمعه دون أن يلقى اليه بالا ـ الا أن ذلك لا يخفف شيئا من ارهاق الضجيج له ، وذلك لما يبذله من جهد لا شعورى لكى لا يسمعه ٠٠

الكبت الذى نعانيه من وجودنا بين غرباء !

ووجود الانسان بين غرباء باستمرار سبب آخر من دواعى التعب الذى نفطن اليه، وذلك لان غريزة الانسان الفطرية ـ كغريزة غيره من الحيوان ـ تسعى الى تأمل كل غريب توطئة لتقرير الاسلوب الذى يحسن أن يعامل به ، ان وديا أو عدائيا ٠٠ وهذه الغريزة تلقى كبتا وصدا من أولئك الذين يضطرون الى ركوب السيارات العامة ومركبات الترام فى ساعات ازدحامها ، فيتأتى عن الكبت نوع من السخط العام المكتوم ضد كل الغرباء الذين يصادفونهم فى هذه المناسبات التى لا يد لهم فيها ولا ارادة ٠٠



وهناك من ألوان التعب أيضا ذلك التعجل فى تناول الفطور، رغبة فى اللحاق بمواعيد العمل فى الصباح، وما ينشأ عن ذلك من عسر هضم ٠٠ فما ان يبلغ المرء عمله ، ويبدأ يومه ، حتى تكون قد أرهقت أعصابه ، مما يجعله ينظر الى الجنس البشرى كمصدر للازعاج ٠٠ ويصل مخدومه فى نفس الحال ، فلا يملك ان يفعل ما يخفف عنه ذلك الارهاق ٠٠ ويضطر المستخدم الى أن يعامل مخدومه فى احترام زائد خشية أن يفقد عمله ، فلا يزيد هذا المسلك أعصابه الا توترا ٠٠ بينما لو سمح للمستخدمين بأن يعاملوا مخدوميهم على سجيتهم الصريحة مرة فى الاسبوع ، لخفف ذلك من الارهاق الذى ترزح تحته أعصابهم ٠٠ ولكنا اذا ذكرنا ان المخدومين أنفسهم يعانون الشىء عينه ، لا نلبث أن نرى فى هذا الاقتراح علاجا غير ناجع ٠٠ ذلك لان أصحاب العمل يعيشون فى خوف من الافلاس ، كما يعيش العامل فى خوف من فقدان عمله ٠٠ وحتى أولئك الذين أوتوا القدرة على التغلب على هذا الخوف ، نجدهم لم يؤتوها الا بعد سنين طويلة من الكفاح المضنى ، ومن اليقظة الدائمة للاحداث التى تجرى فى كافة أرجاء العالم، حتى يحبطوا تدابير منافسيهم ٠٠ ويتأتى عن هذا ان صاحب العمل اذا ما اطمأن أخيرا الى نجاحه وتوطد مركزه المالى ، يجد أعصابه قد غدت حطاما مهدما ، بل يجد أنه قد اعتاد القلق بحيث صار عاجزا عن التخلص منه بعد ان أصبح فى غنى عنه ! ٠٠ وصحيح ان من أصحاب الاعمال

من ولدوا أغنياء ، فلم يعانوا قلقا ماليا على أعمالهم ، ولكن هؤلاء يخلقون لانفسهم عادة من أسباب القلق والهموم ما يشبه الى حد كبير ما كان مقدرا لهم أن يعانوه لو أنهم لم يولدوا أغنياء .. فهم بالمقامرة والرهان يخلقون لانفسهم منغصات تثقل بالهم ونفوسهم .. وهم بالافتئات على ساعات النوم اللازمة لهم - ليستغرقوا فى ملاهيهم - يرهقون أبدانهم فلا يغدون قادرين على الاحساس بالسعادة اذا ما أتيح لهم أن يرتاحوا ويستقروا ..

وهكذا نرى ان معظم الناس فى عصرنا الحديث يعيشون حياة تتسم بالارهاق العصبى - سواء كان ذلك باختيارهم أو بحكم الضرورة - ومن ثم فهم دائما متعبون الى درجة يعجزون معها عن الشعور بأى ابتهاج وسرور ، ما لم يستعينوا بالخمور والملاهى الصاخبة ..

لا تحمل متاعبك معك الى فراشك !

ولندع الاغنياء جانبا لنقصر اهتمامنا على أولئك الذين يقترن العناء عندهم بالعمل الدائب المضنى من أجل العيش .. ويرجع أكثر العناء الذى يعانيه هؤلاء الى الهم ، والخوف من المستقبل .. بيد أنه من الميسور تفادى الهم بشىء من الفلسفة والترويض العقلى ..اذ أن معظم الرجال والنساء عاجزون عن السيطرة على أذهانهم ، فهم لا يقوون على الكف عن التفكير فى الامور التى تثير الهموم ، حتى عندما يعز اتخاذ أى عمل ضد تلك الامور.. وكلنا نرى الرجال يحملون متاعب العمل معهم الى فراشهم .. وبدلا من أن يستغلوا ساعات الليل فى اكتساب قوى جديدة يتغلبون بها على متاعب غدهم ، نراهم يستعرضون فى أذهانهم مرارا وتكرارا مشكلات لا يملكون أن يفعلوا ازاءها شيئا فى تلك الفترة .. ثم انهم لا يفكرون فيها تفكيرا سليما يوحى لهم بما ينبغى أن ينتهجوه فى الغد ، وانما يتسم تفكيرهم بذلك الخبل الذى يطبع أفكار السهد والارق .. ويبقى بعض ذلك الخبال

عالقا بأذهانهم فى الصباح ، يؤثر على حكمهم على الامور ، ويفسد مزاجهم ، ويثيرهم لاتفه العقبات التى تصادفهم ..

والحكيم هو الذى لا يفكر فى متاعبه ما لم يكن ثمة داع لذلك .. وفيما عدا ذلك فهو يصرف فكره الى شئون أخرى.. أو هو لا يشغل باله اطلاقا ، اذا كان الوقت ليلا .. ولست أزعم بذلك ان الانسان يستطيع فى الازمات الكبرى - كما لو كان مهددا بخراب عاجل ، أو تجمعت لديه الادلة على أن زوجته تخدعه ! - ان يقصى المتاعب عن باله فى الاوقات التى لا يملك أن يعمل فيها شيئا ازاء هذه المتاعب .. ولكنى أرى ان من الممكن اقصاء المتاعب العادية التى تصادف المرء فى يومه العادى ، اللهم الا اذا حان وقت علاجها .. ومن المدهش حقا ان يتبين المرء مدى السعادة والمقدرة اللتين تواتيانه اذا هو استطاع أن ينظم ذهنه ، بحيث يصبح قادرا على أن يفكر فى أية مسألة تفكيرا سديدا فى الوقت الملائم ، بدلا من أن يرهق نفسه بتفكير متخبط فى جميع الاوقات .. وهذا ميسور اذا أنت حرصت فى الاوقات التى يتعين فيها البت فى مشكلة أو هم ، على أن تتفرغ للتفكير فيها بمجرد تجمع البيانات الخاصة بها لديك ، ثم تصدر فيها قرارك ، فاذا ما انتهيت اليه فلا ترجع اليه بتنقيح أو تعديل ما لم تصل الى علمك واقعة جديدة عنه ، فليس أدعى للارهاق - ولا للضرر - من عدم الاستقرار على رأى .. أيا كان !

لا تحفل بهمومك أكثر مما تستحق !

وما أكثر الهموم التى يمكن أن يتخفف منها المرء اذ يتبين عدم أهمية المسائل التى تثيرها ! .. لقد تحدثت فى مجتمعات كثيرة خلال حياتى ، فكنت فى البداية أشعر برهبة من الجمهور الذى اعتزم الخطابة فيه ، وكان الانفعال العصبى يفسد على خطابتى .. وكنت أخشى هذه المناسبات الى درجة كانت تحبب

لى أن أتمنى أن تكسر ساقى قبل أن يحين موعد القاء حديثى ٠٠ وكنت اذا ما فرغت من الحديث أحسست بأننى منهوك القوى من جراء الانفعال العصبى الذى عانيته ٠٠ على اننى ما لبثت ان رضت نفسى رويدا على الشعور بأن الكون لن يتأثر ان أنا أجدت الخطابة أو أسأتها ، فألفيت اننى كلما أقللت من الاهتمام بمدى اجادتى للخطابة ، أحسنتها ، وأخذ الانفعال العصبى يزايلنى شيئا فشيئا حتى غدا فى حكم العدم ٠٠

ومن الممكن علاج كثير من العناء العصبى بهذه الطريقة ، فان أعمالنا ليست بالاهمية التى نخالها بطبيعتنا ، وليس لنجاحنا أو اخفاقنا قيمة تذكر في الواقع ٠٠ بل ان أعظم الاحزان يمكن التغلب عليها بهذه الطريقة ، كما يمكن بها التخلص من المتاعب التى نخال انها كفيلة بأن تقضى على السعادة طيلة العمر ٠٠ فالمهم ـ فوق كل شىء ـ هو الاقتناع بأن شخصية المرء منا وذاتيته ليست جزءا يذكر من الدنيا ، والشخص الذى يستطيع أن يقصر أفكاره وآماله على ما يحوله عن الاهتمام بنفسه قمين بأن يجد طمأنينة تنسيه متاعبه وأحزانه ، وهى طمأنينة تعز على المعتز المغالى فى تقدير قيمة نفسه !

والواقع ان « صحة الاعصاب » لم تلق من الناس كثيرا من الدراسة والعناية ، وان كانت الدراسة النفسية فى الاوساط الصناعية قد استطاعت أن تقوم بأبحاث واسعة فى موضوع العناء والتعب ، برهنت منها بالاحصاءات على أن المرء اذا ظل يؤدى عملا معينا وقتا طويلا فانه لا يلبث أن ينتهى الى التعب ، الناتج عن سبب نفسى هو الملل ٠٠ وهى نتيجة كان من الممكن تخمينها دون ما تطبيق للعلم ٠٠ على ان دراسة علماء النفس للتعب تكاد تكون مقتصرة على التعب البدنى ، وفاتهم ان أهم أنواع التعب فى الحياة الحديثة هو الناشىء عن المشاعر والانفعالات ، وان العناء الذهنى المحض مثله مثل التعب البدنى ، يجد فى النوم

علاجا ناجعا ٠٠ فما من شخص يؤدى قدرا كبيرا من العمل الذهنى - المجرد من العواطف - الا استطاع أن يتخلص مما يلقى فى يومه من عناء اذا ما استسلم للنوم فى نهاية اليوم ٠٠ ومن ثم نرى أن ما يعزى الى الاسراف فى العمل من ضرر ، لا يكاد ينشأ عن هذا السبب فى الواقع ، وانما مرده الى بعض القلق أو الهم ٠٠ ومصيبة العناء العاطفى الذى من هذا النوع انه كلما ازداد الشخص عناء ، كلما عز عليه أن يكف عن الشعور بالعناء !

ومن أعراض اقتراب الانهيار العصبى ايمان المرء بأن عمله بالغ الاهمية وانه اذا حصل على عطلة فقد يترتب على ذلك كل أنواع المصائب ! ٠٠ ولو اننى كنت طبيبا لامرت بعطلة لكل شخص يخال عمله مهما ٠٠ فقد تبينت فى جميع الحالات التى خبرتها بنفسى أن الانهيار العصبى الذى يبدو نتيجة العمل انما ينجم فى الواقع عن بعض المتاعب العاطفية التى يحاول الشخص الفرار منها بالاغراق فى عمله ٠٠ ومن ثم فهو يكره التخلى عن العمل لانه يخشى أن لا يجد ما يشغله عن التفكير فى شقائه وسوء حظه ٠ ومن الجائز ان يكون تعبه ناشئا عن خـــوف الافلاس ، ومن ثم يستغرق فى العمل حتى تضطرب أحكامه ويتحقق الافلاس بأسرع مما لو كان قد خفف من اقباله على العمل ٠٠ وهكذا تكون الاضطرابات العاطفية - لا العمل - هى السبب فى الانهيار العصبى فى أكثر الاحوال ٠٠

العلاج النفسى للهموم ٠٠

والعلاج النفسى للهم من أبسط المسائل ٠٠ ولقد تحدثت فيما سبق عن التنظيم الذهنى وعادة التفكير فى الامور فى أوقاتها المناسبة ٠٠ ولهذا أهمية بالغة ، اذ أنه - أولا - يمكن المرء من أن يعالج عمله اليومى دون اسراف فى تبديد تفكيره ، و - ثانيا - يوفر للمرء علاجا ناجعا ضد الارق ، و - ثالثا - ينمى الحكمة والقدرة على اتخاذ القرارات والبت فى الامور ٠

ولا يخفى أنه فى أحوال المتاعب العويصة ، لا تجدى أية وسيلة فى العلاج ما لم تنفذ الى ما هو أبعد من العقل الظاهر ٠٠ ذلك لان العقل الباطن ذو أهمية بالغة فى الصحة العقلية ، فمن السهل على المرء أن يكرر لنفسه ان ما يتوقعه من سوء الحظ لن يكون ـ اذا حدث ـ شديد الوطأة ، ولكن هذا الايحاء لن يكون ذا مفعول اذا أرق بالليل أو راودته الاحلام ٠٠ وفى رأيى ان الايحاء لا يمكن أن يستقر فى العقل الباطن الا اذا صحبته قوة وتركيز كافيان ، فان معظم ما يكمن فى أعماقنا يتألف من أفكار وانفعالات عاطفية كانت ذات تأثير قوى على وعينا وعقولنا المفكرة ٠٠ ومن ثم فمن الممكن أن نرسب فى أعماقنا أفكارا يمكن أن نجنى منها نفعا كبيرا ٠٠ وقد وجدت ـ فى حدود تجاربى الشخصية ـ اننى اذا شئت ان أكتب عن موضوع عويص ، عمدت الى التفكير فيه بأقصى ما أستطيع من استغراق بضع ساعات أو بضعة أيام ، ثم أترك للعقل الباطن مجال العمل ٠٠ فاذا عدت الى الموضوع بعد شهور ، وجدت العمل سهلا ميسرا ٠ وكنت قبل أن أهتدى الى هذه الطريقة أقضى شهورا فى قلق لاننى لا أقوى على المضى فى الموضوع ٠٠ فما كان يجدينى التفكير والقلق بشأن هذا الامر فائدة تذكر ٠٠

من هذا نستطيع أن نقتبس طريقة لعلاج الهموم ٠٠ فاذا تهددتك نذر السوء ، ففكر جديا واطلق لفكرك العنان فى تقدير أسوأ ما يمكن أن يحدث ، ثم بين لنفسك واقنعها ان الامر لن يصل الى أن يكون نكبة مروعة ٠٠ والاسباب ميسورة لهذا طالما تذكرنا ان أى شىء يصيبنا لن يؤثر فى الكون والخليقة ! ٠٠ فاذا ما تدبرت كل هذا وانتهيت الى أن تقول لنفسك عن يقين ن الامر لن يكون بالغ الاهمية بالدرجة التى يبدو عليها ، فان همومك ستهبط الى مستوى عادى ٠٠ وقد يكون من

الضرورى ان تكرر هذه العملية بضع مرات ، فلا تلبث أن تجد القلق يتلاشى ليخلفه نوع من الارتياح ٠٠

التهرب من المخاوف يزيدها استفحالا ٠٠

◆ وهذا مثل من أسلوب أوسع نطاقا لتفادى الخوف ٠٠ فالقلق نوع من الخوف ، وكل أنواع الخوف تؤدى الى عناء ، ومن ثم فالذى يتعود عدم الخوف لا يلبث ان يجد عناءه اليومى قد تضاءل بدرجة كبيرة ٠٠

والخوف فى أكثر صوره ضررا ينشأ عن وجود خطر لا نود ان نواجهه ٠٠ وكثيرا ما تندفع الى أذهاننا فى بعض اللحظات أفكار رهيبة ، يحددها عادة مايكمن فى نفس كل منا من مخاوف دفينة ، قد تكون الخوف من مرض السرطان عند أحد الاشخاص ، أو من الانهيار المالى عند آخر ، أو من اكتشاف سر مشين عند ثالث ، أو يكون مبعثها الشكوك والغيرة عند رابع ، أو بعض المخاوف التى سمع عنها فى طفولته ٠٠ عند خامس ، وهكذا ٠٠ **وقد يخطىء هؤلاء الاشخاص فيعمدون ـ اذا راودتهم هذه المخاوف ـ الى الانشغال عنها بالتفكير فى أمور أخرى ، مع ان أى نوع من الخوف انما ينمو ويستفحل بالتهرب من مواجهته، وخير ماينتهج ازاءه هو تأمله فى تفكير منطقى هادىء وفى استغراق وتركيز ، حتى يغدو أمرا عاديا مألوفا ، فان هذا كفيل بأن يخفف من رهبته ، فلا يلبث تكراره ان يجعله مملا تسأمه النفس فينصرف عنه الفكر من تلقاء نفسه ٠٠ أما محاولة صرف الفكر عنه قسرا فلا تنتهى الا الى ازدياد التفكير فيه !**

والواقع ان الخوف هو من المسائل التى يعاب على التربية الخلقية الحديثة انها مقصرة ازاءها ٠٠ واذا كان الرجال مطالبين بالشجاعة البدنية ، لا سيما فى أوقات الحروب، فان المجتمع الحالى لا يطالبهم بأى نوع آخر من الشجاعة ، كما ان النساء غير مطالبات بأى لون من الشجاعة اطلاقا ! بل ان المرأة التى

أوتيت شجاعة ، تخفى أمر تلك الشجاعة اذا شاءت أن تتقرب الى الرجال ! ٠٠ وكذلك يسىء المجتمع الظن بالرجل الذى أوتى أى لون من الشجاعة عدا البدنى منها ٠٠ مثال ذلك ان عدم الاكتراث بالرأى العام يعد تحديا يعاقب الرأى العام صاحبه بالنبذ والاعراض ٠٠

وكل هذا نقيض لما ينبغى ، فان جميع ألوان الشجاعة ـ لدى الرجل والمرأة على السواء ـ يجب أن تكون موضوع اعجاب لا يقل عن الاعجاب بالشجاعة البدنية لدى الجندى ٠٠ وكلما ازدادت الشجاعة قل القلق والهم ، وبالتالى خف التعب والعناء ٠٠ اذ أن معظم المتاعب العصبية التى يعانيها الرجال والنساء فى عصرنا تنشأ عن الخوف، ظاهريا كان الشعور به أو باطنيا ٠٠

النوم بعد التعب خير من اللهو ٠٠

ومن أكثر مصادر العناء ، حب الانفعال والملذات المثيرة ٠٠ ولو استطاع المرء أن يقضى ساعات فراغه فى النوم لاحتفظ بصحته وعافيته ، ولكن ساعات العمل تثقل نفسه وتجعله يشعر بالحاجة الى المسرات فى ساعات تحرره ٠٠ ولكن أسهل المسرات منالا ، وأكثرها فتنة ، هى تلك التى ترهق الاعصاب ٠٠ واذا تجاوزت الرغبة فى الملذات المثيرة حدا معينا ، كانت دليلا على أحد أمرين : اما انحراف فى تكوين شخصية صاحبها، أو عدم ارتياح خفى فى نفسه ٠٠ **وكثير من الناس لا يشعرون فى الايام الاولى للزيجات السعيدة بأية حاجة الى الملذات المثيرة ٠٠ ولكن الزواج فى العصر الحديث كثيرا ما يرجأ بعد الخطبة أمدا طويلا ، حتى اذا أتاحت الاحوال المالية تحقيقـــه ، كانت مسرات فترة الخطبة قد غدت عادة مستحكمة لا يمكن كبحها الا لاجل بسيط٠٠ ولو ان الرأى العام أباح للرجال الزواج فى سن الحادية والعشرين دون أن تصدهم عنه الاعباء المالية التى تتطلبها الحياة الزوجية فى عصرنا ، لما اتجه الرجال الى الرغبة فى ملذات**

لا تقل عن العمل ارهاقا وانهاكا ، ويصعب اقلاعهم عنها بعد أن يألفوها ..

على انه اذا لم يكن للفرد من سبيل الى أن يغير من القوانين والعادات التى يعيش فى ظلالها ، فانه من المجدى أن يعلم ان الملذات المثيرة ليست هى الطريق المفضية الى السعادة .. وان كان من الشاق عليه ـ طالما كان من العسير ان ينال المباهج التى هى أكثر ارضاء لنفسه ـ ان يستسيغ الحياة بدون الاستعانة بتلك المثيرات .. ومن ثم ، فخليق بالمرء المثقل بالاعباء فى هذه الحال ان يفرض على نفسه نظاما وحدودا ، فلا يسمح لها بقدر من الملذات المرهقة يقوض صحته أو يقعد به عن عمله ..

والعلاج الرئيسى لمتاعب الشباب رهن بتغيير المعايير الخلقية العامة ، ولكن الشاب يحسن الى نفسه ـ فى الوقت ذاته ـ اذا هو تذكر انه لن يلبث أن ينتهى الى وضع يمكنه من الزواج ، وان من الرعونة والخطأ أن ينتهج حياة تجعل السعادة الزوجية ـ اذا آن له أن يتزوج ـ أمرا مستحيلا ، اذ تكون الملذات قد أرهقت أعصابه وانهكت قواه ..

العناء العصبى يفقد الحياة طعمها !

ومن أسوأ خصائص العناء العصبى انه يقوم كحجاب بين المرء والعالم الخارجى ، بحيث لا تنفذ اليه المؤثرات المختلفة والانفعالات السارة الا بعد أن تكون قد فقدت بريقها وقوتها .. فلا يعود الشخص يحفل بالناس أو ينعم بطعم للحياة ، بل لا يعود يستمرىء ما يأكل ، أو يحس ببهجة لشعاع الشمس ، وانما يميل الى الاقتصار على أهداف وغايات قليلة ينصرف اليها غير حافل بما عداها . ومثل هذه الحال تجعل الراحة مستحيلة ، ومن ثم يتفاقم التعب حتى يصل حدا لابد عنده من العلاج الطبى !

كل هذه الامور ترجع فى أصولها الى فقدان صلاتنا مع الارض ، على ما أوضحنا فيما تقدم ٠٠ وان كان من العسير علينا ان نرى وسيلة الى تحقيق هذا الاتصال فى العصر الحديث، والناس تقيم فى مجتمعات طابعها تكاثف السكان فى بقاع تضيق بهم ٠٠

وفى (كتابى) القادم نواصل حملتنا لغزو السعادة ، بقيادة برتراند رسل ، فننتقل من ايضاح وسائل مغالبة الشقاء ـ وهى الجزء السلبى من الكتاب ـ الى الجزء الايجابى الذى يرينا وسائل تحقيق السعادة فعلا لا قولا ..

السيد ٠٠ والمسود !

◆ من المعروف عن مذهب « المورمون » انه يبيح تعدد الزوجات ٠٠ وقد اشتبك أحد أتباع هذا المذهب ذات يوم فى مناقشة حول هذا الموضوع مع الكاتب الفكه « مارك توين » ، فطالب المورمونى محدثه ، متحديا ، أن يذكر له آية واحدة في التوراة تحرم تعدد الزوجات بصراحة ! ٠٠

فما كان من مارك توين الا أن أجاب محدثه فورا : « لا شيء أيسر من ذلك : أو لم تقرأ الآية التى تقول : « لا يستطيع أحد أن يخدم سيدين ! »

أحبوا أعداءكم !

◆ **عندما** رقد امبراطور ألمانيا « فردريك الاكبر » على فراش الموت ، سأل الكاهن الذى ذهب لزيارته : « هل من الضرورى أن يصفح الانسان عن جميع أعدائه ؟ » ٠٠ فلما أجابه رجل الدين بالايجاب ، التفت الى زوجته الامبراطورة وقال لها : « اكتبى الى أخيك يادوروثى ، قولى له اننى أصفح عن جميع الشرور التى ارتكبها فى حقى ٠٠ ولكن انتظرى حتى أموت أولا ! »

حدث ذات يوم



من قصص التاريخ ومآسيه

عزيزى القارىء ...

فى هذا الباب اعتدت ان اطوف بك فى سياحة فكرية شائقة نزور خلالها شتى البلاد والعصور ، كى نلم من كل منها بقصة ، ونشهد فى كل بلد دراما من صميم الحياة والواقع ..

وهكذا مضينا معا فى عدد سابق الى ايطاليا ، حيث التقينا بسليلة السفاحين « لوكريشيا بورجيا » .. ثم تركناها لنغوص فى بطن الزمن ، فنلتقى بقيصر روما القديمة «تيبريوس» .. ومن هناك عدنا الى فرنسا فى عصر نابليون فعرفنا عشيقته البولونية « مارى فالبفسكا» .. ثم عبرنا (المانش) الى انجلترا ، حيث شهدنا ماساة ملكتها كارولين ، زوجة الملك جورج الرابع .. ومنها الى فينا ، عاصمة النمسا والخمر والغناء والنساء ، حيث عشنا مع الاميرة العاشقة التى كانت لها قصة اغرب من اخصب خيال !.. ثم ارتحلنا الى باريس القرن السابع عشر ، حيث عرفنا قصة لويس الرابع عشر ومدام دى مانتنون .. وكررنا عائدين الى روما القديمة فتعرفنا فيها على طاغيتها السفاح (نيرون) ، الذى بز فى جرائمه اعتى المجرمين ! .. ومن هناك عدنا الى نابولى ولندن ، فى ركاب ((ليدى هاميلتون)) عشيقة امير البحر نلسون..

واليوم اقدم لك فيما يلى قصة الملكة الحمقاء ((مارى انطوانيت)) ، وحياتها العاصفة ، وغرامها بالنبيل السويدى الكونت دى فيرسن .. وفى الاعداد القادمة نقرأ باذن الله المزيد من قصص التاريخ ومآسيه



مارى أنطوانيت

الملكة التى أشعلت الثورة بتصرفاتها .. ثم صارت وقودا لها !

للمؤرخ : ب . كريسب

الشقراء الضجرة !

◆ **كان** قصر « فرساى » ـ قصر الاسرة المالكة الفرنسية ـ يسبح فى فيض من الاضواء الباهرة ، ويموج بأفواج من المدعوين الى احدى حفلات الاستقبال الرسمية البذخة التى اعتاد أن يشهدها فى القرن الثامن عشر ٠٠ وكان الرجال والنساء ـ من أمراء ونبلاء وكبراء وديبلوماسيين ـ يروحون ويغدون فى قاعات الاستقبال ، رافلين فى أغلى الثياب ذات الالوان الصارخة وقد تناثرت عليها الجواهر والماسات ، وفقا لما كان سائدا فى ذاك العهد ٠٠

وفى غمرة الامواج المتتابعة من المدعوين وقفت فتاة شقراء ، ترفع مروحتها الى فمها من آن الى آخر لتكتم ماكان يبعثه الضجر من تثاؤب، وان كان السأم لا يلبث أن يجد منفذا آخر خلال عينيها الزرقاوين الجميلتين ٠٠ فقد أسقمها ما كانت تضطرها اليه واجباتها الرسمية من كلفة وعناء ، فأخذت تستبطىء الوقت فى لهفة الى الموعد الذى تبسط فيه موائد اللعب ، عساها تجد فيها شيئا من التسرية ٠٠

وما كانت هذه الحسناء الضجرة الملول سوى زوجة ولى عهد فرنسا ٠٠ الاميرة النمسوية التى انتزعتها الاغراض السياسية من بين أهلها لتلقى بها فى أحضان زوج امعة ، لا يميزه ذكاء ولا وسامة ، ولا يحببه اليها انتباه منه ، بل انه كان فى لهو عنها بالصيد وهواية أعمال الحدادة والنجارة !

وأقسى من ذلك ان « مارى انطوانيت » كانت عند زواجها ـ قبل أربع سنوات من حفلتنا هذه ـ فى الرابعة عشرة من عمرها، مجرد فتاة ساذجة ، عاشت حياتها فى البلاط الامبراطورى النمسوى ، لا تعرف سوى الترف والرفاهية ٠٠ وقد شغلت أمها عنها بشواغل الدولة الثقيلة ، وبمطالب أبناء وبنات بلغ

عددهم ستة عشر ٠٠ وهكذا نشأت الاميرة لا تعرف قيودا ولا تضييقا ٠٠ ولكنها لم تكد تنتقل الى البلاط الفرنسى حتى ألفت نفسها محوطة بالجواسيس والوشاة والنمامين، محفوفة بالدس والكيد والوقيعة ، فلم ينقذها من خبائث هذا الجو سوى ان الملك العجوز فتن بحسنها وسحر جمالها فقربها اليه ، وأغدق عليها من الجواهر واللآلىء ما أيقظ فى نفسها حب البذخ والاسراف ٠٠ الخلة التى أوغرت عليها – وعلى الملكية بأسرها – صدر الشعب الجائع !

فتى ٠٠ من السويد

◆ وفيما كانت تكتم التثاؤب ، اقترب منها سفير السويد يستأذنها فى أن يقدم اليها مواطنا من وجهاء بلاده ٠٠ وكأنما وجدت « مارى انطوانيت » فى استقبال قادم غريب ما يخفف عنها بعض الضيق الذى كانت تعانيه ، فابتسمت فى رضى ٠٠ **وسرعان ما عاد اليها السفير مصطحبا شابا أنيقا ، رشيقا ، مليح القسمات ، وضاء المحيا ، أشقر الشعر ، قدمه اليها باسم « الكونت جون اكسل دى فيرسن » !**



ولو ان راء تطلع الى الاميرة والوجيه السويدى، للاحظ بعضا من أوجه الشبه بينهما ٠٠ كان كل منهما أبيض البشرة أصفر الشعر ، ودع العام الثامن عشر من عمره من عهد وجيز ٠٠ ثم ، كان كل منهما يستشعر شيئا من وحشة التغرب فى البلاط الفرنسى الصاخب العابث ٠٠

ولكن الشبه لم يتجاوز هذا الحد ٠٠ بل كان يقابله كثير من الفوارق ، تتضح اذا ما استعرضنا حياة كل منهما قبل هذا اللقاء ٠٠

البحث عن زوجة !

◆ **كانت** « ماری انطوانيت » صغرى أبناء ستة عشر رزقهما الامبراطور « فرانز الاول » والامبراطورة « ماری تيريز » اللذين تبوءا ما تبقى من الامبراطورية الرومانية المقدسة ممثلا فيما عرف فى القرن الثامن عشر بالامبراطورية النمسوية ٠٠ وكانت فى أعباء الامبراطورية الثقيلة ، ومطالب هذا العدد الوفير من الاطفال ، ما يشغل الامبراطورين عن أن يفرغا قسطا كبيرا من العناية على ابنتهما الصغرى ، فلم تحظ من التربية والتعليم بالقسط الكافى لاعدادها للدور الذى كان يدخره لها القدر !

وعندما بلغت «ماری انطوانيت» الرابعة عشرة من عمرها ، كان لويس الخامس عشر ووزيره « شوازيل » يسرحان بصريهما فى أرجاء أوربا بحثا عن زوجة تصلح لحفيد الملك وولى عهده٠٠ وكانا فى الوقت ذاته ينشدان حليفا وعونا لفرنسا على غريمتها بروسيا ٠٠ واستقر البصران الحائران أخيرا على الفتاة اليافعة، فكتب سفير فرنسا فى « فيينا » اذ ذاك الى مليكه يقول : «**الحق انها أميرة اكتمل لها جمال الخلق والروح ، وجمال الطلعة والقوام ، ذات ذكاء لامع ، وروح مرحة ٠٠ لها أروع الخصال الكفيلة بتحقيق سعادة الزوج** » ٠

وفى سنة ١٧٧٠ تمت خطوبة « ماری انطوانيت » الى ولى العهد الفرنسى ٠٠ حتى اذا كان اليوم الحادى والعشرين من شهر أبريل من ذلك العام ـ ولما ينقض يومان على عقد القران بالوكالة ـ انطلقت العروس الصغيرة فى رحلتها الى وطنها الجديد ٠٠

وفى ٨ مايو بلغ الركب « ستراسبورج » ، أولى بقاع الوطن الجديد ٠٠ وعند باب كنيستها التقت « ماری انطوانيت » بأول

رجل قدر له أن يلعب دورا فى حياتها ، وهو « الكردينال الامير لويس دوروهان » ، وكان أميرا فى مقتبل العمر ، جميل المحيا ، ممشوق القوام ، من أسرة رفيعة الشأن٠٠ نشأ مدللا وقد اجتمع له من الجمال والذكاء والمكانة والجاه ما جعله - رغم مركزه الدينى - مترفا ، مسرفا ، ماجنا ٠٠

زهرة تتفتح فى الوحل !

◆ **وكان** استقبال الشعب الفرنسى للاميرة استقبالا رائعا٠٠ واستطاعت هى من ناحيتها أن تملك على الشعب مشاعره بجمالها الفتان ، وخصالها الرائعة ٠٠

ولكنها كانت زهرة قدر لها ان تتفتح فى بلاط ساده الفجور، وسيطرت عليه الخلاعة ٠٠ ووجدت « مارى انطوانيت » نفرا من الحاشية بقيت فى نفوسهم بقية طيبة ، فأشفقوا على هذه الفتاة التى كانت تتأرجح بين الطفولة والنضوج ، والتى كانت تجتاز أخطر تجربتين فى حياة المرأة - تجربة المراهقة، وتجربة الزواج ! - ولكن هؤلاء المشفقين كانوا قلة ضئيلة ٠٠ وسرعان ما انفضوا من حولها اذ لمسوا فيها اعتدادا بالنفس ، وزهوا بوطنها - الامبراطورية النمسوية ! - وعدم اكتراث بوطنها الجديد ٠٠ فرنسا !

وزاد من محنتها ان ولى العهد كان شارد الفكر ، بطىء التفكير ، بعيدا عن الرشاقة ٠٠ وكانت ضخامة راحتيه وقدميه ترشحه لاى شيء الا أن يكون ملكا مرتقبا ، وزوجا لفتاة رائعة الفتنة ، لا تزال تعيش فى أحلام الصبا الزاهية ٠٠ والانكى من كل هذا انه كان يتجاهلها !

وكان جديرا بها أن تأسى وتحزن ، لولا انها كانت طفلة ٠٠ ساذجة ٠٠ جاهلة ٠٠ طبعت على كثير من المرح، وقسط من التهور ٠٠ ومن ثم راحت تنشد التسلية فى الاقبال على المرح٠٠ وكان الملك العجوز - لويس الخامس عشر - قد فتن بها ، فراح

يغدق عليها ما بث فى نفسها روح البذخ والاسراف ٠٠ كما علمها « كونت دارتوا » ـ شقيق زوجها ـ كيف تستمد من موائد الميسر تسلية وملهاة ٠٠ وهكذا اجتمع المرح والتهور على أن يزينا لها أن تنسى أحزانها في الميسر ، وفى اللهو ٠٠ وأخذ النزق وصغر السن وقلة التجربة تغريها على الاندفاع والاغراق ٠٠ والتف حولها نفر من شباب البلاط المفتونين ، يتنافسون فى ارضائها والتقرب اليها !

وكان جديرا بهذه الامور كلها ، فى وسط فاسد ، منحل ، موبوء ، أن تمهد الجو لهواة الانتقاد ، والوشاية ، والافتراء٠٠ وبدأت همسات السوء تسدد اليها سهاما من الاتهام ٠٠ فكانت اذا خلت الى نفسها وتدبرت ما يجرى ، أحست بالضيق والسأم، وملت الحياة الجديدة !

شاب مثالى !

◆ **فى** تلك الاثناء ، قدم اليها سفير السويد ذاك الشاب الذى وفد من بلاده ، « الكونت جون اكسل دى فيرسن » ٠٠ وكانت حياته تختلف عن حياتها ٠ كان ابن أحد وزراء ملك السويد، أحيطت نشأته بعناية خاصة، ورسمت الخطط لتربيته كأرقى ما كان يربى صفوة الشباب فى أوربا ـ فى ذلك العهد ـ ليبوأ منصبا رفيعا فى وطنه ٠٠ وكان الى جانب العلم والادب والتهذيب قد وجد تشجيعا على أن يعشق الرياضة وحياة الخلاء، بما يطبعها من طابع الخشونة ٠٠ ودرب على أن يفخر بمواهبه ومؤهلاته ، أكثر مما يفخر بأصله وأسرته الارستقراطية ٠٠ حتى اذا شب ، نظمت له رحلة يزور خلالها عواصم أوربا الكبرى استكمالا للثقافة والمعرفة ٠٠

وكان من أثار هذه التربية أن نشأ « جون اكسل دى فيرسن» رزينا ، حريصا ، يعرف كيف يكتم مشاعره ، وكيف يسيطر على أهوائه ، وكيف يتحكم فى نزواته ٠٠

وفى هذا ، كان على نقيض « مارى انطوانيت » !

ومع ذلك فقد شاء القدر ان يجمعهما فى قصة واحدة ..

كان جمالهما ، وغربتهما بالنسبة للوسط الذى التقيا فيه ، وتقارب السن وأحاسيس الشباب ، كفيلة بأن تجعل قلبيهما يخفقان فى هذا اللقاء الاول .. ولكن قيود البلاط والالتزامات التى كانت تفرضها مكانة كل من الشابين ، تكاتفت على كبت هذا الخفقان !

ولكن طبيعة مارى انطوانيت ـ التى اتسمت بشىء من النزق والتهور ـ جعلت قلبها أكثر من قلب الفتى السويدى تمردا على الاوضاع .. فلم تحاول أن تكتم الاثر الذى أحدثه هذا الفتى فى نفسها ، غير عابئة بهمسات الحاشية .. وبذلت له من ودها ما ضاعف من تأثير جمالها وشبابها على قلبه ، فاذا به يتخلى عما أخذ به نفسه من كتمان مشاعره ، وقد ألفى نفسه مأخوذا بفتنة الاميرة ولية عهد البلاط الذى استضافه !.. واتقدت فى قلبه جذوة الحب لاول مرة ، فأوحت اليه بجرأة لا قبل له بها، حين اجتمعا بعد ثلاثة أسابيع فى حفلة صاخبة من حفــلات الرقص التنكرية التى اعتاد البــلاط الغارق فى الملذات أن يشهدها..وكانت العادة ان لايرتدى الرجال أقنعة علىوجوههم، لذلك راح « فيرسن » يجوس فى تلك الليلة بين النساء اللاتى تحجبن بأقنعة لم تقو على اخفاء السحر الغاوى الذى كان ينساب من أعينهن .. وان أخفت شخصياتهن !

تسعى وراءه .. وتشد ثوبه !

ولم تغفل العيون الرقيبة فى ذلك المساء ـ وما كان أكثرها فى البلاط الفرنسى ـ عن الحركة التى ندت عن فتاة شقراء وسط الحشد الزاخر ، حين ظلت تسعى وراء الشاب السويدى حتى استطاعت أن تشد طرف ثوبه لتنبهه اليها ، ثم راحت تحرص ما وسعها على أن تلازمه ..



وانتظرت تلك العيون فى لهفة وفضول ، حتى آن للنساء فى نهاية الرقص أن يرفعن أقنعتهن .. فاذا الفتاة الشقراء التى حرصت على التقرب الى الشاب هى بعينها « مارى انطوانيت » .. زوجة ولى العهد ! .. وبدا على الاميرة الشابة انها لم تعد تحفل بشىء ، حتى انها لم تحاول أن تكتم اهتمامها بالشاب ..

ولكن « فيرسن » كان ذا خلق قويم نبيل ، فلم يقر قلبه على هواه .. وأبى عليه أن يسعى الى زوجة سواه ، بل صارح نفسه من البداية بأن القدر شاء ان يبتليه بغرام ميؤوس منه ، فلم يجد علاجا للموقف وللقلب المفتون ، سوى أن يبادر بالرحيل عن « باريس » ، مستأنفا رحلته خلال أوربا ..

غير ان صورة الاميرة ظلت مطبوعة فى ذاكرته .. كما ظلت جذوة الهوى متقدة فى فؤاده !

الزوجان الغريران يرثان العرش !

◆ **وتوفى** لويس الخامس عشر فى أبريل سنة ١٧٧٤ .. فآن لولى عهده أن يتبوأ مع زوجته العرش ، وكلاهما شاب غرير ، لم تصقله الايام ، ولم تحنكه التجارب .. (اذ كان لويس السادس عشر فى العشرين من عمره .. و « مارى انطوانيت » فى الثامنة عشرة !)

ولعل « لويس » كان أزهد ما يكون فى الحكم ، يؤثر عليه هواياته المفضلة : من صيد ، واشتغال بالحدادة والنجارة والبناء! .. أما « مارى انطوانيت » ، فقد صادف السلطان هوى من

نفسها المطبوعة على الزهو والغرور والنزق ٠٠ ورأت فيه أداة تمكنها من الاغتراف ما شاءت من فيض اللهو والمرح والميسر ، ومن الحصول على ما تهوى من غالى الثياب وثمين الحلى والمجوهرات ، ومن اصطفاء الاصدقاء ، واقصاء الاعداء ٠٠ ومن رفع من يرضونها ، والبطش بمن يسخطونها !

ومرة أخرى ، دفع القدر « الكونت دى فيرسن » الى البلاط الفرنسى ، والى طريق « مارى انطوانيت » ، ولما تنقض على لقائهما الاول أعوام ثلاثة ٠٠ ولم تتحرز مارى انطوانيت فى ابداء ابتهاجها بلقائه ، وفرحها بمقدمه ٠٠ وكانت قد غدت ملكة ، وغدا لها قصر خاص هو « البيتى تريانون » ، تحيط بها فيه حاشية خاصة جلها من المفتونين - وقيل ان منهم من كانوا عشاقا اصطفتهم لنفسها ! - ولكن نجم الشاب السويدى طغا على كل نجم فى « البيتى تريانون » ، فقد أقبلت عليه الملكة بكل مشاعرها وحواسها ٠٠ ونسيت من عداه !

هل أثم العاشقان ؟

وهمست ألسنة هواة الفضائح فى أذنى التاريخ تؤكد ان الشاب السويدى والشابة النمسوية الاصل أوغلا فى غرامهما حتى ارتادا شاطىء الاثم ! ٠٠ واستعاذ التاريخ بالله من أن يسجل ما لا يقوم على أسس من أدلة مدعمة أكيدة، فوسوست الالسنة الواشية : وهل من دليل أقوى من أن «مارى انطوانيت» ظلت سبع سنوات فى حياتها الزوجية دون أن تنجب لزوجها سليلا ، فى حين انها لم تلبث - بعد توثق علاقاتها بفيرسن - أن حملت ثم أنجبت ابنتها ٠٠ الاميرة « مارى تيريز » ، التى أطلقت عليها اسم أمها ؟

ويعود التاريخ فيعرض عن تسجيل ما ليس قائما على دعائم أكيدة ٠٠ فقد نمى اليه من مصادر أخرى ان « الكونت دى فيرسن » لم يكن فى باريس اطلاقا حوالى الوقت الذى حملت فيه الملكة الرعناء بابنتها ٠٠ فضلا عن ان أخلاقه وشخصيته

تتنافيان تماما مع احتمال اقدامه على علاقة آثمة مع امرأة متزوجة .. بل على أية علاقة آثمة على الاطلاق .. بل ان كل الشواهد تشير الى أن عاطفته كانت أسمى وأنبل من مجرد الشهوة الرخيصة !

اذن .. أفتكون « ماري تيريز » ثمرة علاقة مع عشيق آخر ؟ ان التاريخ يدع هذه المسألة ملتفة بأستار الغموض .. !

يفر من الغواية الى .. الحرب !

وكيفما كان الامر ، فان «الكونت دى فيرسن» كان – فى الغالب – يحب الملكة حبا بريئا رفيعا .. لذلك فان الاشاعات لم تكد تتناهى الى سمعه ، حتى أدرك ان علاقته بالملكة كفيلة بأن تسىء اليها ! .. وفى تلك الاثناء ، كانت الحركة الاستقلالية فى أمريكا قد بدأت تعنف وتشتد، وراح «لافاييت» يدعو أنصار الحرية فى فرنسا الى أن يحشدوا جيشا لمساعدة الامريكيين فى جهادهم للتحرر من نير الاستعمار ، فاذا بالحكمة والرغبة فى التضحية تدفعان «فيرسن» الى المبادرة بالانضمام الى الحملة.. وقضى بالفعل فى أمريكا ثلاث سنوات ، أبلى فيها بلاء مجيدا فى صفوف المجاهدين ..

ثم قدر له ان يعود الى باريس ، فاذا الاحداث قد تطورت تطورا أدى الى تجمع نذر الخطر فى سماء الملكية !.. فلقد اندفعت «ماري انطوانيت» فى التيار الذى استمرأته ، ضاربة عرض الحائط بنصائح «الكونت دو ميرسى ارجنتو» – السفير النمسوى الذى عينته امها فى باريس ليكون على مقربة منها – وتمادت فى طيشها حتى روع الرجل فتلاحقت تقاريره الى امها التى راحت تناشدها ان ترتد الى حجاها .. وكتبت لها مرة تقول : «اننى ارتجف فرقا من مصيرك» !

ولكن ماري انطوانيت لم تحفل بشىء ، بل تملكتها حمى اللهو والعبث .. وامعنت فى استغلال ضعف زوجها لتتدخل فى شئون الحكم والسياسة ، حتى لقد قال «ميرابو» عنها انها

«العون الاوحد للملك» .. وما كان اتعسه من عون! فقد كان من جراء تدخلها فى تلك الشئون ان سادت الاهواء والنزوات سياسة الدولة .. وان استبدت «مارى انطوانيت» بآرائها فراحت تولى وتعزل وفق ميولها .. حتى انها عملت على عزل «تيرجو» ــ وزير المالية الذى حاول ان يضع برنامجا للاصلاح وانقاذ فرنسا من هوة الافلاس .. فاشتد سخط الشعب عليها، اذ كان «تيرجو» حبيبا اليه!

قضية عقد الملكة!

◆ **والواقع** ان فرنسا راحت ترزح تحت وطأة ازمة خانقة، والبلاط ماض فى مباذله، مستنزفا اموال الدولة، ممعنا فى ارهاق الشعب بالضرائب ..

وكانت «مارى انطوانيت» تزداد اسرافا وتبذيرا يوما بعد يوم .. وتفرط فى ابتياع الثياب والمجوهرات والخيل، وفى اقامة الحفلات فى بذخ .. وكانت اذا لم تسعفها موارد الدولة، لم تتورع عن الاستدانة .. مما جرأ المنتقدون على النيل منها، والمحتالون على الاجتراء على مقامها، والتهجم على سمعتها، واستغلال اسمها فى مغامرات النصب والاحتيال ..

وكانت قضية «عقد الملكة» اكبر فضيحة دمرت سمعتها: ذلك ان «مارى انطوانيت» كانت قد غضبت على الامير «لويس دى روهان» ــ الذى كان كردينالا لكنيسة «ستراسبورج» وكان اول من استقبلها فى وطنها الفرنسي حين وفدت من النمسا لاول وهلة وهى عروس فى الرابعة عشر من عمرها ــ وهكذا بدأت تحاول ان تنزل بالامير نقمتها (كما كانت تفعل بخصومها!) .. ولكن قوة نفوذ اسرته لم تمكنها من البطش به، فاكتفت بأن عملت على اقصائه عن المناصب التى تنيله نفوذا سياسيا، فكاد الرجل يجن .. وكان يعرف انها صاحبة الكلمة الاولى فى الدولة، فلم يدخر وسعا فى محاولة استجلاب رضاها .. ومضى يسوق الوسطاء والشفعاء، حتى اوقعه

الحظ . العاثر بين ايدى جماعة من الادعياء المحتالين ترأسهم امرأة زعمت انها مقربة لدى الملكة وراحت تتجر باسمها فى سوق الاحتيال !

وخدع الامير «دوروهان» فى رئيسة العصابة حين زعمت له انها الكفيلة باسترضاء الملكة عنه ، فلم يلبث ان اطمع المحتالة واعوانها ، فابتزوا منه الاموال مدعين ان الملكة تطلبها لاعانة اسرة نبيلة بائسة ، وحصلوا منه بهذه الحجة على ۱۵۰٫۰۰۰ فرنك !

وفى تلك الاثناء وقع بين براثن المرأة واعوانها تاجران من تجار الجواهر كانا قد صنعا قلادة فريدة فى نوعها تكلفت ۱٫٦٠٠٫٠٠٠ فرنك ، طامعين فى ان يبيعاها للملكة ، ولكن هذه رفضت ان تشتريها لفداحة الثمن .. **فما زالت المرأة بهما حتى اقتنعا بانها الكفيلة بان تحول الملكة عن قرارها ، فى حين انها سعت الى «دى روهان» واوهمته بأن الملكة راغبة فى القلادة ، ولذلك فهى تود ان تبتاعها لها ، ولكنها لا تملك الثمن !.. وفى دهاء خبيث ، اقنعته بأن يدفع هذا الثمن الباهظ ، على ان يسترده على اقساط .. ثم حصلت على القلادة فعمدت واعوانها الى تفكيك ماساتها وبيعها فرادى ..!**

وتكشفت المؤامرة ، فثارت «مارى انطوانيت» لهذا الاتجار المزرى باسمها وطلبت محاكمة المشتركين فيها .. وكان «دى روهان» هو الهدف الذى حاولت ان تنزل به نقمتها ، لولا ان نفوذ اسرته وانصاره ، مكناه من ان يحاكم امام البرلمان بوصفه اميرا وقريبا للاسرة المالكة .. وكانت القضية اكبر فضيحة للعرش المتأرجح على حماة الفساد .. وخاصة حين قضى البرلمان ببراءة الرجل براءة تامة ، فكان ذلك انتصارا لحزبه على الملكة ، وللبرلمان على العرش !

على ان الحكم كان ذا مغزى اشد خطرا .. كان ينطوى على تسليم بان «دى روهان» كان معذورا فى ان يصدق كل

ما نسبته المحتالة الى الملكة من استغلال لنفوذها فى رفع الناس وخفضهم ، وفى ابتزاز النقود باسم الاحسان ، وفى الاستدانة .. فازداد ايمان الشعب باستهتارها ببؤسه ومحنته ، وازداد سخطه على اسرافها وتبديدها لامواله واقواته ..

وكان هذا الحكم اشد ضربة لهيبة الملكية فى فرنسا .. بل ان «جيته» اعتبره الفاتحة الحقيقية للثورة !

نذر الثورة تقترب .. !

هكذا وجد «الكونت دو فيرسن» الظروف المحيطة بحبيبته لدى عودته الى باريس ، فراح يحاول جاهدا ان ينصحها ، وان يساعدها على اصلاح موقفها وقد غدت بغيضة لدى الشعب !.. بل انه ود لو يبقى الى جوارها ، لولا ان تلقى دعوة من مليكه — «جوستاف الثالث» عاهل السويد — كى يرافقه فى رحلة اعتزم القيام بها الى ايطاليا .. فصدع للرغبة الملكية ، ورافق الملك حتى عاد الى السويد .. واذ لم يستطع التخلص من رغبة «جوستاف» فى ان يبقى معه ، اضطر للاكتفاء بأن يتردد على باريس لماما ، فى زيارات خاطفة ، ليرضى قلبه احيانا ، وليقوم بمهام لمليكه فى احيان اخرى .. فقد كان «جوستاف» اسبق ملوك اوربا الى تبين شرر الثورة الفرنسية خلال رماد الحوادث ، ومن ثم كان اسبقهم الى العمل ، فعقد العزم على ان ينقذ الاسرة المالكة — لاسيما الملكة الفاتنة التى كان يراها رمزا للحياة المثقفة المتمدينة التى كان يريد ان يقتبسها عن البلاط الفرنسى ليدخلها على بلاطه !.. ومن ثم راح «جوستاف» يعمل جاهدا على حشد جيش لهذا الفرض يمثل الدول الملكية ..

لكنه اغتيل قبل ان يحقق خطته !

◆ **وعاد** «فيرسن» الى باريس والاضطرابات تشتد باطراد ، ونذر الثورة تلوح فى الافق ، فتطوع فى الفرقة السويدية بالحرس الملكى برتبة «كولونيل» ..

وكان نزق «ماری انطوانیت» قد تجاوز كل حد يمكن معه تدارك الضرر .. وراح «فيرسن» يلازمها وهو يرقب التطورات فى توجس وقلق .. وجعل من نفسه ناصحا لها ، واتخذته بدورها مستشارا ، ولكن روحه الارستقراطية المحافظة لم تكن تتسق والموقف .. فقد اعمته عن ان يشعر ان الظروف تتطلب النزول عند رغبات الشعب ومهادنة النظام الجديد فى فرنسا ..

هل استجاب اخيرا لداعى الهوى ؟

وهنا .. فى هذه الفترة العصيبة القلقةالتى كان «فيرسن» لا يكاد يفارق الملكة خلالها ، بل كان اقرب اليها واكثر ملازمة لها من الملك .. فى هذه الفترة ، يحتمل ان يكون قد نزل عن مثله العليا فى الحب العذرى ، واستجاب لداعى الهوى !

ولعله كان من المحتمل ان يتغير تاريخ الثورة فى فرنسا لو ان «فيرسن» نزل عن تعنت المحافظين والرجعيين ، وتخلى عن عنجهية الارستقراطيين ، فابصر الموقف على حقيقته .. فان هذا كان قمينا بتمكينه من ان يخفف غلواء الملكة .. **فالواقع ان لويس السادس عشر ابدى استعدادا ـ بعد سقوط الباستيل ـ لاسترضاء الشعب وممثليه، ولكن «مارى انطوانيت» ـ بكبريائها المعهود ـ عز عليها ان تخضع الملكية لرغبات الشعب! ولسوء الحظ لم يكبح «فيرسن» من تعنتها ، كما آزرها فريق من الحاشية جبلوا على النفاق حتى فى احرج الاوقات ، فكان لها من ذلك كله قوة مكنتها من ان تحول دون مضى الملك فى سياسة التوفيق والتفاهم ..**

وكذلك ادى تدخل «مارى انطوانيت» الى قطع المفاوضات بين الملك والجمعية الوطنية من اجل حقوق الشعب الدستورية ومضت الثورة فى نموها وتطورها ..

الملكة تواجه الشعب الثائر !

◆ ثم جاءت تلك الليلة التاريخية .. ليلة الخامس من اكتوبر سنة ١٧٨٩

كان الخبز قد عز على اهل باريس ، والملكة فى لهوها وجهلها تعجب مما يضيرهم من ذلك وتتساءل : « ولم لا يأكلون الفطائر ؟ » .. وفى ذلك اليوم قامت نساء العاصمة الفرنسية بمظاهرة للمطالبة بالخبز ، وانضم كثير من الرجال اليهن حتى غدت مظاهرة شاملة ، سارت الى قصر «فرساى» فهاجمته وتغلبت على الحرس .. ونفذت النساء الى مخدع الملكة ـ التى كانت قد لاذت بجناح الملك ـ فرحن يطعن فراشها بالحراب ! !

وروع «لافاييت» اذ رأى حياة الاسرة المالكة فى خطر ، فراح يهيب بالملكة ان تظهر فى شرفة القصر وتواجه المتظاهرين .. ومع ان مارى انطوانيت لم تكن تنقصها الجرأة يوما ـ ومن الجرأة ما ينبعث عن التهور والتعنت ـ الا انها افتقدتها فى تلك اللحظة العصيبة ، فالتفتت الى «فيرسن» والملك وولديها ، وترددت !.. وظلت ملامح عشيقها جامدة ، ولكن عينيه اوحيتا اليها بما بادرت الى الاقدام عليه .. فاذا هى تظهر فى الشرفة ، واذا «لافاييت» يتقدم فينحنى امامها، ويلثم يدها..

وألهب هذا التصرف ـ من العسكرى المحبوب لدى الشعب ـ عواطف الثائرين ، فاذا هم ينفجرون هاتفين له وللملكة !.. ومع ذلك فقد اصروا فى النهاية على ان تنتقل الاسرة المالكة الى قصر «التويلرى» ـ الذى كانت قد هجرته ـ لتكون تحت اعين الشعب ..

وكانت فى الجمعية الوطنية بقية من نواب يعطفون على الملكية ، وعلى رأسهم «ميرابو» ـ الذى راح يكاتب الملك سرا وينصحه بالاذعان لمطالب نواب الامة .. ولكن « ميرابو » لم يلبث ان مات ، فانهار بموته دعاة الاعتدال فى الجمعية الوطنية!

وكان « فيرسن » فى تلك الاثناء قد أدرك الخطر المحيق ، ولمس المصير الرهيب المرتقب ، فلم يجد من حل سوى ان تفر الاسرة المالكة الى الحدود الشرقية ٠٠ ولم يأبه للشر الذى كان يعرض له نفسه ـ وهو الاجنبى عن البلاد ـ فى سبيل انقاذ حبيبته الملكة ٠٠

واخذ يرسم الخطة فى براعة واحكام ، مستعينا بنفر من النبلاء وأنصار الملكية ٠٠ وانتهت دراسة الموقف الى أنه اذا استطاع الفارون أن يبلغوا « مونميدى » ، سهل عليهم أن يقيموا فيها حكومة مؤقتة ، وان يحشدوا جيشا من الملكيين ٠٠ أما اذا فشلوا ، ففى وسعهم ان يفروا الى هولنده حيث كان شقيق « مارى انطوانيت » حاكما باسم امبراطور النمسا ٠٠

خطة الفرار !

وفى سبيل بلوغ « مونميدى » ، كان عليهم ان يغـادروا «التويليرى» خلسة متسللين ، وان يسافروا برا ، خلال دروب غير مطروقة ٠٠ واقترح أحد المتآمرين ان يستقل أفراد الاسرة المالكة عربتين من الطراز الخفيف لتنطلقا بأقصى قدر من السرعة ٠٠ ولكن الملك أصر على أن لايفترق عن الملكة ٠٠ والملكة لم تطق الرحيل دون أن تكون ابنتها وابنها معها ٠٠ وكان لزاما أن ترافقهما أيضا مربيتهما، و «مدام اليزابيث» شقيقة الملك!٠٠

وهكذا انتهى الامر الى أن يسافر الستة فى عربة واحـدة ، كبيرة ، بطيئة !

واستطاع «فيرسن» أن يدبر الامر بمعونة صديقة انجليزية له في باريس ، استعارت لهذا الغرض عربة بارونة روسية من معارفها ، كما حصلت على جواز سفر باسم البارونة لافراد الاسرة الهاربة جميعا ٠٠ فكان على المربية أن تنتحل دور تلك النبيلة الروسية ، وان يتنكر الملك فى زى وصيف لها ، وتقوم الملكة بدور وصيفتها ، و « مدام اليزابيث » بدور خادمتهـا

الخاصة ، في حين يتنكر ولى العهد واخته ليتخذا شخصيتى ابنتى البارونة ٠٠

وكان «فيرسن» هو الحوذى الذى آلى على نفسه أن يقود العربة ٠٠

وبدأ الحظ يعاكس الهاربين من البداية ٠٠ فقد أرجىء تاريخ الفرار مرارا تحت حكم الظروف ٠٠ حتى اذا آن للركب أن ينطلق ، اضطر للتأخر لان الملكة أصرت على أن تحمل معها المجموعة الهائلة التى كانت تقتنيها من أدوات «التواليت» !

وتسللت «مارى انطوانيت » من القصر وقد ارتدت فوق ثيابها عباءة بالية، ووضعت على رأسها قبعة من قبعات النوريات (الغجر) ٠٠ وكانت « مدام اليزابيث » والاميران الصغيران والمربية أول من بلغ المكان الذى جثمت فيه العربة فى الانتظار ٠٠ أما الملك، فقد تأخر عن الموعد المحدد اذ فوجىء بزائر غير مرتقب ٠٠ على انه لم يلبث حين تخلص منه وأسرع الى العربة ، ان تبين ان الملكة لم تكن قد وصلت بعد !

ومكث الجميع فى انتظارها قلقين ٠٠ ولكن « فيرسن » كان أشدهم قلقا ، فما كان يعنيه ان ينجو أحد سوى الملكة ٠٠

واخيرا ، وصلت مارى انطوانيت عند منتصف الليل تقريبا .. وظهر انها كانت قد ضلت الطريق فى الغابة ..

عندما تناوىء الاقدار !

◆ **وهكذا** قدر لهم ان يبدأوا رحلتهم متأخرين .. وراح « فيرسن » يلهب الجياد ويستحثها ، حتى بلغ الركب باب « سان دينى » حيث انتقل الهاربون الى عربة مقفلة الجوانب ، قادها « فيرسن » حتى « بوندى » ٠٠

وهناك ، اصرت مارى انطوانيت ان ينفصل حبيبها عنهم حرصا على سلامته ، فاضطر الى أن يفارقهم بقلب يفريه القلق ٠٠ واتخذ سبيله وحيدا الى « بروكسل » حتى لا يتعرض لنقمة

الوطنيين ـ وهو الاجنبى ـ اذا قدر للقوم أن يفطنـــوا الى المؤامرة ٠٠

وانطلقت العربة تواصل رحلتها ٠٠ وكان الملك يستوقفها من آن لآخر ليهبط منها فى البقاع المهجورة فيتمشى قليلا ٠٠ ثم كسر أحد أجزاء المركبة فاستغرق اصلاحه بعض الوقت ٠٠ وهكذا كان القدر مصرا على أن يؤخر القوم بكل وسيلة ٠

ثم شاء سوء الطالع ان يرتاب المشرف على احدى المحطات التى توقفت عندها المركبة فى شخصية الملك ٠٠ واكتملت عناصر الفشل حين بلغ الركب « سان مينيهو » ، فاذا الافراد الذين كانوا فى انتظاره بخيل مسرجة ـ وكانوا من الجنود الموالين للملك ـ قد يئسوا من وصول الفارين بعد أن طال تأخرهم ، فقادوا الخيل الى الحظائر ٠٠ وزيادة فى النكاية ، أوحى اليهم سوء الحظ ان يخطئوا فى الفندق الذى كان معينا للقاء ٠٠ !

وبعد لأى ، قبل الحوذى ان يواصل الرحلة بالخيل المتعبة . . ولكن المركبة لم تكد تبلغ « فارين » ، حتى كان الرجل الذى تعرف على الملك فى الطريق قد لحق بها ، ونبه السلطات ٠٠

وهكذا منيت المغامرة بالفشل ، فأعيد الهاربون بين مظاهر التجهم والعدوان والاهانة ، الى باريس ٠٠ !

العاشقان يتراسلان بالشفرة !

◆ **واشتدت** الحراسة على المعتقلين فى قصر «التويليرى» بعد هذا الحادث ٠٠ وساءت معاملة الحراس لهم ، وأسرفـوا فى تحقيرهم والتطاول عليهم ! ٠٠ ولم يجسر « الـــكونت دى فيرسن » على العودة الى فرنسا فى بداية الامر ، ولكنه ظـل يراسل حبيبته ـ مستخدمين شفرة خاصة أحيانا ، ومدادا خفيا يكتبان به ما يشاءان بين سطور رسالة بريئة المظهر ، فى احيان اخرى ! ـ ويفتنان فى طرق ارسال هذه الخطابات . .

وفى تلك الاثناء ، قبل « لويس » أن يقر الدستور ، كأداة

لتأخير النكبة المرتقبة ، لا سيما وقد تبين ان الدول الكبرى آثرت أن تقف مترددة ، فلم تتخذ أية خطوة لنجدته !

واطمأن « فيرسن » الى هذه الهدنة الموقوتة ، فأصر ـ رغم الحاح الملكة فى خطاباتها على معارضته ـ على أن يتسلل متنكرا الى باريس ، ليراها ويطمئن قلبه ٠٠ **ووفق بالفعل فى التسلل ٠٠وكانت فرحته لا تقدر حين استقبلته ماري انطوانيت وحدها! وما كان أروعه من لقاء للعاشقين اللذين خالا ان افتراقهما ـ عند « بوندى» ـ لن يطول لاكثر من يومين ، فاذا به يمتد ثمانية أشهر طوال ! ٠٠ وكانت أهوال الاحداث التى مرت بهما قد أضافت الى عمريهما أعواما عديدة ٠٠ ولكنهما نسيا كل تلك الآلام والعناء عند اللقاء ، وعاشا للحظة التى كانا فيها !**

وفى الليلة التالية ، اجتمع « فيرسن » بالملك والملكة معا ، فراحوا يتدارسون الموقف طويلا ٠٠ ثم أذن لفيرسن بالرحيل ٠٠ فانطلق على أمل انه عائد عما قريب ٠٠ وما دار بخلده ان تلك كانت آخر مرة يحظى فيها برؤية المرأة التى أحبها العمر كله ٠٠

مذابح ١٠ أغسطس

◆ **عاد** فيرسن الى « بروكسل » يواصل الجهود لاستعداء الدول على فرنسا المتحررة ، فلم يكن لهذه الجهود من أثر سوى ان عجلت بالنهاية ٠٠ اذ حدث أن أصدر « دوق برونزويك » انذارا الى الحرس الوطنى الفرنسى اذا تعرضت سلامة الملك والملكة لاى سوء ! فأهاج ذلك الشعب الثائر ، واذا جموعه تقتحم « التويلرى » فى ٢٠ يوليو سنة ١٧٩١ وتوسع الملك والملكة اهانة ٠٠ ثم تعيد الكرة فى ١٠ أغسطس ، وتعمل فى الحرس ذبحا وتقتيلا ! ٠٠ وكان من جراء ذلك ان نقلت الاسرة المالكة الى سجن « التامبل » ، حيث خصص للملك جناحا ، وللملكة وبقية الاسرة جناحا آخر ٠٠

وقضى الملك فى سجنه ستة عشر شهرا٠٠ وفى ١٠ ديسمبر ،

رفع قرار اتهامه الى المؤتمر ، فقرر دعوته الى المثول أمامه فى اليوم التالى ٠٠ وهكذا بدأت محاكمة « لويس السادس عشر » ـ التى تقرأ تفصيلاتها فى مكان آخر من هذا العدد ـ وفى عصر يوم ٢٠ ديسمبر تلى عليه فى سجنه حكم المؤتمر الوطنى باعدامه !

وفى الساعة الثامنة والنصف من ذلك المساء ، دعى أفراد أسرته الى لقائه ، فألقت « مارى انطوانيت » بنفسها عند قدميه باكية ، بينما أغمى على ابنته « مارى تيريز » بين ذراعيه ٠٠ وراح ولى عهده يبكى بصوت عال يقطع نياط القلوب ٠٠

وأعدم لويس فى الصباح التالى !

تأبى الفرار دون ولديها ٠٠

◆ **وساد** الاسى أفراد الاسرة بعد مصرع عاهلهم ٠٠ ومع ذلك فقد ظل أنصار الملكية يحاولون تباعا تدبير المؤمرات لانقاذهم ٠٠ ولكنها كانت مؤامرات تنتهى بالفشل وبزيادة احكام الحراسة عليهم ! ٠٠ وذات مرة عرضت للملكة فرصا للفرار، على أن تنطلق وحدها ، فأبت أن تترك ولديها ٠٠

وفى ٣ يوليو سنة ١٧٩٣ أعلنت بقرار « لجنة السلام » القاضى بفصلها عن ولدها ولى العهد ! ٠٠ وتشبثت الام بطفلها، وقاومت الحراس فى قوة وعنف ، ولكنهم استطاعوا أن ينتزعوه منها وهى تبكى أمر البكاء ٠٠ ثم قضت الثمانية والعشرين يوما التالية فى حزن عاصف ٠٠ حتى اذا كان يوم أول أغسطس ، نقلت الى سجن « الكونسييرجيرى » ، حيث أنـزلت زنزانة رطبة مظلمة ، وعوملت كأحقر سجينة !

ومر أربعة وستون يوما دب خلالها الهزال والسقام الى كيانها، واستحال شعرها الى كتلة من الشيب الكالح ٠٠ وغدت مثالا حياً للاسى العميق ٠٠ وفى ١٣ أكتوبر أعلنت بقرار الاتهام ، وانتدبت المحكمة اثنين من المحامين للدفاع عنها ، فحاولا أن

يطلبا تأجيل القضية ريثما يطلعان على ملفها الضخم ، ولكن المحكمة أبت !

◆ **واستطاعت** مارى انطوانيت أن تحتفظ بجلدهـا ، وهى تجلس أمام القضاة الذين كان مصيرها بأيديهم ، بعد أن كانت مصائر الناس يوما بين يديها تصرفها وفقا لاهوائها ونزواتها ! ·· وكانت الاسئلة التى وجهت اليها واضحة الهدف ·· كانت ترمى الى الامعان فى الزراية بها ، واهانتها ·· سئلت :

ـ هل أنت التى علمت « لويس كابيه » ـ السادس عشر ـ الرياء الذى مكنه من خداع الشعب ؟

فأجابت : « لم يكن زوجى ـ ولا أنا ـ الذى خدع الشعب ·· انما خدعه من كانت لهم فى الخداع مصلحة ·· »

ـ وهل أنت التى نصحت « لويس كابيه » بالفرار من فرنسا؟

ـ انه لم يبغ الفرار من فرنسا قط ·· انما كان غرضه أن يحصل على الحرية التى حرمها هنا ، وان يوفق بين الاحزاب لحفظ سلام فرنسا وهنائها ··

واستمرت المحاكمة الى حوالى الفجر ·· ثم صدر الحكم باعدام الملكة !

الموت للنمسوية !

◆ **وفى** الساعة العاشرة من صباح ٥ أكتوبر ، أوثق الجلاد يديها ، وقص الشعر الذى كان يوما ذهبيا يبهر الابصار ·· ثم اقتيدت الى عربة مكشوفة قضى عليها أن تجلس فوقها وظهرها الى الجواد ·· وسارت بها العربة وسط الجموع التى كانت تهتف : « الموت للنمسوية ! »

وصعدت الملكة سلم المقصلة حين انتهت اليها ، فجثت برهة تصلى ، ثم أسلمت رأسها للجلاد وهى تتمتم : « وداعا ياولدى ·· فسألحق بأبيكما ! »

وهكذا ماتت الملكة التى كان خليقا بها أن تكون صالحة لولا

ان ألقت بها الاقدار فى بلاط كان ينضح بالفساد والفجور ، مما أيقظ طيشها ونزقها فاندفعت فيهما لا تعرف حدا ، واستهترت بكل شيء ، حتى أقدار شعبها ٠٠ واشعلت بتصرفاتها ومسلكها وتهورها نار الثورة ، فاذا بها تغدو وقودا لها !

شعبه يفتك به !

◆ **أما** « فيرسن » فبقى يعانى غصة الحسرة ، ومرارة الاسى ٠٠ وحده !

ولقد عطف عليه « جوستاف الرابع » ، واتخذه وزيرا ، ولكنه لم يلبث أن أقصى عن العرش ، ولقى العنت من « دوق سندرمانيا » الذى اغتصب التاج ٠٠ وانتهى الاضطهاد بأن اتهم المسكين – الذى حطمته الهموم – بتدبير مؤامرة أودت بحياة ابن الدوق !٠٠ **وأثيرت الجماهير عليه ففتكت به فى الطريق ذات يوم ! ٠٠ وكان من سخرية القدر ان لقى مصرعه بأيدى قومه فى يوم الذكرى التاسعة عشرة لقيادته العربة التى أقل فيها الاسرة المالكة الفرنسية فى محاولتها الفرار من باريس !**

ولو ٠٠ !

◆ **تلقى** الفيلسوف الساخر « برنارد شو » ذات يوم دعوة من امرأة كانت تطارده ، تقول فيها : « ليدى (٠٠٠) سوف تكون فى منزلها مساء الخميس بين الساعة الرابعة والساعة السادسة » ٠

فما كان من « شو » الا أن رد اليها بطاقة الدعوة وقد كتب عليها تحت العبارة السالفة : « وكذلك سوف يكون مستر برنارد شو أيضا ! » – يقصد انه سوف يكون فى منزله هو !

دهاء عراف !

◆ **فى** عهد ملك فرنسا « لويس الحادى عشر » تنبأ عراف بموت امرأة كان الملك متيما فى هواها ٠٠ وماتت المرأة فعلا بعد أيام قليلة ٠٠ فاعتقد الملك ان نبوءة العراف هى السبب فى موت معشوقته ، واشتد حنقه عليه حتى لقد صمم على الانتقام منه بالقائه من نافذة القصر ٠ وأرسل يستدعيه لهذا الغرض ٠٠ فلما مثل فى حضرته أراد اختبار مدى براعة الرجل فى التنجيم ، فقال له : « أنت تدعى انك عراف تقرأ الغيب ، فهل تستطيع أن تتنبأ بمصيرك ؟ »

فأدرك العراف نوايا الملك نحوه ، واذ ذاك أسعفته بديهته بهذا الجواب : « مولاى ، أرى فى الغيب اننى سأموت قبل جلالتك بثلاثة أيام ! »

فصدق الملك النبوءة ، وعدل عن قتل العراف ٠٠ بل صار منذ ذلك اليوم شديد الحرص على حياته !

سرعة خاطر !

◆ **كان** المليونير « مارك هانا » متجها الى غرفة مكتبه ذات يوم ، حين سمع شابا من موظفيه يقول انه يتمنى لو كانت له ثروة « هانا » وكان « هانا » نفسه نزيل أحد ملاجئ الفقراء !

فلم يكد المليونير يصل الى غرفته حتى استدعى اليه الشاب المذكور وصارحه بأنه سمع عبارته ، ثم أردف ساخرا : « افرض ان رغبتك تحققت فكانت لك ثروتى وكنت أنا فقيرا فى ملجأ ٠٠ ماذا كنت تفعل ؟»

وعندئذ أجابه الشاب على الفور ببديهة حاضرة : « أعتقد ان أول ما كنت أفعله أن أخرجك من الملجأ ! »

فسر المليونير من جوابه وكافأه بزيادة مرتبه !

الجريمة.. والعقاب



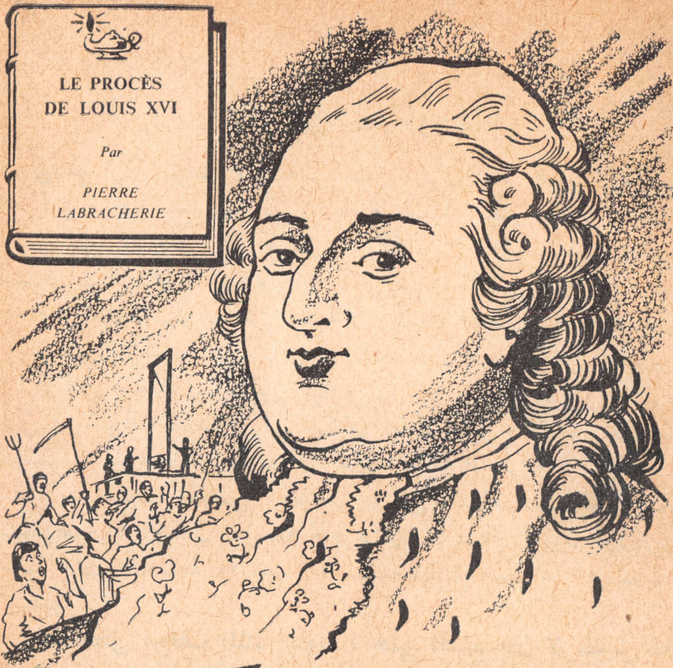
المحاكمات الكبرى
فى الماضى والحاضر

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى الاعداد السابقة من كتابى طائفة من القضايا والمحاكمات الهامة ، هى على التوالى : محاكمة «جورجيت هودو» ملكة الجمال الباريسية .. فمحاكمة السفاحين «بيرك» و «هير» .. ثم محاكمة فيلسوف اليونان العظيم «سقراط» .. ومحاكمة «آن بولين» ملكة انجلترا فى عهد هنرى الثامن فمحاكمة «دريفوس» .. ومحاكمة «ستافسكى» .. ثم محاكمة «مرجريت فهمى» .. واخيرا محاكمة «قاتل راسبوتين»

وفى «كتابى» التاسع قدمت لك محاكمة ملك انجلترا «شارل الاول» واعدامه .. واليوم اقدم لك محاكمة ملك فرنسا «لويس السادس عشر» واعدامه - بعد أن قرأت فى الصفحات السابقة من هذا العدد قصة اعدام زوجته «مارى نطوانيت»

وفى الاعداد القادمة تقرأ معى باذن الله فى هذا الباب مجموعة منوعة من القضايا والمحاكمات الكبرى التى احدثت دويا ، سواء فى الشرق أو الغرب ، ومنها : محاكمة «فلورنس ماى بريك» - وهى المحاكمة التى تعتبر سبة فى جبين القضاء الانجليزى .. ومحاكمة «الكابتن كيد» .. ثم مجموعة شائقة من المحاكمات الجنائية الاخرى التى لمع فيها نجم المحامى العالمى «مارشال هول» .. وعشرات غيرها



مصرع الملكية

في فرنسا

ومحاكمة لويس السادس عشر

للمحقق المؤرخ "پيير لابراشيرى"

دفع ثمن أخطاء زوجته !

◆ **لو** ان « لويس السادس عشر » نزل عند رغبات الشعب الفرنسى ، ووضع ثقته فى زعماء الجمعية التشريعية ، وراض نفسه على أن يكفر عن مساوىء الملكية ٠٠ المساوىء التى استفحلت فى عهد جده وسلفه « لويس الخامس عشر » ٠٠ لو انه فعل ذلك ، لوجد من شعبه استعدادا للعطف٠٠ ولكنه كان يعيش فى بلاط فاسد ، فاجر ، أعمت مباذله عينيه عن الحقائق ٠٠ وكان ضعيفا ، اسلس قياده لزوجته « مارى انطوانيت » التى استمرأت التدخل فى شئون الحكم بروح المرأة المعتدة بنفسها ، المزهوة بسلطانها ، الغرة القليلة التجربة ٠٠ وكانت مشورتها سبب نكوص « لويس » عن التفاهم مع الجمعية التشريعية ٠٠ وكان نصحها حافزه على الاتصال بملوك أوربا ، طالبا منهم الحماية والنجدة ، مستعديا اياهم على فرنسا وشعبها !

واستفحل موقف الملك سوءا ، حتى اقتنع بأن لا سبيل له الا الفرار ٠٠ وفشلت محاولة الفرار ، فكان ذلك حافزا للجمهوريين على مضاعفة جهودهم فى السعى لخلع الملك ٠٠ ومع ان مسعاهم لم ينجح لتوه ، الا أن مركز الملكية كان قد تداعى فعلا ، وأصبح الملك وأسرته عرضة للاهانات والتحقير ٠٠ وتكرر هجوم الشعب الثائر على قصر « التويلرى » ، حتى اضطر « لويس » وأسرته الى اللجوء الى حماية الجمعية التشريعية ، وانتهى بهم المطاف الى سجن « التامبل » فى ١٣ أغسطس سنة ١٧٩٢ ٠

واشتد ساعد الجمهوريين بعد مذابح سبتمبر – التى قضوا فيها على أنصار الملكية المنهارة – فلم يأت ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢

حتى أعلن « المؤتمر الوطنى » عزل « لويس السادس عشر » عن العرش ٠٠ وأعقبه فى اليوم التالى باعلان الجمهورية ٠

المتطرفون يفضلون قتل الملك بغير محاكمة !

◆ **ومع** ذلك ، فان أنصار الملك لم يكفوا طيلة الوقت عن تدبير الخطط والمؤامرات لتمكينه من الفرار ٠٠ ولم يتحول هو عن مجاراتهم ، مما أدى الى تشديد الحراسة عليه وعلى أسرته ٠٠ والى انبعاث الدعوة الى محاكمته ! واستندت الدعوة الى ان ابقائه سجينا يبقى على الامل فى نفوس معاونيه والملكيين الذين هاجروا الى الخارج، مما يساعد على المضى فى تدبير المؤامرات ٠٠ ولو انه نفى ، لمكنه الانطلاق فى الخارج من أن يجمع صفوف أنصاره ، وان يستمد العون من ملوك أوربا!

وكان قتله هو الحل الصائب الذى خلص اليه الجمهوريون المتطرفون ٠٠ ولكن المعتدلين أبوا ان يدمغوا الثورة بوصمة تلطخ صفحتها ، ومن هنا ظهرت الدعوة الى محاكمة الملك ٠٠ وأثارت الدعوة نقاشا فقهيا حادا بين المعتدلين والمتطرفين ٠٠ اذ قال الاولون ان دستور ١٧٩١ - أول ثمار الثورة - نص على حصانة ذات الملك ، ومن ثم فاذا خان الملك أمته أو تآمر مع العدو على سلامتها جاز خلعه وحسب ٠٠ وهذا ما تحقق فعلا ٠٠

وقال الفريق الثانى : ان الامة مصدر السلطات ، وارادتها هى الدستور النافذ ٠٠ وان حصانة ذات الملك لا تظل قائمة اذ لجأ الملك الى الاعمال السرية والتآمر مع الاعداء ضد سلامة الوطن ٠٠ وان الملك الذى يخون ثقة بلاده، ويضحى بمصالحها، ويستعدى الاجانب عليها ، ويستعين بأعدائها على غزوها ، لا يجب أن يكتفى بعزله وتركه طليقا ، والا تابع مكائده ولم يرعو ، اطمئنانا الى ٠٠ « حصانته » !

واذ طال الجدال ، قفز « روبسبير » الى المنبر ، ليصيح صيحته الخالدة : « **مالنا والمحاكمة ٠٠ انكم لستم قضاة ككل**

القضاة ، ولاهذا المجلس بمحكمة ككل المحاكم ، ولا « لويس كابيه » بمتهم ككل المتهمين ·· ولن تكونوا أبدا سوى ساسة دعوا لا لمحاكمة رجل والحكم عليه أو له ، ولكنكم تدعون الى اتخاذ اجراء قومي فى سبيل السلامة العامة ، ودرء الخطر عن الوطن ·· فمن شاء منكم أن يتنحى عن هذه المهمة السامية ، وينكر حق وطنه عليه ، فليرفع رأسه لنراه ! »

وكان «روبسبير» يخشى أن يؤدى أى ابطاء الى انعـاش نشاط الملكيين ، ومن ثم صرخ فى زملائه : « يجب أن يموت « لويس » ليعيش الوطن » !

ترجيح كفة المحاكمة ··

◆ **وانتهى** الجدل الى تقرير محاكمة « لويس السادس عشر » أمام المؤتمر الوطنى ، على أن تحدد الاتهامات التى توجه اليه ، ويسمح له بالدفاع عن نفسه والاستعانة بمحامين ثم يصـدر المؤتمر حكمه بالتصويت العلنى ··

وفى العاشر من ديسمبر ، قرىء على المؤتمر تقرير الاتهام ، المبين لجرائم « لويس كابيه » ، فتقررت دعوته للمثول أمـام المؤتمر فى اليوم التالى ··

وتسربت الانباء الى الاسرة المالكة السجينة ، فخيم عليها وجوم ثقيل كئيب فى باكورة يوم ١١ ديسمبر ، ولقى الملك وزوجته وأخته عنتا فى كتمان مشاعرهم عندما اجتمعوا حول مائدة الفطور بمرأى من حراسهم ، واكتفوا بالنظرات يتبادلون بها حديثا حزينا صامتا ·· حتى اذا كانت الساعة الحادية عشرة من ذلك الصباح ــ وكان الملك قد عاد الى الجناح الذى خصص له ، وجلس يلعب مع ولى عهده ــ أقبل اثنان من الحراس ، فانتزعا ولى العهد منه وحملاه الى أمه·· وسألهما «لويس» عن الداعى لذلك ، فاكتفيا بأن أجابا بأنهما ينفذان أوامر صدرت اليهما !

وفى الساعة الواحدة بعد الظهر ، أقبل « شامبون » ــ حاكم باريس ــ فقرأ عليه قرار دعوته الى المثول أمام المؤتمر الوطنى لمحاكمته ٠٠ ولم يبد « لويس » أى انفعال أو ارتياع ، وكأنما أراد أن يؤكد ثباته ، فتغافل عن خطورة الموقف ، ليتشبث بمسائل تافهة ٠٠ كاحتجاجه مثلا بأن الامر لم يكن يستدعى أن يحرمه الحراس من ابنه قبل وصول الحاكم بأمد طويل ، وبأنه لا يدعى « لويس كابيه » وان كان « كابيه » اسم أحد أجداده ٠٠

مثول الملك أمام محكمة المؤتمر الوطنى

◆ **ولبى** « لويس » دعوة المؤتمر فورا ، فاستقل عربة حاكم المدينة ــ فى رفقة الحاكم وقائد الحرس الاهلى ــ وانطلقت العربة يحيط بها الفرسان والجنود المجهزون بالمدافع ، تحت المطر الذى أخذ يتساقط فى تلك الاثناء ٠٠ حتى اذا بلغت مقصدها اقتاد « سانتير » ــ رئيس الحرس ــ الملك المتهم الى المكان الذى أعد له ٠٠

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر ٠٠ وبدا «لويس» شاحب الوجه ، شديد الهزال ، حتى لقد تهدلت ملابسه على جسده ٠٠ وما ان اتخذ مجلسه ، بدعوة من رئيس الجلسة ، حتى تلى عليه قرار الاتهام ٠٠ وكان أهم ما تضمنه :

- **انه رفض التصديق على وثيقة حقوق الانسان وعلى الدستور**
- **انه نكث بما عاهد الامة عليه ٠٠**
- **انه تآمر مع بعض النواب ــ ومنهم « ميرابو » ــ على احباط الثورة والتنكيل برجالها ٠٠ وعمد فى سبيل ذلك الى رشوة عدد من النواب !**
- **انه حاول الفرار من فرنسا ليدبر العدة لغزوها بجيوش أجنبية ٠٠**
- **انه كان على اتصال وتراسل مع رؤساء الدول الاجنبية**

والامراء الذين فروا من الخارج ، يتآمر واياهم على الاعتداء على سلامة الدولة ونظام الحكم الذى أقرته ..

◆ انه عمل على اراقة دم الشعب فى مذابح ١٠ أغسطس ..

وكان كلما تلى اتهام ، سئل عنه فأنكره أو ألقى المسئولية على وزرائه ، أو تعلل بما كان الدستور القديم يتيحه له من سلطات ..

وسئل: لماذا حاصرت الجمعية الوطنية بالجنود في ٢٣ يونيو سنة ١٧٨٩ وسعيت الى املاء قوانين معينة على الامة ؟

فأجاب : لم تكن ثمة قوانين عملت على فرضها..ولقد أمرت الجنود بالتحرك ولكننى لم أبغ اراقة الدم ..

يشتهى لقمة خبز !

◆ **وكان** « جامان » ـ الحداد الذى كان يستعين به فى ممارسة هوايته لاعمال الحدادة ـ قد أرشد وزير الداخلية ، فى ١٠ أغسطس ، الى درج حديدى سرى صنعه الملك وأخفاه فى جدار حجرته الخاصة بقصر « التويلرى » ، بعد ان أودع فيه الخطابات التى تشى بما كان يدبره مع النواب المناصرين له وبعض رجال الدين ، وبما كان يقدم من رشوة لمؤيديه فى الجمعية الوطنية .. فعرضت عليه هذه الوثائق ، ولكنه أنكرها فى اصرار أحدث أثرا سيئا على أعضاء المؤتمر ..

وسئل بعد ذلك عما اذا كان لديه ما يقوله ، فأجاب بأنه يرجو موافاته بنسخة من قرار الاتهام ، وبأن تعين هيئة للدفاع عنه ..

وأخرج من القاعة ريثما تداول الاعضاء ، في مناقشة عاصفة، ثم انتهوا الى تقرير السماح له بحق الاستعانة بمحامين للدفاع يختارهم بنفسه ..

وكانت الساعة قد بلغت الخامسة .. وسأل الحاكم «لويس» عما اذا كان يحب أن يتناول طعاما أو شرابا ، فرفض .. ولكنه

بعد لحظة رأى « شوميت » ـ نائب حكومة العاصمة ـ يلتهم قطعة من الخبز ، فاقترب منه ، وتمتم له ببضع كلمات ، صاح « شوميت » على أثرها :

ـ اسأل ما تريد بصوت مرتفع ياسيدى ..

ـ انما أسألك قطعة من خبزك !

ـ حبا وكرامة .. انه غذاء متقشف ، فاقتطع لنفسك نصيبا، ولو كان معى غموس لاعطيتك نصفه !

وفى طريق العودة ، راح الملك يقضم الطبقة الخارجية من قطعة الخبز .. وكان لب الرغيف صلبا ـ على ما يبدو ـ اذ لم يلبث « شوميت » أن ألقى ما تبقى معه من العربة ، فقال له الملك :

ـ لا يحسن القاء الخبز هكذا ، لا سيما فى الاوقات التى يعز فيها وجوده

فسأله شوميت : « ومن أدراك انه نادر ؟ »

ـ لاننى أشعر بمذاق التراب فى القطعة التى آكلها ..

وسرح « شوميت » بصره من نافذة العربة لحظة ، ثم قال :

ـ كانت جدتى لا تنفك تقول لى : « لا تفرط فى لقمة من الخبز أيها الولد الصغير ، فلست تدرى ماذا يكون فى غدك ! »

ـ يبدو لى يامسيو « شوميت » ان جدتك كانت امرأة واسعة العقل ..

منع الملك من رؤية أسرته !

ووصل الملك الى سجنه فى منتصف الساعة السابعة ، وقد تملكه الهم والاعياء .. ومع ذلك فقد طلب فور وصوله أن يرى أفراد أسرته ، ولكن الاوامر كانت قد صدرت دون ذلك ، فاحتج على هذه الاوامر فى الحاح .. حتى اذا تهيأ للنوم فى ذلك المساء ، قال لـ « كليرى » ـ الذى كان قائما على خدمته فى السجن :

ـ لقد شرد فكرى عن تدبر كل الاسئلة التى ألقيت على ـ فى غمرة الذهول الذى اعترانى ـ حتى اننى أنكرت خط يدى !

وكأنما أراحه هذا الاعتراف ، فنام نوما عميقا ..

الملك يكتب وصيته !

◆ **وقع** اختيار الملك على اثنين من خيرة المحامين هما « تارجيه » و « ترونشيه » .. ولكن أولهما تعلل بمرضه واعتزاله العمل ، فتطوع « لاموانيون دومالزيربه » ـ وكان وزيرا سابقا فى الثانية والسبعين من عمره ـ بأن يحل محله ، مع أنه كان قد اعتزل الحياة العملية وركن الى عزلة فى الريف يقضى أيامه فى دراسات فلسفية .. وكان مرح النفس ، شديد الدهاء ، طيب القلب ، كما انه كان من كبار المتبحرين فى القانون ، ومع ان الملك حاول ان يصده شاكرا ، قائلا له ان تضحيته هذه : « سوف تعرض حياتك للخطر ، دون ان تنقذ حياتى ! » ، الا أنه أصر مع ذلك على تطوعه .. واختار الملك الى جانب هذين المحاميين محاميا نابها من الشبان اسمه « ريمون دوسيز » .

واعتاد المحامون الثلاثة ان يجتمعوا بالملك حول مائدة كبيرة فى سجنه ، فيتدارسون الاتهامات ويتدبرون أسلوب الدفاع .. وأعد « دوسيز » مرافعة خطابية قوية ، روع لها « ترونشيه » فأشار عليه بتعديلها قائلا : « أو تريد أن نغتال جميعا فى المحكمة ؟ »

وفى اليوم الخامس والعشرين من ديسمبر أخطر « دوسيز » المؤتمر بأنه قد أعد مرافعته ، فحدد له اليوم التالى لالقائها .. وفى تلك الليلة ، عمد الملك الى كتابة وصيته فى أسلوب مؤثر ، متواضع : « **أوصى ابنى ـ اذا قدر له نكد الحظ أن يغدو ملكا ـ بأن يحرص على أن يكرس حياته بأسرها لسعادة مواطنيه ، وبأن ينسى كل سخيمة وكل ضغينة ، وأن يصفح عن كل من ساهم فى الاساءات والاحزان التى حاقت بى** » .. حتى اذا فرغ من

كتابة الوصية التفت الى (مالزيرب) قائلا : « لقد دبرت أمورى التافهة ، فليفعلوا بى الآن كيفما شاءوا ٠٠ »

مرافعة الدفاع ٠٠

◆ وقدر لليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر أن يحتل مكانا بارزا من تاريخ فرنسا ـ بل من تاريخ الملكية فى العالم ـ اذ فيه مثل « لويس السادس عشر » أمام المؤتمر ، محوطا بمحاكميه ، وحاكم باريس ، وقائد الحرس الاهلى ٠٠

وقال « فيرمون » ـ رئيس اللجنة ـ يخاطبه : «لقد قرر المؤتمر يالويس ان يستمع الى دفاعك اليوم ، دون تأجيل » ٠٠ ثم نهض « دوسيز » فبدأ يلقى مرافعته فى لهجة متئدة وصوت مهيب ، وقضى ساعتين وهو يضرب على نغمة مسئولية الوزراء وحصانة الملك ، والحضور ينصتون فى صمت شامل ٠٠ فقد شاء المؤتمر أن يكفل للمحاكمة طابع القضاء وقدسية حق المتهم فى الدفاع عن نفسه ، حتى ان أحدا من الاعضاء لم يشأ أن يقاطع « دوسيز » حين عنف فى تفنيده للاتهامات ، وفى مهاجمته لاعضاء المجلس ، فصاح فى وجوههم : « اننى أفتقد فيكم قضاة فلا أجد الا خصوما » ٠٠٠ حتى اذا انتهى من دحض الاتهامات ، قال : « **أيها المواطنون ٠٠ اننى أترك لكم الكلمة الاخيرة ، وأشهد التاريخ عليكم ، فأذكروا انه سيحكم على قضائكم ٠٠ ولسوف يكون حكمه حكم القرون** » !

وسئل « لويس » ان كان لديه ما يقول ، فوقف يقرأ كلمة مكتوبة ـ لعل محاميه أعدها له من قبل ! ـ أكد فيها انه لم يبغ قط أن يريق دماء الشعب ، وانه غير مسئول عن مذابح ١٠ أغسطس ـ (يوم هاجم الثوار قصر « التويلرى » واضطر الملك الى أن يلجأ الى حمى الجمعية التشريعية) ـ ثم اختتمها قائلا : « **اننى اذ أخاطبكم ـ وربما للمرة الاخيرة ـ أعلن لكم ان ضميرى لا يؤنبنى البتة ، وان محامى لم يقولوا الا الحق** »

وساد القاعة صمت رهيب ٠٠ وسمح للويس بأن يعود الى سجنه ٠٠ وما ان غادر المكان ، حتى قامت مناقشة عاصفة أشاعت الهرج والصخب فى المؤتمر : اذ نهض « دوهيم » يطالب باصدار الحكم فورا ، فاذا بعض الذين تأثروا بالمرافعة ، وبعض الذى بقوا على ولاء للملك ، وفريق ممن توهموا فى أنفسهم المثالية ، يحاولون الطعن فى المحاكمة ، وفى حق المؤتمر فى أن يتولاها ٠٠ وانقلب الاعضاء يتبادلون الاتهامات ويرمى بعضهم بعضا بالخيانة والظلم !

من المجرم : الملك أم الشعب ؟

ودام الهياج ساعة ، ثم انتهى الى تقرير الاستمرار فى نظر القضية ٠٠ حتى اذا كان اليوم التالى ، عاد الجدال أشد مما كان ٠٠ وحمل «سان جوست» على المدافعين عن لويس السادس عشر ، ثم ختم حملته صائحا :

« **أيها المواطنون ٠٠ ماينبغى ان يغركم اليوم ما يبديه طاغية الامس من تواضع ٠٠ ثم ، فيم هذا الجدال الطويل وقد قضت الامة فى الامر ؟ ٠٠ لقد أعلنتم حربا على طغاة العالم ، أفتراكم تبغون بعد ذلك انقاذ طاغيتكم ؟ ٠٠ ليس أمامكم الا أن تختاروا أحد أمرين : اما ان الشعب على حق والملك مذنب ، واما ان الملك برىء والشعب هو المجرم !** »

وحاول « الجيروندبون » ـ أنصار الملك ـ أن يجدوا ثغرة جديدة ، فطالبوا بالاحتكام الى الشعب ، واذ ذاك صاح « روبسبيير » : « احملوا القرار الى أربعة وأربعين ألف محكمة، ان شئتم ، فان هذا كفيل بأن يجعل كل دائرة حلبة للنزاع والخلاف، وربما ميدانا للقتال٠٠ ان الجمهورية معرضة للهلاك»!

◆ **واستمر** النقاش حتى اليوم الثلاثين من ديسمبر ، حين أقبل على قاعة الاجتماع موكب من أرامل ويتامى ضحايا يوم ١٠ أغسطس ، يطالبون بالانتقام ! ٠٠ فلما كان اليوم التالى ،

عمد دعاة الاحتكام الى الشعب ، الى ارهاب المؤتمر بالزعم ان اعدام الملك كفيل بأن يؤلب دول أوربا على فرنسا ، وان يثير صراعا دمويا طويلا لن يصيب فرنسا الا بالضرر ، حتى اذا كانت هي الظافرة فيه ٠٠ وصاح « فيرينيو » في معارضيه : « ثقوا ان فرنسا لن تكون في غمرة الانتصارات الا كتلك الاثار الشهيرة التي غالبت الزمن في مصر ٠٠ فان الغريب الذي يمر بها يذهل لروعتها وجلالها ، ولو انه نفذ الى جوفها ، فماذا ترونه واجدا ؟ ٠٠ مومياوات جامدة ، وصمت القبور ٠٠ ! »

عشرة أيام ٠٠ لاصدار الحكم

◆ **وانتهى** الخلاف في ٤ يناير سنة ١٧٩٣ بأن قرر المؤتمر وضع ثلاثة أسئلة تؤخذ آراء الاعضاء بشأنها بعد عشرة أيام ٠٠ وصيغت الاسئلة كما يلي :

١ ـ هل يدان «لويس» بتهمة التآمر على حرية الامة والاعتداء على السلامة العامة للدولة ؟

٢ ـ هل يعرض الحكم ـ كيفما كان ـ على الشعب ليصدق عليه ؟

٣ ـ ما هي العقوبة التي يقضى بها ؟

واجتمع المؤتمر في ١٤ يناير ، ففتح باب النقاش حول السؤال الاول ، واذا بجدال صاخب ، عقيم ، ارتفعت فيه الاصوات يخالطها الضجيج المتسرب من الشارع ٠٠ وانقلبت قاعة الاجتماع الى حلبة لتقاذف الاتهامات والسباب ٠٠ وحمل أنصار الملك على المطالبين باعدامه ، طاعنين في حياتهم الخاصة وسيرتهم الشخصية ! ٠٠ بينما أمعن هؤلاء في اتهام «لويس السادس عشر» بالخيانة العظمى ، قائلين ان « الملك » غدا رمزا للدنيا القديمة التي دال عهدها ، وانه آخر عقبة في سبيل تحقيق الدولة المثالية ٠٠

ثم تحول الجدل الى نسبة الاغلبية المطلوب توفرها لنفاذ

الحكم ، فطالب البعض بأن تكون الثلثين - كما فى المحاكم الجنائية - وطالب آخرون بأن تكون النصف زائدا واحدا ٠٠ وقد أقر المؤتمر هذا الرأى الاخير ، فأخذت الاصوات على أساسه بصدد السؤال الاول ، واذا ٦٨٣ - من ٧٤٩ - يصوتون بالايجاب ٠٠ فأعلن « فيرينيو » النتيجة قائلا :

« باسم الشعب الفرنسى يعلن المؤتمر الوطنى أن لويس كابيه مذنب ، أدين بخيانة حرية الامة والاعتداء على السلامة العامة للدولة »

وفى اليوم التالى ، أخذت الاصوات عن السؤال الثانى ، فرفضت فكرة استفتاء الشعب فى الحكم بأغلبية ٤٢٤ صوتا ضد ٢٨٣ صوتا ، وامتنع حوالى ٤٠ عن الادلاء بأصواتهم ٠٠

أما السؤال الثالث ، فقد عرض فى يوم ١٦ يناير فى جو مكفهر ، اذ سادت حمى الانفعال باريس بأسرها فى الليلة السابقة ، وراجت الاشاعات ، وسارت المظاهرات ، وأعلنت حالة الطوارىء حين أقبلت الجموع على مبنى المؤتمر ٠٠

الحكم !

وبدأ الاعضاء يتوافدون واحدا بعد الآخر منذ الساعة الثامنة من المساء ٠٠ ونوديت الاسماء ، فاذا الاغلبية تقضى باعدام « لويس » !
٠٠ ورأى البعض أن ينفذ الحكم خلال أربع وعشرين ساعة ٠٠ بينما طالب البعض بفتح باب المناقشة فى وقف التنفيذ ٠٠ ورأى فريق ثالث ان يكون الاعدام مشروطا بوقوع أى غزو أجنبى على فرنسا ٠٠ ولكن الاغلبية المطلقة لم تدع مجالا لاى شرط أو وقف للتنفيذ !

وحدث خلال التصويت ان تقدم وزير الخارجية فقرأ على المؤتمر خطابا من سفير أسبانيا يعرض فيه وساطة « مولاه الملك » بين المؤتمر الوطنى ولويس السادس عشر ، فرفض الاعضاء فى اباء ان ينظروا فى هذه الرسالة ، وصاح « دانتون »

فى غضب : « ماذا يبغى هذا الرجل منا ؟ ٠٠ لاشأن لنا به ولا بمولاه ٠٠ اذا كنا نقتل لويس السادس عشر ، فنحن بالاحرى لا نقبل أن نطيع ملك أسبانيا ! »

محاولة ارجاء التنفيذ ٠٠

◆ **ورفض** المؤتمر أن يستمع الى محامى الملك الذين التمسوا أن يؤذن لهم بالكلام قبل اعلان نتيجة التصويت ٠٠ فلما أعلنت النتيجة قدموا خطابا من الملك يؤكد فيه براءته ويطلب الاحتكام الى الامة ٠٠ ورفض المؤتمر هذا الطلب ، كما رفض السماح باستئناف الحكم ٠٠

على ان المحامين ظلوا يتعلقون ببقية من الامل ، تمثلت فى محاولة ارجاء تنفيذ الحكم ٠٠ فلما عرض الامر على المؤتمر فى ١٨ يناير ، صاح « روبسبيير » : « ماذا ؟ ٠٠ أتصدرون الحكم بموت المذنب ، ثم تريدون ان تطيلوا عذابه ؟ ٠٠ لا ٠٠ لقد كنتم تسعون دائما لانقاذه ، وهذه محاولة أخرى لكم ٠٠ »

وطال النقاش والجدل من جديد ٠٠ وفى الساعة الثالثة من صباح ٢٠ يناير ، قضى المؤتمر برفض التأجيل ، بأغلبية ٣٨٠ صوتا ضد ٣١٠



وفى عصر اليوم ذاته ، تلى « جارا » ــ وزير العدل ــ نص الحكم على لويس السادس عشر فى سجنه ٠٠ وسمح له المؤتمر ــ بناء على طلبه ــ بأن يرى أسرته قبل اعدامه ، وان يجتمع بقس اختاره ليتم على يده واجباته الدينية ٠٠

وفى منتصف الساعة التاسعة، استقبل أفراد أسرته ٠٠

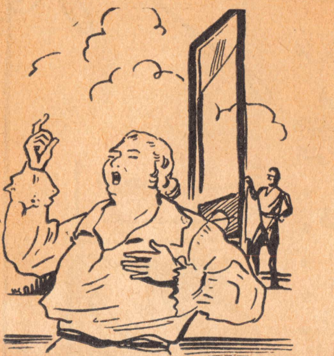
ولبث يتحدث الى زوجته وشقيقته زهاء ساعتين ، وهو يحتضن ابنته وابنه ٠٠ وكانت شهقات البكاء وصراخ الامير الصغير تطغى على كل شيء ٠٠ حتى اذا أذنت ساعة الفراق ، عانق لويس أفراد أسرته ، وقال لابنه : « أوصيك بأن لا تسعى للانتقام ! » ٠٠ ثم اختلى بقسيسه حتى منتصف الليل ، وأوى الى فراشه طالبا من خادمه أن يوقظه مع الفجر ٠٠ فلما نهض، خلا الى القس من جديد فى صلاة قصيره ، ثم ترك خاتم زواجه وخصلة من شعره للملكة ، كما ترك الخاتم الذى يحمل توقيعه الملكى لابنه ٠٠

لحظاته الاخيرة !

وكانت الطبول والضوضاء تترامى من الخارج ٠٠ وبعيد الساعة الثامنة اقتيد لويس الى المركبة التى أعدت لحمله الى المقصلة ، وجلس القس الى جانبه ، وفى مقابلهما حارسان ٠٠ وسارت العربة تتقدمها فصائل من الجيش وتحيط بها كوكبة من الحرس الاهلى ٠٠ وكانت الشوارع تزخر بالجماهير الذين سادهم صمت رهيب !

وكانت المقصلة قد أقيمت فى ساحة «ميدان الثورة» الرحبة، وقد أحيطت بالمدافع ـ اذ أشيع أن ثمة مؤامرات لاختطاف « لويس » فى اللحظة الاخيرة ! ـ وبلغ الركب الميدان فى الساعة العاشرة ، فسيق « لويس » الى المنصة مباشرة ٠٠ ولم يكد يصعد اليها حتى عمد الى خلع سترته بنفسه ، وفتح صدر قميصه ليكشف عن نحره ٠٠ كما نزع قبعته وفك شعره وتركه مسترسلا ٠٠ ثم ركع بين يدى القس يتلقى منه البركة ٠٠ واذ حاول الجلادون أن يوثقوا يديه وقدميه ، رفض فى اباء واشمئزاز ، وحاول أن يقاوم بعنف ، لولا أن نصحه القس فاستسلم ٠٠

ثم دعى الى الاقتراب من المقصلة ، فنهض وسار الى حافة المنصة ، ونادى بأعلا صوته طالبا الى قارعى الطبول ان يكفوا



لحظه ٠٠ حتى اذا ساد الصمت، صاح : « اننى أموت بريئا من كل ما نسب الى ٠٠ »

وجذبه الجلاد من ذراعه ، فتلفت الملك ، حتى اذا لم يجد لكلماته صدى فى نفوس الجموع الحاشدة ، فارقه جلده ، وغاض الدم من وجهه« ثم تحول الى الجلاد قائلا : « افعل بى ما تشاء »

واذ هوى النصل على عنقه ، انبعثت منه صيحة مروعة ٠٠ ثم رفع الجلاد الرأس الهاوى من شعره، يعرضه على الشعب٠٠ وغمس بعض الجنود ذؤابات سيوفهم فى الدم المراق، وهم يهتفون : « تحيا الجمهورية » !

فضول النساء ٠٠ فوق كرامتهن !

◆ **قبيل** نظر احدى القضايا « غير الخلقية » أمام محكمة جنايات « ليون » ، لاحظ القاضى ازدحام قاعة الجلسة بالسيدات ٠٠ فقال للنظارة : « لعل الحاضرات يجهلن طبيعة النزاع الذى تدور حوله القضية ٠٠ لذلك أجد من واجبى ان أسأل جميع النساء « المحترمات » أن يغادرن قاعة الجلسة ! »

ورغم ذلك فقد تجاهلت الحاضرات هذا التنبيه فبقين جميعا فى مقاعدهن ! ٠٠ فالتفت القاضى الى الحاجب وقال له آمرا : « أما وقد خرجت الآن جميع النسوة المحترمات ٠٠ فعليك أن « تطرد » الباقيات ! »

قصة الحياة



روائع القصص العالمى

عزيزى القارىء ...

قرات معى فى الاعداد الماضية من «كتابى» ، القصص العالمية الاتية على التوالى :

- أموك : لستيفان زفايج
- قلب عذراء :جون جالزورثى
- مرتفعات وذرنج :اميلى برونتى
- التلميذ : بول بورجيه
- احدب نوتردام: فيكتورهوجو
- جريمة حب : بول بورجيه
- جين اير : شارلوت برونتى
- ايام بومباى الاخيرة : لورد ليتون
- مانون ليسكو : الاب بريفو
- حديقة الله : روبرت هتشنز
- عندما تحقد المرأة : جورج اونيه
- آسيا : ايفان تورجنيف
- كاس تمبرلين: سنكلير لويس
- الشيطان على الارض : برتراند رسل

واليوم اقدم لك فيما يلى هذه القصة الحديثة للكاتب اليونانى المعاصر «سوتيريس باتاتزيس» ، يليها القسم الثالث والاخير من قصة برتراند رسل التى اعجبتك : «الشيطان على الارض»


RED MOON
By
SOTIRIS
PATATZIS
من الأدب اليونانى الحديث
القمر الأحمر!
القصة الفائزة بجائزة "النيويورك هيرالد تريبيون"
للكاتب اليونانى المعاصر: سوتيريس باتاتزيس

- ١ -

◆ **ذهبنا** الى شاطىء البحر فى أصيل أحد أيام الربيع البديعة لنستقبل المعلمة الجديدة لمدرسة القرية ٠٠ وكانت السفينة تلقى مرساها فى عرض البحر ، اذ كانت المياه ضحلة فى ذلك الخليج المهجور الذى كان يمتد عند نهاية قريتنا، فلما لمحنا السفينة تمر برأس الخليج ثم تنحرف عنه ، قفز « ديكاس » الى زورقه (يانا) - الزورق الذى أطلق عليه اسم زوجته ! - وراح يجذف مسرعا فى اتجاه السفينة ٠٠

ولما كان الشاب لم يرحل يوما بعيدا عن القرية ، فقد توقع أن تكون المعلمة من ذوات الكعب العالى والعوينات (النظارات) ، ولكنها بدت نحيلة رقيقة ، ترتدى ثوبا خفيفا من أثواب الربيع، وحذاءين من أحذية « التنس » ، وتضع على رأسها قبعة واسعة من القش المزخرف بالكرز الصناعى ٠٠

وهبطت المعلمة الى قارب « ديكاس » ، ثم اضطجعت ملقية بكل ثقلها على يديها ، بطريقة جعلت ثدييها الصغيرين ينفران الى الامام وكأنهما يوشكان أن يخرقا ثوبها المزركش برسوم الزهور ٠٠ ومالت برأسها الى اليمين قليلا ، وسددت نظراتها الى شاربى « ديكاس » ثم قالت : « انك جميل ! » ٠٠ قالتها فى بساطة ساذجة لا أثر للقحة ولا لليونة أو الرقة فيها ٠٠ وكان وجهها ، الشبيه بوجه طفل صغير ، يرزح تحت اكتئاب يبعث على العجب ، كما كان يتجلى فى أغوار عينيها الرماديتين أسى لا حد له ٠٠!

أجل ٠٠ كانت معلمتنا مخلوقة غريبة !

أما « ديكاس » فما خطر له قط أن امرأة تجسر على أن تقول هذا الذي قالته لرجل ،فقد كنا في قريتنا نعتقد أن الكلمات

الشبيهة ب « جميل » لا تستعمل الا عند الحديث عن النساء ، أو الزوارق ، أو اناث الخيل! •• لذلك ظل برهة يراجع مجدافه فى الهواء ، ثم قال لها فى غضب :

ـ اسمعى أيتها السيدة •• اننى رجل متزوج !

فابتسمت ، وهزت كتفها فى غير اكتراث وقالت : « ماسألتك فى هذا ! » •• أما هو فتهدجت أنفاسه ، واشتدت سرعته فى التجذيف ، وغمغم لنفسه وهو يشيح بوجهه :

ـ الحق انهم أرسلوا الينا امرأة تقمصها شيطان مريد !

ومالت على حافة القارب ، لتغمس يدها فى الماء •• ثم قالت فى صوت ناعم ، دون أن تنظر اليه : « ان زوجتك تدعى « يانا » •• أليس كذلك ؟ »

فكف « ديكاس » عن التجذيف مرة أخرى ، وتطلع اليها ، ثم همس وفى لهجته نبرة الخوف : « وأنى لك أن تعلمى ؟ » •• فتراقصت على جفنيها ابتسامة خفيفة ، ثم سددت بصرها الى اسم القارب المنقوش عليه ، وقالت فى فتور : « انك لبالغ الغباء يا صديقى ! »

وجال بخاطره لحظة أن يرفعها بين ذراعيـــه ويغمسها فى البحر !•• ولكنه ما لبث أن تذكر أولئك الذين ينتظرون عند الشاطىء ، فولاها ظهره وانطلق يجذف وهو واقف ••

وقالت الفتاة : « لا بد أن (يانا) عند الشاطىء مع الآخرين » •• وحين لم يجبها ، أردفت تقول : « لقـــد عرفت ذلك لانك أوليتنى ظهرك •• ان ذراعيـــك تبدوان فى قوة ساقى الفحل الخلفيتين ، ولكنك أوتيت قلبا كقلب الارنب ، يعمره الجبن•• أتراها تضربك ؟ »

واستدار « ديكاس » فحدجها بنظرة ، ثم ألقى رأسه الى الخلف فجأة وانطلق ضاحكا بصوت عال •• وتناهت الينا ضحكته عند الشاطىء ، فأجمعنا على أن معلمتنا ولا بد غنيـــة بذخيرة من

الفكاهات المستملحة !٠٠ بيد أن شماس الكنيسة راح يعبث بالرمال بطرف عصاه مفكرا ، ثم تمتم : « ألا يشم أحدكم ريحا منذرة بالشر ؟ »

فتساءل العمدة : « أى شر ؟ »

ـ أصارحكم انني لا أدرى لما أقول معنى ٠٠ ولكن ثمة هاجس يتسلل فى نفسى كما تتسلل الافعى خلال الاعشاب ٠٠

وفكر العمدة برهة ، ثم هز كتفيه وقال فى غير اكتراث : « وأى شيطان يعرف ما يهجس فى نفسك ؟ »

لله در عمدتنا العجوز ٠٠ كان واسع الحكمة !٠٠ ولم يك مستطيعا أن يقرأ الكتب ٠٠ لا ولا كان يحب الشماس كثيرا ، لان عبير البخور كان يفوح دائما من أردانه ـ وكان البخور يثير أمعاءه ! ـ وانما كان يحب البحر ، والسماء ، والغابات ، ويلم بكل أسرارها ٠٠ وكان بوسعه أن يروى القصص الطوال عن الشهب الزرقاء التى تخلفها النجوم الهاوية وراءها٠٠ وعن جنيات البحر التى تعمر أعماق الماء ٠٠ وعن أشجار الغاب ٠٠ كما كان قادرا على أن يقرأ نفوس الناس خلال عيونهم ٠٠ وكان كل أهل القرية تقريبا يدعونه « السيد » ، وما كان ليخطر ببال أحد منا أن يكون عمدتنا سواه، طالما ظل العجوز الاشيب على قيد الحياة٠٠

وكان يحرص عادة على أن يكون آخر من يتكلم ، ولكنه فى هذه المرة كان أول من تقدم الى معلمة مدرستنا ، فصافحها قائلا : « أهلا بك فى قريتنا » ٠٠ بينما حملق الشماس اذ رآها ، وقال فى صوت خفيض : « ما أرى الا أن معلمتنا قد أوفدت الينا ابنتها بدلا عنها ! »

وتطلعت الينا المدرسة بنظرة تشبه نظرة الطفل حين يتكلف الجد ، وقالت فى سذاجة : « انكم جميعا قوم ذوو جمال » ٠٠ ثم أشارت الى « ديكاس » واستطردت قائلة : « ولكن هذا جبان كبير ! » ٠٠ فصاح « ديكاس » محنقا : « اننى يا سيد ٠٠ » ،

فبسط الشيخ يده مسكتا ، ثم قال : « هيا بنا والا هبط علينا الظلام قبل أن نبلغ القرية »

واذ هممنا بالسير ، تحول « ديكاس » فجلس على صخرة وهو يقول : « انطلقوا أنتم ، أما أنا فسأصل الى القرية قبل الظلام بوقت طويل ، لانني سأسلك « ممر الموت » ٠٠ فهل منكم من يرغب فى أن يأتى معى ؟ »

ارتجف الشماس لدى سماع هذه الفكرة وقال له : « انك فى منتهى الجنون أيها الاخ ديكاس » ٠٠ بينما اكتفى العمدة الشيخ بالقول فى هدوء : « لا تنس اننا فى الربيع ٠٠ »

ـ وما فى ذلك ؟

ـ ان حشيش البحر لم يجف بعد على الصخر يا بنى ٠٠

وتساءلت المدرسة : « هل الطريق الى القرية خلال « ممر الموت » أقصر ؟ » ٠٠ فأجابها العمدة : « أجل ٠٠ ان المسافة عبر « ممر الموت » لا تستغرق ثلاث دقائق ، فى حين أنها تستغرق ساعة ونصف الساعة خلال الطريق العامة ! »

ـ اذن ٠٠ سأذهب أنا الاخرى عبر « ممر الموت »

فقهقه الشماس حتى بانت السن المثلومة فى فكه الاسفل ، بينما سألها الشيخ فى جد : « أو تدرين ما هو ممر الموت ؟ »٠٠ فلما أجابته بالنفي قال : « انه فى نهاية الارض المشرفة على البحر يا صغيرتى ٠٠ »

وأشار بيده الى حيث بدت هوة رهيبة ، يطل عليهـــا ـ على ارتفاع ألف قدم فوق سطح البحر ـ ممر ضيق يتخلل الصخور الملساء التى تقوم فى وضع عمودى فوق الماء ، حتى لكأنها قد اقتطعت بفأس ، وألقى ما اقتطع منها فى الظلمات المدلهمة تحتها، حيث يمتد البحر الى ما لا نهاية ، مؤلفا دنيا أخرى لا تعمرها سوى الاسماك وجنيات البحر ٠٠ وهذه الجنيات ـ كما تقول الاساطير ـ حسان مشغوفات بالآدميين ٠٠ فاذا صفا ضوء

القمر ، طفون على سطح الماء ، ورحن يمشطن شعورهن على ضوئه ٠٠ أما اذا بدا القمر أحمر ، فانهن يمكثن فى قاع البحر معولات باكيات ، ويوفدن احداهن لتستبين أحزان البشر ، لان القمر لا ينزف دما الا اذا كان الآدميون يعانون حزنا بالغا !

والتفت الشماس الى زوجة « ديكاس » وقال : « أترين رجلك ثملا يا « يانا » ، حتى يفكر فى اجتياز هذا الممر ؟ »

والتفتت المدرسة تتفرس فى وجه « يانا » ، ولكنها لم تر الكثير منه ، اذ كانت تلف رأسها بوشاح أصفر ، فلم يكن يبين من وجهها سوى أنفها وعيناها ٠٠ عينان واسعتان ، سوداوان ، راحت مقلتاهما تطوفان فى محجريهما فى خوف وحيرة ، وقد انتصبت قامتها كجذع شجرة ٠٠ وسألت زوجها فى صوت خافت : « أو عقدت العزم يا عزيزى ؟ » ٠٠ فلما رد بالايجاب ، حدقت فى أغوار عينيه ، ثم أحكمت وشاحها حول رأسها وقالت فى اعياء وأسى : « لننطلق ، فهو مصمم ! »

وكانت « يانا » امرأة صموتة، ولكنها كانت خبيرة باستشفاف نفس زوجها من خلال عينيه ، فى جلاء عجيب ٠٠ وكانت مسرفة فى ثقتها فيه ، حتى انه حين سألها قبل عامين أن تفر معه ، قالت له فى نفس الصوت الخافت : « أو عقدت العزم ؟ » ٠٠ وكان اخوتها يريدون اذ ذاك قتله ، ولكنه كان قد حزم أمره ، فسعى على جواده الى نافذتها ذات ليلة ، وحملها الى جوف الغاب، حيث قضيا الليل كله ٠٠ ثم أتى بها فى الصباح التالى الى قريتنا ٠٠ وتوقعنا أن يدور على أثر ذلك عراك حامى الوطيس مع أهل قريتها ، بيد أن اخوتها باعوا جيادهم وأرضهم ونزحوا الى الخارج ، فلم يدر أحد لهم مقرا بعد ذلك !

وقال الشيخ : « لننطلق ، فأنا الآخر أعتقد أنه وطن عزمه »

وكانت المدرسة مستغرقة فى التفكير طيلة الوقت ، فما لبثت أن بسطت ذراعيها ، وكأنها تحاول أن تستبقينا ، وصاحت بنا وبالفتى ديكاس وقد أمسكت بذراعه وراحت تهزه فى عنف :

« أفقدتم جميعا رشدكم ؟٠٠ لماذا تفعل ذلك ؟ »

فأجابها « ديكاس » فى بساطة : « لاننى أريده ! »

ـ أو تريد أن تموت ؟

وهنا انبرت لها زوجته « يانا » بصوت عميق : « دعى ذراعه » ٠٠ ثم اختلست النظر الى صدر ثوب المدرسة وقد بدا مفتوحا يكشف عن رقبتها البضة وهمست فى تهدج : « استرى ثدييك ! » ٠٠ فحدجتها المدرسة بنظرة قاسية ، وقد ازداد الاسي الجاثم فى عينيها الرماديتين تكاثفا ، وغامت على وجهها سحابة معتمة ، ثم قالت فى أسى وهى تتحول الى « ديكاس » : « اننى أكره مثل هذا العناد الاحمق ٠٠ فاذا كنت تقدم على هذا العمل لاننى رميتك بالجبن ٠٠؟ » ٠٠ لكنه قاطعها والشرر يتطاير من عينيه : « دعينى وشأنى يا امرأة ! » ٠٠ فتحولت عنه ، وصاحت فينا بصوت جهورى كأننا تلاميذ : « سيروا » !

وكانت الشمس قد انحدرت رويدا ، ولن يمضى طويل حتى تمس أفق البحر فى رفق ، ورفق بالغ ، ثم تغوص الى القاع لتستحم ، ويبقى ضوؤها بعض الوقت منعكسا على قمم أشجار الغابة ٠٠ ومن ثم أعنا المدرسة على امتطاء صهوة جواد ، وانصرفنا متعجلين ٠٠ وقبل أن ندور مع انحناء الطريق ، رأينا ـ والخوف يملأ نفوسنا ـ « ديكاس » وقد تشبث بالصخور ، وعلق حذاءيه على كتفه ، وراح يسير فوق الهوة فى بطء متناه !

وما لبث الظلام أن هبط ، وان بقى فى الفضاء وهج أصفر واهن راح يرتجف محتضرا ٠٠ بينما تأهب القمر للبزوغ ٠٠

❋

◆ **وفى** القرية ، كان البدال « انستيا » قد أعد ثلاث موائد تحت الشجرة العتيقة الضخمة وكساها بورق الصحف ، ثم جلس ينتظرنا ٠٠ فلما رآنا ، راح يقفز فى مرح صبيانى وهو

يصفق ويصيح بزوجته : « لقد أحضروا العصفورة يا امرأة » ٠٠ وهزت زوجته رأسها ، ثم دلفت فى صمت الى داخل الحانوت لتعد لنا الحلوى والشراب ٠٠ ولم يكن أحدنا قد عرف بعد ما جرى لديكاس، ولكنا قبل أن نجد الفرصة لنسأل « انستيا » أن كان قد رآه ، سمعنا صيحة كصيحة الطير تنبعث من قمـــة الشجرة فتطلعنا لنرى « ديكاس » مستلقيا على الفرع الرئيسى فى الشجرة ٠٠ وقال : « ما أراكم ـ حيث أنا ـ تزيدون على عشرين فأرا ، وصرصارة صغيرة » ٠٠

ثم راح يقهقه بصوت مرتفع ٠٠ وفى اللحظة عينها ، دبت الحياة فى الوهج الاصفر الواهن الذى كان يرتجف فى الهواء ، فاذا هو يسطع بضوء باهر انصب على أغصان الشجرة وارتمى على البحر ٠٠ وفجأة ، ساد الصمت ، وتجمد ضحك « ديكاس » على أوراق الشجرة ، ورفع الشيخ يده فى انفعال وأشـــار الى الجبل قائلا : « القمر ٠٠ أنظروا الى القمر ! »

والتفتنا جميعا ٠٠ ونظرنا ٠٠ فاذا القمر أحمر !

ـ ٢ ـ

◆ **ما كان** أسرع انصرام الربيع فى ذلك العام ٠٠

لم يعد الوهج المرتعش يضىء الفضاء ، وانما كان ضوء الغروب ـ الشفق ـ ينعقد فوق البحر والغاب ساكنا لا حراك به ، وقد بدا فى جماله الجامد كالشباب الميت! ٠٠ وكانت أشجار الساحل فى سكونها وانتصابها كأشباح ترهف السمع ، كأنما كانت ثمة قصة مفعمة بالحزن تروى عليها ! ٠٠ وكان الصيف قد حل، ومع ذلك فان معلمتنـــا لم ترحل عن القرية ٠٠ وكانت اذا ما أوشكت الشمس أن تغيب فى نهاية كل نهار ، تأخذ العصاة التى تتوكأ عليها فى نزهاتها ، وتنطلق الى الغابة ٠ **ويقولون انها كانت اذا صادفت شابا مليحا من قاطعى الشجر ، سعت اليه ووقفت أمامه صامتة ، وقد عقدت ذراعيها على صدرها وجعلت**

تحدق فى عينيه ، كما تحدق القطة فى عينى عصفور يتأرجح على غصن ، فلا يقوى على التحليق هاربا !٠٠ وكان قاطع الشجر يحرك اذ ذاك فأسه فى خور ووهن ، حتى تنساب الفأس مفارقة يده ، فيدعها بين ركبتيه ، ويروح يتأمل المرأة بنظرات ناعسة وكأنه ينصت الى أغنية يتصاعد صداها من وراء الغـــاب !٠٠ وعندئذ ، كانت المدرسة تستلقى على طبقة كثيفة من ورق الشجر ، وقد عقدت يديها خلف عنقها ، وتقول فى صـــوت ناعم لين : « تعال فاجلس بالقرب منى »

ولقد سمع بدالنا « انستيا » عن هذه الافعال ، فهمس للمدرسة وهى تمر بمتجره ذات يوم ، وزوجته غائبة عن المكان : « تعالى أقدم لك بعض الحلوى ! »

ولكنها لم تعره انتباها ، فقد كانت لا تكاد تخاطب أحدا فى قريتنا ، وان اعتادت أن تسير من وقت الى آخر مع العمدة الشيخ حتى النافورة ٠٠ وعندما سألها الشيخ يوما عن السر فى أنها تبدو دواما حزينة ، أجابته : « لست أدرى ٠٠ » ودقت على قلبها فى وهن كأنما ودت أن تقول : « أشعر بشىء هنا ! » ٠٠ فسألها الشيخ : « أترينهـــا دودة ٠٠ مثلا ؟ » ٠٠ فأجفلت وتساءلت : « دودة ؟ » ٠٠ ثم ازداد أســاها فجأة وهمست : « أجل ٠٠ لعلها دودة » !

*

وفى ذلك اليوم حدثته لاول مرة عن أهلها ٠٠ فقالت انها ذهبت فى ظهيرة أحد الايام تجلب من البئر ماء ، فاذا بزلزال عظيم قد دك دارها على رؤوس أسرتها جميعا ، فدفن أفراد الاسرة السبعة تحت أنقاضها ٠٠ وكانت ميتة سريعة ، مباغتة ، كأنما ابتلعتهم الارض ، دون أن تدع لاحد فرصة ولو ليئن متوجعا !٠٠ اللهم الا أختها الصغرى التى هتفت مرتين : « أماه ٠٠ أماه ! » ،

ثم ساد الصمت ٠٠ ولم يبق غير الغبار ٠٠ غبار أصفر راح يطفو فى الجو صاعدا الى السماء !

بيد أن الشيخ لم يصدقها ٠٠ انما كان يحلو له أن يقول ان معلمتنا من جنيات البحـــر ٠٠ وصدقه الكل ، حتى شماس الكنيسة لم يلبث أن صدقه على مر الايام ، واقترح على القس أن يذهبا فيصليا فى غرفتها أثناء غيابها فى الغاب ذات يوم !

ولكن « ديكاس » قال ان كل ذلك هراء ٠٠ بل انه ذهب الى حد أن راهن « انســتيا » على أنه لن يمضى طويل وقت حتى يضطرها الى أن تجرى وراءه ككلب صغير ٠٠ ومن أجل ذلك شرع يتعقبها فى أحد الايام وهى تسعى الى الغابة ، فلما بلغا النافورة، فطنت الى الامر فكفت عن السير ، وعادت أدراجهـا اليه ، ثم راحت تضربه بعصاها على عنقه ، دون أن تنبس ببنت شفة !

*

◆ وفى اليوم التالى ، تربص « ديكاس » بها عند الجسر خارج القرية ٠٠ وكان قد أنبأنا بأنه سيشدها من شعرها ويجرها الى النهر ، ولكنها حين مرت به ، رمقته بنظرة قاسـية جعلت جميع قواه تتسرب من جسده !٠٠ ومن ذاك اليوم اعتاد أن يجلس على الجسر فى كل مساء ينتظرها ، وقد دلى ساقيه فى الماء ، الى أن يسمع دقات عصاها على الحجر وهى مقبلة ٠٠ فاذا اجتازت الجسر ، كان يحنى رأسه محييا ويقول فى صـوت ناعم : « عمى مساء ! » ٠٠ ولكنها لم ترد التحية أبدا ، لا ولا التفتت اليه ٠٠ **فكان يظل فى مجلسه على الجسر الى ساعـة متأخرة من الليل ، ثم ينهض عائدا الى داره ، فيلقى بنفسه على السرير ، ويولى وجهه شطر الحائط ، ويروح يئن بصوت عال وهو يعض وسادته !٠٠ بينما تظل « يانا » ساهرة تصغى لانينه، وقد ثبتت بصرها على لهب الشمعة !**



أجل ، كانت « يانا » تعرف أمره ٠٠ ولكنها قط لم تجسر على مكاشفته به ٠٠ غير انها فى احدى الليالى سمعته يبكي فى صمت فى جوف الظلام ، فبسطت يدها ومسحت على شعره برفق ، واذ ذاك قفز قائما ، وراح يضربها فى غضب أهوج ٠٠ ثم ولى وجهه شطر الجدار ثانية ٠٠ ومرة أخرى ، مسحت « يانا » على شعره بيدها الحنون، فلم يقو على احتمالها ، ومن ثم أمسك بها وشد قبضته عليها ٠٠ ثم استدار ، وأسند رأسه الى صدرها ، وقال : « يانا ٠٠ لا بد لى من أن أصارحك ٠٠ »

فوضعت أصابعها على فمه تسكته ، وقالت : « نم الآن ، فاذا أقبل الصباح فاذهب الى الشاطىء ، وانظر قاربك واعن به ، فقد توانيت عن العناية به فى المدة الاخيرة ولن تلبث الشمس أن تتلفه »

واذ ذاك استوى معتدلا فى جلسته ، وأنعم النظر فيها ، وقال : « أجل ٠٠ أجل ٠٠ هذا ما ينبغى أن أفعل » ٠٠ ثم همس موجسا : « أتراك تحاولين أن تقولى ٠٠٠؟ »

لكنها لم تنبس ببنت شفة ، بل ظلت نظراتها عالقة بلهب الشمعة وهو يتطاول ثم ينكمش فى تواتر متناسق لطيف ٠٠ وما لبث « ديكاس » أن ارتمى على الفراش راقدا من جديد ، ثم قال بصوت خفيض وهو يحدق فى السقف : « هل أقتلها يا « يانا » ؟ »

ــ بل يجب أن ترتد رجلا كما كنت ٠٠

وفي الامسية التالية ، لم يعن « ديكاس » بتحيــة مدرستنا وهى تعبر الجسر ، بل ربت على الحجر الاملس ، وقال فى زمجرة: « تعالى هنا يا هذه » ٠٠ لكن المدرسة مضت فى طريقها وكأنها لم تسمع شيئا ، واذ ذاك هتف « ديكاس » مزمجرا من جـديد : « تعالى هنا يا هذه ! »

وتوقفت فحدجته بنظرة غريبة ٠٠ ثم اقتربت منه وجلست على الحجر ٠٠ وانحنت لتشرع في فك رباط حذائها وهى تقول متلاهية : « ها أنذى أنصت » ٠٠ فحزم أمره وقال لها : « قد تكونى من جنيات البحر ٠٠ أو لعلك الشيطان نفسه ٠٠ فان الحالين لدى سواء ٠٠ أسمعت ؟ »

ـ أجل ٠٠ سمعت ٠٠ فهات ما عندك !

ـ لم يبق عندى شيء آخر ٠٠

فقالت بهدوء : « **حسنا ٠٠ اذن ، اسبح وراء هذه !** »

وطوحت بفردة من حذاءيها الابيضين الى النهر ٠٠ فقهقــه « ديكاس » عاليا وقال :

ـ من ؟ ٠٠ أنا ؟

ـ لا تفغر فاك وتحملـق فى كالسمكة ٠٠ يجب أن تذهب وتحضرها ٠٠

ـ بل أنت التى تذهبين وراءها ٠٠ لسوف أطوح بك الى البحر مع حذائك أيتها الشيطانة !

ـ أنظر !٠٠ انها تبتعد مع التيار ٠٠ ولو انك لحقت بهـا قبل أن تختفى فسأنتظرك فى صباح الغد عند « ممر الموت » !

ووقف « ديكاس » لا يحير حراكا ، وقد راح يحدق بغباء فى نصل سكينه المرهف ٠٠ وقال أخيرا : « أنت ٠٠ تنتظرينني؟»

ـقلت لك أسرع ٠٠ انك لن تستطيع أن تلحق بها اذا هى انحدرت مع الماء من فوق سفح التل ٠٠

ـ أجل ، ولكن ٠٠ اسمعى ٠٠ اننى ٠٠

ـ يا لك من أحمق ٠٠ ما جدوى الاطالة فى الكلام ؟

ونقل « ديكاس » بصره بين وجهها والحذاء الابيض الذى كان يطفو على سطح النهر كالزهرة ، محاولا أن يشق لنفسه طريقا عبر الحصى الذى كان يحف بالمجرى الضحل ٠٠ ولم يجسر أن يرفع بصره الى الصخرة القائمة خلف المجرى ، فقد كان ثمة شعور مبهم يوحى اليه بأن زوجته « يانا » تراقبه ولا بد بعينيها الواسعتين الحزينتين ٠٠ وما لبث أن قفز من مكانه وراح يعدو نحو النهر متنقلا فوق الاحجار بحركات سريعة ، رشيقة ٠٠

وفى الصباح التالى ذكر لزوجته انه ذاهب الى الشاطىء ليتفقد قاربهما ، ثم يمم لفوره نحو « ممر الموت » مباشرة ٠٠ وهناك استلقى تحت شجرة ضخمة من أشجار البلوط قامت على حافة الهوة ، وقد وطن العزم على الانتظار ، وان داخله شعور قوى بأنها لن تأتى !٠٠ وراح يتلهى بالبحث عن الاحجار الكبيرة يدفعها الى الهوة وهو شارد الذهن ، ثم ينصت ليسمع صوت ارتطامها بماء البحر فى قاع الهوة العميق ، وهو موقن من أن الصوت لن يتناهى الى سمعه ٠٠

وعندما اقترب النهار من منتصفه قرر أن ينصرف ، **ولكنه رآها مقبلة اذ ذاك نحوه تتهادى فى بطء وقد ارتدت قبعتها ذات الحواف المزخرفة بثمار « الكرز » ٠٠ وبلغت مكانه فجلست الى جواره ، ثم قالت فى تهكم بالغ : « اننى أحب دائما أن أفى بوعودى »**

فغمغم قائلا : « صحيح ٠٠ هذا حق ! » ٠٠ وشرع يتلهى ثانية بالقاء الاحجار !٠٠ بينما أخذت هى ترمقه من ركن عينها وقد بدت شفتاه ـ تحت شاربيه الاسودين الكثيفين ـ منفرجتين عن أسنان ناصعة البياض ، سقط عليها شعاع من ضياء الشمس ٠٠ ومضى وقت غير قصير على هذه الحال ، ثم قالت الفتاة فى صوت رقيق ، دون أن تنظر اليه :

ـ ما دمت متزوجا ، فما الذى تبغيه منى ؟

أطرق مفكرا ، كمن يحاول عبثا أن يهتدى الى جواب ٠٠ وما لبث أن أرسل زفرة عميقة ثم قال هامسا : « لست أدرى ٠٠ »
فقالت : « ولكننى مع ذلك أدرى ! »
ـ ربما ٠٠ يحتمل أن تدرى ٠٠ فأنت شيطانة !

واذ ذاك ضحكت وقربت خدها من وجهه ٠٠ ومرت لحظة أمسك كل منهما خلالها أنفاسه تماما ، ثم أهوت بشفتيها على أسنانه البيضاء اللامعة ٠٠ وبقيا ساكنين ٠٠ جامدين كالصخور ٠٠ وكضوء الصيف في الظهيرة ٠٠

ونأت عنه بعد برهة ، ثم همست بصوت متهدج : « أعتقد أن هذا ما كنت تبغى منى »

ومرة أخرى ، لم يحر جوابا ٠٠ ولكنه أمسك بها وضمها اليه فى قوة وشدة حتى اضطرها الى أن تصرخ ، واذ ذاك خفف من شدته فدفعته عنها واستوت واقفة ٠٠

وفجأة ، هتفت دون مقدمات وكأنما تذكرت لفورها : « هل تقوى على عبور الهوة الآن ؟ »

وكان بنفسها يقين من أنه لن يجرؤ ـ فمن العسير على المرء أن يسعى الى الموت بينما تكون السعادة ماثلة بين يديه! ـ وتوقعت أن يزداد تعلقا وتشبثا بها ، كما تفعل الهرة حين تحـاول أن تدفعها عن حافة النافذة ٠٠ وتمنت لو يرفض فكانت تحتوى وجهه بين راحتيها وتنبئه بأن من الحماقة حقـا أن يرمى المرء حياته كما لو كانت كرة يطوح بها غير حافل ٠٠!

ولكنه لم يقل ما توقعت ، بل هز كتفيه فى بساطة وقال : « أستطيع أن اجتازها مائة مرة ! »

ـ بل مرتين لامائة ٠٠ يا أحمق !٠٠ مرة ذاهبا ، ومرة عائدا ٠٠

فقال وهو يمد ذراعه ليضمها اليه ثانية: « حسنا ٠٠ ستجدينني مستعدا حينما تشائين » ٠٠ لكنها دفعته عنهـا بعنف وقالت

هامسة : « **دع العناق الى أن تعود !** »

– أتعنين بذلك انك راغبة فى أن أذهب لفورى ؟

– **أجل ..**

– ولكن .. فيم هذه الرغبة .. لماذا ؟

– **دع عنك معرفة السبب .. فهل أنت راغب فى الذهاب ؟**

فقال : « لسوف أذهب » .. ولكنه ظل جامدا في مكانه ينظر اليها فى حيرة شاردة .. حتى صاحت فيه فى نوبة من الغضب لم يدر لها مبررا :

– **اذن فاذهب أيها الغبى ولا تقف هكذا فى مكانك ..**

وخلع حذاءيه عند الشجرة ، ثم سار الى الهوة .. وخطا فى هدوء عبر الفراغ الرهيب .. بادى الطمأنينة ، كأنما هو طائر أوتى جناحان يحملانه فى الهواء اذا هوى !.. فلما عاد ، سار اليها ، ووقف أمامها وقد دس يديه فى جيبى سرواله ، ثم قال : « ها أنتذى قد خسرت التحدى .. كما ترين »

فأجابته : « أجل .. تعال الآن أقبلك » .. ثم راحت تضرب عنقه بعصاها فى غيظ يفوق التصور !

*

◆ **ظلت** المعلمة بقية النهار ، وطيلة الليل الذى أعقبه ، مستلقية على فراشها وقد عقدت يديها تحت رأسها وثبتت نظرها فى سقف الحجرة .. حتى اذا آن لشمس اليوم التالى أن تنحدر للمغيب ، حملت عصاها وسعت الى الغابة ثانية ..!

وألفت العمدة الشيخ ينتظرها عند نهاية القرية ، فبادرها متسائلا : « أذاهبة أنت الى هناك مرة أخرى ؟ »

واذ ردت بالايجاب ، سألها : « هل تودين أن آتى معك ؟ »

– كلا ..

– بل يجب أن أصحبك ، مع ذلك ..

وحدق فيها بعينيه الصافيتين الشبيهتين بعينى الطفل ،

وقد انبعثت منهما نظرة جميلة ، ولكنها جادة ، صلبة كالصخر ٠٠ ومد يده وكأنه يهم بأن يربت شعرها ، ولكنه لم يمسها ، بل قال : « هيا بنا ، فانني أريد أن أريك شيئا ذا أهمية كبيرة ٠٠ »

وعضت على شفتها وهى تقف برهة مترددة ، ثم أحنت رأسها ومشت الى جانبه صامتة ٠٠ كانت الغابة قد بدأت تنفض عنها الخمول الذى عراها تحت وطأة الشمس ، وأخذت الحياة تدب فيها من جديد بعد أن وهن ضياء النهار ، وسرت فى أوراق الشجر وفى النبتات الفطرية آلاف النسائم ٠٠ وسار الشيخ والفتاة ، حتى اذا بلغا شجر السنديان ، استنشقت المعلمة الهواء ملء صدرها ، وقالت : « لنقف هنا »

ولكنه أجابها : « لا ٠٠ بل سنسعى الى شجر الخوخ ، فان ظلال السنديان ثقيلة تبعث فى نفس الانسان قشعريرة ٠٠ أفتدرين السبب ؟ »

فأجابته وهى غائبة الوعى ، شاردة البال : « لا »

ـ آه ٠٠ هناك اسطورة حول هذا الموضوع ، ترجع الى الازمان التى كانت فيها الاشجار مخلوقات آدمية ٠٠ هل أرويها لك ونحن نصعد السفح ؟

ـ لست أحب الاساطير ٠٠ لا ولا أحب صعود السفح ٠٠

ـ لك ما شئت ٠٠ ولكنى أؤكد لك اننا لن نجد الطائر الا اذا صعدنا الى شجر الخوخ ٠٠

ـ أى طائر ؟

ـ تعالى ٠٠ ولسوف أنبئك

وسارا طويلا ، صامتين ٠٠ وكانت الاشجار كثيفة فى أعلا السفح ، تخلع على الضوء قتامة خضراء ٠٠

آه ٠٠ ولكن ظلال شجر الخوخ كانت تختلف عن غيرها حقا ، كما قال الشيخ ! ٠٠ فقد أحست بطراوتها تمسح على حلقهـا ملطفة ، وتداعب أطراف أذنيها ، وتتخلل شعرها ، وتسكب

رطوبة ناعمة على رأسها ، كأنها لمسات الريش النـــاعم ٠٠ واستنشقت الهواء فى نهم ، فتغلغلت الرطوبة العليلة فى أعماق نفسها ٠٠

وقالت أخيرا : « لست أرى أى طائر غريب »

فأجابها : « صبرا ٠٠ ان هذا الصنف من الطيور نادر جدا ، ولكن هنا ديدان كثيرة تجتذبها ٠٠ هذا عين ما قلت للسائح »

ـ أى سائح ؟

ـ سائح جاء هنا مرة ، وحاول أن يشنق نفسه ٠٠

ـ ولماذا ؟

ـ من يدرى ؟

ـ وهل شنق نفسه فعلا ؟

ـ كلا ، بل تزوج ٠٠ وهناك من يقول ان المصيرين سواء !٠٠ كل ما أدريه هو اننى لم أكد أريه الطائر ٠٠

وتوقف فجأة ، وأشار الى شجرة عتيقة قامت الى يمينهما وقال فى رفق : « أنظرى الى ما فوق هذه الشجرة ! »



ـ ماذا هناك ؟

ـ صه !٠٠ لا ترفعى صوتك ٠٠ انه الطائر !

وأرسلت بصرها وراء اصبعه فرأت الطائر على فنن ٠٠ كان أوتي منقارا هائلا لا تتناسب طـــائرا عاديا اللهم الا فى انه أوتى منقارا هائلا لا يتنـاسب اطلاقا مع جسمه!٠٠ وكان رافعا منقاره الى السماء فى وضع بدا معه كأن عودا أنفذ فى جسده ليقيمه فى هذا الوضـــع ٠٠

فتساءلت المعلمة : « أى نوع من الطيور هو ؟ »
– اننا نسميه ناقر الخشب ٠٠
– وهل هو يقتات بالخشب ؟
– كلا ٠٠ بل يأكل الديدان ، ولكن ٠٠ هل تستطيعين أن تتصورى ما يدعوه الى أن يجثم فى مكانه ذاك بادى الاسى ؟٠٠ انه ينصت الى أنين الشجرة ٠٠ ولعلك لا تصدقين ان الاشجار تئن ، ولكن هذا الطائر يعلم أن ثمة دودة تسعى فى قلب الشجرة ٠٠ أفتصدقين هذا ؟

واذ أجابت : « لا » ، هز الشيخ كتفيه هزة خفيفة وابتسم ٠٠

ومرت برهة ، ثم شرع الطائر – وكأنه عقد عزمه فجأة – ينقر الشجرة فيما بين ساقيه فى هياج ٠٠ وما لبث أن وقف جامدا فى وضع لا تستطيع معه أن تدرى ما اذا كان منقاره قد غاص فى الشجرة المنخورة ، أم غاص فى أمعائه !٠٠ وأخيرا ، سحب منقاره من موضعه ، ونفض ريشه ، ثم انطلق طائرا ٠٠

وتساءلت الفتاة : « ولكن ، لم يفعل ذلك ؟ »
– لانه طائر معتوه !

ورمقته بنظرة زاخرة بالسخرية ، وتساءلت : « أو هذا كل شىء ؟ » ثم شاع فى وجهها شىء كالقلق ، فنهضت فى عجلة وسارت الى الشجرة ، فتسلقت جذعها الى الغصن الذى دب فيه التلف ، وجثمت فوقه بعض الوقت تحدق فى الثقب الذى أحدثه الطائر بمنقاره ٠٠ ثم همست وهى تعود الى الشيخ : « اذن ، ففى الشجرة دودة حقا ٠٠ »

– كل الاشجار التالفة تدب فيها الديدان ٠٠ ولا يملك أحد شيئا لانقاذها ٠٠

– أو تراك تحاول أن تقول اننى أيضا غصن تالف ؟
– بل أحاول أن أقول انك طائر معتوه ، فأنت لا تكفين عن التفكير فى الديدان التى تدب فينا !

واذ ذاك ، فتحت عينيها عن آخرهما وتأملته فى اعجاب بالغ

.. ثم تناولت يديه فوضعتهما فى حجرها برفق ، وشرعت تربتهما وتمسحهما ..

واشتد تكاثف الظلال ، وارتجفت الاشجار وهي ترتقب الظلام الذى لم يبق على مقدمه وقت يذكر .. بل كان مقدورا أن يقبل سريعا محلقا من الطرف الآخر للارض ..

وعادا يهبطان التل فى صمت وسكينة ، وقد شع وجه الشيخ بابتسامة عذبة ، فيها شجو ووجوم .. وكانت المدرسة تركل الاحجار فى طريقها بحنق غريب .. حتى اذا انتهيا الى النافورة، ندت عنها زفرة حرى ، ثم سرحت بصرها فى الفضاء وقالت : « اننى راحلة فى الغد .. »

فتوقف الشيخ ، ومس شعرها فى حنو .. ثم قال : « أجل .. لقد حان الوقت — على أية حال — كى تتزوجى » .. وأمسك لحظة ، ثم أردف بلطف : « ثم ان « يانا » أكثر منك حبا له ! »

فهمست فى احتجاج واهن : « من ؟ »

— أنا أدرك أنك لا تحبين قاطعى الشجر فعلا ، بل أكاد أعتقد أنك تزدرينهم ..

ولم تتساءل فى انكار هذه المرة كما فعلت في السابقة ، بل هزت كتفيها وقالت : « لست أزدريهم .. »

—اذا قابلته عند الجسر ، فألقى اليه بتحية المساء ، فليس فى هذا ما يضير .. ما دمت راحلة فى غدك !

ولكن الذى ألفياه عند الجسر حين بلغاه لم يكن « ديكاس » ، وانما « يانا » .. وكانت جالسة تحملق فى الماء وقد عقدت ذراعيها على صدرها !.. فقالت المعلمة فى لطف عذب : « سعدت مساء يا يانا »

ولم تجبها « يانا » ، بل التفتت الى الشيخ قائلة فى جفاء : « لقد خرج زوجى بالامس أيها السيد ليتفقد قاربنا ، ثم عاد وعلى عنقه علامات حمراء .. وهو الآن فى سريرنا يبكى ٢ .. »

وأمسكت عن الكلام وقد سددت بصرها الى المدرسة ٠٠ ثم قالت فى صوت فاتر ، بارد ، يشيع القشعريرة فى كيان سامعه: « عمى مساء أيتها المدرسة »

وواجهت كل من المرأتين غريمتها برهة فى تحفز وتوتر كما لو كانتا من اناث الوحش الكاسرة ، وهما تتنسمان رائحة الاشجار المحترقة فى الجو ٠٠ ثم غضت المدرسة من بصرها كطائر ناعس ، ولم يبق من عينيها سوى ثغرتين ضيقتين رأت خلالهما الدنيا بأسرها ترتكن فى طمأنينة وراحة على ذؤابة السكين التى كانت متوارية فى صدر ثوب « يانا » ! ٠٠ كان الكون بأسره مجتمعا فى سن قطعة الفولاذ الصقيلة ، على صغرها ، وكأنما تناوله الله فى قبضته القديرة واعتصره حتى أحاله الى قطرة دقيقة كقطرات الندى ٠٠ وخالت انها ترى النجوم وكأنما قد اختلطت بهـــا أسنان « ديكاس » الناصعة !٠٠ ثم رأت دارهـــا ذات النوافذ الخضراء ، والبئر التى فى ساحتها ، والقمر المأفون يتراقص فوقها ٠٠ وفى وسط هذه الرؤى جميعا ، لاح لها شبح مدرس الدين الذى اعتاد أن يردد ان الحياة لا تفنى ولا تنتهى أبدا ٠٠ أبدا!٠٠ وساد هذه التخيلات جميعا ذلك الغبار٠٠ الغبار الاصفر الذى خالطه الضوء الازرق ، والذى علق فى الجو ساكنا على أطلال موطنها الاصلى ، يوم فنيت أسرتها جميعا !

وخيل اليها أن كل هذه الاشـياء لن تلبث أن تغوص فى صدرها مع نصل السكين ، كما كان منقار الطائر الغريب يغوص فى الشجرة الفاسدة ٠٠ وعن لها أن هذه الاشياء ستحمل معها نوعا من الدفء وهى تخترق قلبها ٠٠ أو ما يشبه ذلك !

وفتحت عينيها فرأت « يانا » تقبل عليها ، فلم تتحرك ، وانما ثنت احدى ركبتيها وانتظرت ، وقد سرحت بصرها بعيدا ٠٠ نحو الغابة ، فى نظرات زائغة لا يستطيعها الا ٠٠ الموتى !

ولم يفطن الشيخ الى هذا الموت الذى كان يهبط مع الظلام٠٠ بل مس كتف « يانا » رفيقا ، وقال : « الآن ينبغى لك أن تقبليها فانها راحلة فى الغد ! »

فتساءلت « يانا » فى صوت خافت ، يكاد الخوف يبدو فى ثناياه : « أهذا صحيح ؟٠٠ أراحلة أنت غدا ؟ »

ولم تنبس المدرسة ببنت شفة ، فهتفت « يانا » فى صوت يشبه النعيق : « أراحلة أنت غدا ؟ »

اذ ذاك مدت المدرسة يدها ، فرفعت بأصابعها البيضاء خصلة من الشعر الكستنائى كانت قد انحدرت على عينى « يانا » ، ثم قالت :

– بل أنا مرتحلة الليلة !

ولم نر المعلمة بعد ذلك قط !٠٠ ويقول بعضهم انها غرقت فى ذات الليلة التى غادرتنا فيها ٠٠ ولكن الشيخ يأبى أن يصدق ذلك٠٠ولايزال يحدثنا فىالليالى الدافئة ، البديعة ، عن جنيات البحر التى تمشط شعورها الطويلة فى قاع البحـــر ، تحت ضوء القمر !

كتب الأولون



كنوز الكتب القديمة

عزيزى القارىء ...

قرأت معى فى الاعداد الماضية من كتابى ، من روائع الكتب القديمة ، هذه الكتب على التوالى :

((ديكاميرون)) تأليف بوكاشيو
((دون كيشوت)) تأليف سرفانتس
((الالياذة)) تأليف هوميروس
((اميل)) تأليف جان جاك روسو
((حى بن يقظان)) تأليف ابن طفيل
((روبنسن كروزو)) تأليف دانييل ديفو
((غرام الاخوين)) تأليف (كاتب فرعونى مجهول)
((يوتوبيا)) تأليف توماس مور
((الجمهورية)) تأليف افلاطون
« الكوميديا الآلهية » تأليف دانتى
« الاوديسة » تأليف هوميروس

واليوم اقدم لك فيما يلى هذه القصة من أدب ((فولتير)) التى تعتبر نموذجا لفلسفته الساخرة ونقده اللاذع لمفاسد المجتمع وانحلال الاخلاق ونفاق البشر !

.. وفى الاعداد القادمة نواصل باذن الله سياحتنا معا عبر الاجيال والاقطار ، فتقرأ معى فى هذا الباب :

الامير : مكيافيللى
العقد الاجتماعى : جان جاك روسو
السياسة : ارسطو
البخلاء : الجاحظ .. الخ



LE MONDE
COMME IL VA
Par
VOLTAIRE
من أدب "ڤولتير"
الكاتب الذى مهد للثورة الفرنسية
العالم كما يسير!

هذه القصة .. وهذا المؤلف ؟



فولتير

◆ لم يظهر فى تاريخ آداب العالم كثيرون مثل «فولتير» .. هذا الكاتب الناقد الساخر الفيلسوف ، الذى ظهر فى عهد كان الطغيان فيه على أشده فى فرنسا ـ طغيان الحاكم وطغيان رجال الدين ! ـ فأماط اللثام عن نقائص المجتمع فى جرأة وبسالة .. وأعلنها حربا شعواء لا هوادة فيها على الظلم والشعوذة : فى نظام الحكم وأساليب العبادة على السواء !

واذا كتب فولتير ، فبأسلوب «المجاز» ، والسخرية اللاذعة ، والتهكم القاسى الذى دونه قوة المطرقة وضرب السياط !.. وفى هذه القصة التى اقدمها اليك اليوم من «فولتير» ، لا تحسبن ايها القارىء أن حوادثها وقعت حقا فى بلاد العجم أو بلاد الهند .. وأنما هى طريقة «فولتير» فى استعارة هذه البقاع النائية من الارض ليجرى فيها قلمه البتار بالنقد الصريح الصادق ، تحايلا على القيود الجائرة التى كان الطغاة من الملوك والحكام يفرضونها على الاحرار من أرباب الاقلام !.. فهو حين يجرى حوادث قصته هذه فوق أرض العجم ، انما يعنى «فرنسا» والفرنسيين بكل حرف فيها .. فقد كانت فرنسا فى عهده منهارة : سياسيا ودينيا وعسكريا وخلقيا !.. فرسم «فولتير» لها هذه اللوحة الرائعة الخلابة التى تذكرنا فى كل سطر منها بمصر فى عهد الفساد الزائل !.. ولا عجب ، فقد أطلق فولتير على قصته بحق : العالم كما يسير ..!

رؤيا « بابوك »

◆ **كان** الآله « أتوريل » بين آلهة المرتبة الاولى . . وكانت منطقة نفوذه ومقر ملكه قارة آسيا !؟ وذات صباح هبط من عاصمة ملكه الى حيث يقيم « بابوك » فى بلدته الواقعة على شاطىء « الاوكس » ، وقال له :

ـ يابابوك ، أنصت الى جيدا ! ان ما يرتكبه العجم فى بلادهم من أعمال جنونية ومن مجون واستهتار بالفضائل والقيم الانسانية قد أثار غضبنا واشمئزازنا معا . . . وعليه فقد اجتمعت أمس جمعية آلهة آسيا العليا لتتخذ فى شأن تلك البلاد قرارا حاسما . . **ويتلخص قرار الآلهة فى تأديب سكان مدينة « برسيبوليس » ، سواء بتعذيب أهلها أو بدك المدينة كلها دكا ! . . فاذهب أنت الى هذه المدينة مبعوثا من قبلنا . . وابحث ودقق البحث . . وافتح أذنيك على كل ما تسمع وعينيك على كل ماترى . . ثم أعد لى تقريرا شاملا مفصلا وافيا بكل ما تراه . . وعلى ضوء تقريرك سأتخذ قرارا نهائيا فيما اذا كنت سأكتفى بتأديب هذه المدينة ، مدينة « برسيبوليس » ، أم سأهدمها وأفنيها ولا أبقى فيها حجرا على حجر !!**

فأجاب « بابوك » فى خضوع وخشوع : « اننى يامولاى لم يسبق لى أن ذهبت الى بلاد العجم قط ، ولا أعرف فيها أحدا . . فكيف السبيل الى اجابتك الى ما تطلب ؟ »

فرد « أتوريل » فى لهجة آمرة قائلا : « لعل هذا أفضل . . فعدم معرفتك البلاد وأهلها سيكون أدعى لان تكون فى تقريرك الذى سترفعه الينا غير متحيز لاحد أو ضد أحد ! . . وقد أنعمت عليك السموات بملكة « التمييز » ، وسأضيف الى هذه الملكة منحة أخرى سوف تسهل من مهمتك كثيرا ، وهذه المنحة هى « ثقة » الناس بك حتى تستطيع أن تتغلغل فى صفوفهم وتنفذ الى أسرارهم . . . فسر ، وتطلع ، وأنصت ، ودقق النظر . . . ولا تخش شيئا . . انك حيثما تذهب سوف تقابل بالترحيب . . !

فلسفة الحرب !

◆ أطاع « بابوك » أمر الآله الحاكم « أتوريل » وبدأ رحلته: فركب ظهر جمله وسار يصحبه خدمه المعينون لمرافقته ·· وبعد بضعة أيام قطعها فى السير فى الفيافى والقفار اذا به يلتقى بجيش العجم الزاحف لمقاتلة جيش الهنود فى سهول «سنار»·· واذ ذاك بدأ أولى مراحل التقصى والاستفسار : فرأى أن يوجه كلامه أولا الى أحد الجنود فى جيش العجم وكان جالسا فى مكان منعزل ، فتقدم « بابوك » منه يسأله عن السبب فى اندلاع نار هذه الحرب بين بلاد العجم والهنود ·· فأجابه الجندى :

ـ أقسم لك بجميع الآلهة أننى لا أعرف السبب ·· فان معرفته لا تعنينى فى قليل ولا كثير ·· **وانما الذى يعنينى من مهمتى كجندى هو شىء واحد : هو أن أقتل غيرى ـ أو أقتل أنا ـ لاكسب رزقى !! ·· واننى وان كنت جنديا فى جيش العجم الا أننى لا أكتمك بأنه لا يهمنى فى أى جيش أنخرط ، فاننى أستطيع مثلا أن أنخرط من الغد فى جيش الهنود المعادى لجيشنا ·· وفى نيتى هذا ·· لاننى سمعت ان الهنود يدفعون للجندى فى جيشهم نصف دينار أكثر مما يدفع لنا فى هذا الجيش العجمى اللعين !!** ·· فاذا كنت ترغب فى معرفة السبب الذى من أجله نقتتل ونحارب فعليك بسؤال الضابط ·· فهو رئيسنا ولعله يعلم أكثر مما أعلم ··

نفح « بابوك » الجندى بقليل من المال وتركـه ومضى ·· وتمكن فى غير صعوبة من أن يتسلل الى داخل المعسكر ويتعرف الى الضابط بعد وقت قصير فيسأله عن السبب فى اندلاع نيران هذه الحرب الضروس ·· فأجابه الضابط :

ـ كيف تنتظر منى يا سيدى أن أعرف السبب ؟ ثم ماذا يهمنى من معرفته ؟؟ ان كل ما أعرفه هو اننى سمعت ذات يوم ان الحرب قد أعلنت بين العجم والهنود ـ وكنت حينئذ أقيم فى بلدتى التى تبعد مئات الاميال عن هذا المكان ـ فتركت أسرتى

وجئت لاحارب ـ وفقا لعاداتنا ـ سعيا الى أحد شيئين لا ثالث لهما : المال أو الموت ! **ويجب أن تعلم ان السبب الحقيقى الذى حفزنى الى ذلك هو أننى متعطل عن العمل !**

وهنا سأله بابوك : « وزملاؤك ؟! أليسوا أكثر منك علما ودراية ؟؟ »

فأجاب الضابط : « **كلا ! ليس بيننا من يعرف لماذا يذبح أحدنا الآخر الا ضباطنا العظام !!**

استولت على « بابوك » الدهشة مما رأى وسمع • وعول على مقابلة الضباط العظام عله يظفر بمن يخبره بسبب هذه الحرب الطاحنة • وبعد وقت وجيز كان فى وسطهم ، فارتاحوا اليه وأنسوا له ، فقال له أحدهم :

نزاع على أقل من عشر فرنك !

ـ سبب هذه الحرب التى تجتاح آسيا منذ عشرين عاما كان فى البداية مشاجرة وقعت بين أحد خصيان زوجة الملك الكبير ، ملك العجم ، وبين أحد الموظفين فى ديوان الملك ـ الكبير أيضا ـ ملك الهند !! فقد تنازعا فيما بينهما على حق الاستيلاء على ضريبة كانت تقدر بنحو واحد على ثلاثين من الفرنك ! ودافع كل من رئيس وزراء الهند ورئيس وزرائنا عن حقه فى الاستيلاء على هذه الضريبة •• وتمسك كل من الرئيسين بوجهة نظره وحقه ، فاحتدم النزاع ، وما لبثت المعركة أن نشبت بين البلدين •• واذا بكل من الفريقين يجهز جيشا قوامه مليون مقاتل ، أصبح يزود كل عام بأربعمائة ألف مقاتل !•• **فالقتل ، والذبح والسلب والنهب ، والهدم والتخريب ، يتفاقم يوما بعد يوم •• والعالم يشقى والقتال يستمر والناس يحرقون فى أتون هذه الحرب كالهشيم ، فاذا ما سألت كلا من رئيس وزرائنا ورئيس وزراء الهند أجابك الاثنان معا بأن كلا منهما انما يلهب نيران**

هذه الحرب الطاحنة المدمرة لمصلحة الجنس البشرى واسعاد بنى الانسان !! وعند كل ذريعة من هذه الذرائع تعود القذائف الى الانطلاق ، فتدك مدنا ما تزال قائمة ، وتحرق قرى جديدة ، ويستشرى النهب والسلب والتخريب فى البلاد جميعا !٠٠ وقد حدث أن سرت ذات يوم شائعة بأن الصلح وشيك الانعقاد بين الطرفين المتقاتلين، فماكادت تصل الاشاعة الى القائدين ـ الهندى والعجمى ـ حتى سارع كل من ناحيته الى زيادة أوار الحرب اشتعالا لينهب كل منهما ما يمكنه نهبه قبل أن تضع الحرب أوزارها !! »

وعلى أثر انتهاء حديث الضابط شاهد بابوك ما اقشعر له بدنه من الاعمال الهمجية والحقارات البربرية ، لمناسبة قرب انعقاد ذلك الصلح المزعوم : رأى صغار الضباط يثورون ويفتكون برؤسائهم من الضباط العظام ، وغيرهم يذبحون بأيدى الجنود الذين هم تحت امرتهم !٠٠ ورأى جنودا يجهزون على زملاء لهم فى حالة النزع الاخير ليجردوهم من ملابسهم المكسوة بالوحل ويسلبوهم أشياءهم !٠٠ وذهب « بابوك » الى المستشفيات حيث كان الجرحى يعالجون فاذا بمعظمهم يلفظون أنفاسهم الاخيرة من فرط الاهمال الوحشى من المشرفين على علاجهم ، رغم ان الملك كان يدفع لهؤلاء المشرفين على ادارة تلك المستشفيات أجورا عالية للعناية بهؤلاء الجرحى ليس غير !٠٠ فلم يملك بابوك أن صاح وقد تملكه الذعر والاشمئزاز : « أهـؤلاء آدميون أم وحوش كاسرة ؟٠٠ اننى لعلى يقين الآن من أن مدينة (برسيبوليس) سوف تدك دكا ! »

الانسان مجموعة متناقضات !

◆ **وبينما** هو يسير شارد الفكر اذا به يرى نفسه داخل المعسكر الهندى المعادى ٠٠ فاستقبل هناك بنفس الترحيب الذى استقبل به فى معسكر العجم ٠٠ وأبصر فيه من الشناعات ماكاد

يوقف دقات قلبه من الفزع ، حتى لقد صاح مذهولا : « اذا كان الآله «أتوريل» الحاكم على منطقة العجم يريد استئصال شأفة العجم ، فأحرى بالحاكم على منطقة الهنود أن يستأصل شأفتهم كذلك !! »

على أن الذى حير (بابوك) وضاعف من دهشته ، انه وسط هذه الحقارات الآدمية ، رأى من أعمال البر والاحسان والجود والعطف على الجرحى والمصابين التى كان يأتيها بعض الناس فى المعسكرين ، ما أثار اعجابه حقا ، فهتف يقول : « أيتها المخلوقات الآدمية المعقدة ٠٠ انك عسيرة على كل فهم ! اذ كيف تستطيعين الجمع بين كل هذه الاوضار والخساسات ، وبين الاعمال الانسانية النبيلة السامية فى وقت واحد ؟! وكيف تستقر فى قرارك الفضيلة والرذيلة معا ؟! »

وأخيرا عقد الصلح بين الجيشين المتحاربين ، بعد بحور من الدماء أريقت ارضاء للمصالح الشخصية والنزوات الفردية ٠٠ وعندئذ راح كل فريق يشبع نهمه من الغنائم والاسلاب ٠٠ وكان اعلان الصلح بمنشورات أذيعت على الناس مبشرة بعودة السلام والهدوء والفضيلة والسعادة الى الارض !٠٠ فصاح بابوك متهللا : « ليتمجد اسمك يا رب السماء٠٠ ستكون برسيبوليس من الآن مقرا للطهر وموطنا للعفاف ومعقلا للفضيلة والاخلاق ٠ وعليه فانك يا رب السماء لن تسمح لهؤلاء الملائكة الاشرار أمثال « أتوريل » بهدمها وتقويض دعائمها ٠٠ فلنعد فى الحال الى تلك العاصمة الاسيوية لنراها فى عهدها الزاهر الجديد ! »

نفاق البشر فى أماكن العبادة !

◆ **عاد** بابوك الى مدينة برسيبوليس العظيمة بعد أن سادها السلام ، ولكنه دخلها فى هذه المرة من بابها الاثرى القديم الذى كانت قذارته تؤذى الابصار ٠٠ فبالرغم من اصرار الناس على

الثناء على كل شىء قديم فاننا يجب أن نعترف بأن المحاولات الاولى فى كل عمل انشائى تكون عادة بعيدة كل البعد عن الكمال والاتقان ٠٠ وما كاد « بابوك » يدخل المدينة حتى رأى نفسه وسط خليط من الناس مكون من كل ما هو قذر وقبيح من الجنسين معا ٠٠ ولفت نظره حشد من الناس يهرول مندفعا نحو مكان فسيح مظلم ٠٠ فتبعهم اليه ، واذا به يسمع منهم همهمة لا تنقطع ويراهم فى حركة لا تتوقف ٠ ولاحت منه التفاتة اليهم وهم يدفعون نقودا من الفضة لآخرين ليتمكنوا من الجلوس، فظن نفسه فى سوق مخصصة لبيع المقاعد ٠٠ **وأبصر عددا من النسوة راكعات فى ذلك المكان على ركبهن وهن يتصنعن التطلع الى الامام بينما هن فى حقيقة الامر يختلسن النظر الى الرجال الجالسين الى جوارهن !٠٠ فحار بابوك فى الامر ولم يدر أين هو، ولكن حيرته لم تطل لانه سرعان ما عرف انه فى أحد المعابد المخصصة للصلاة !!**

وبعد هنيهة دوت فى أذنيه أصوات خشنة منكرة تكاد تصم الآذان ترن فى أرجاء ذلك المعبد وهى تخرج من أفواه قائليها متعثرة غير متجانسة ٠٠ وما كاد يشرع فى أن يصم أذنيه كى لا يسمع حتى رأى انه مدفوع الى اغماض عينيه حتى لا يرى أيضا ، وسد أنفه حتى لا يشم !٠٠ فقد رأى عددا من العمال يدخلون ذلك المعبد حاملين فؤوسا على أكتافهم ، ثم يزحزحون حجرا ثقيلا من مكانه ويحفرون تحته حفرة كبيرة ويلقون بتراب الحفرة من على اليمين وعلى اليسار ٠٠ فتنبعث من الحفرة رائحة عفنة كريهة ، واذا بالعمال يلقون فيها بجثة ميت ويهيلون عليها التراب ثم يعيدون الحجر الثقيل الى مكانه الاول !٠٠ فصاح بابوك فزعا جزعا : « ماذا ؟ أو يدفن هؤلاء الناس موتاهم فى نفس المكان الذى يعبدون فيه آلهتهم ؟٠٠ ما أبشع أن ترصف المعابد بجثث الموتى ! انه لا يدهشنى بعد ذلك ما أراه من انتشار

الاوبئة التى تفتك بأهالى برسيبوليس !٠٠ ان رائحة الموتى العفنة ، مضافا اليها الرائحة العطنة التى تنبعث من الاحياء المكدسين فى الارض المحيطة بهم لكفيلة بأن تسمم جو الكرة الارضية ! آه من مدينة برسيبوليس هذه ، يظهر أن الآلهة محقة ان هى أرادت هدمها • فلعلها تريد أن تقيم مكانها مدينة أجمل وأنظف يسكنها اناس أقل قذارة من سكانها الحاليين ، اناس يستطيعون الموت والفناء بأسلوب أرقى وطريقة أحسن وأفضل! حقا ان للقدر مبرراته العميقة فى كل ما يعمل ٠٠ فلندعه يفعل ما يشاء ! »

دعوة للعشاء !

◆ **وشارفت** الشمس على المغيب ، وكان على « بابوك » أن يذهب لتناول العشاء فى الطرف الآخر من المدينة عند سيدة كان زوجها ضابطا من أصدقائه ، وكان قد سلمه خطابات لزوجته رجاه توصيلها اليها • وفى الطريق أخذ بابوك يجوس خلال شوارع المدينة ، فرأى معابد أخرى مشيدة على طراز أجمل من المعابد الاولى التى رآها فى الطرف المقابل لها • والتقى بأناس تبدو عليهم سيماء الادب والكياسة والوقار ، وأبصر بالشوارع فى تلك البقعة وقد ازدانت بنافورات المياه وبتماثيل دقيقة الصنع من البرونز للملوك الذين تعاقبوا على حكم البلاد ٠٠ ثم صادف فى طريقه قصرا فخما عرف انه مأوى للجنود الطاعنين فى السن والجرحى الذين أبلوا فى الحروب بلاءا حسنا ، وهم جميعا يتوجهون فى آخر أيامهم بالصلاة لآله الحرب ٠٠

وأخيرا وجد بابوك نفسه فى منزل السيدة التى كانت تنتظره للعشاء ، مع لفيف من المدعوين تبدو عليهم سيماء الاحترام والوقار ٠٠ وكان المنزل جميلا لا تنقصه الابهة ولا فخامة الرياش ، كما كان الطعام شهيا لذيذا • أما ربة الدار فكانت سيدة جميلة رقيقة الحاشية حاضرة البديهة لا تتعب من الترحيب بضيوفها

الذين كانوا جميعا يليقون فى مظهرهم بمجلسها .. فتمتم بابوك لنفسه قائلا : « ان الآله أتوريل ليسخر من العقول حقا ويتجنى على الحقائق ان هو فكر فى هدم مدينة فيها كل هذه المحاسن ، وهذه المفاتن ! »

ولم يطل به التفكير غير لحظات خاطفة حتى لحظ أن ربة الدار الفاتنة التى كانت منذ برهة قصيرة تسأله فى حنان ظاهر عن أخبار زوجها ، أخذت تتحدث قرب انتهاء العشاء ـ فى حنان أكثر ظهورا ـ الى أحد المدعوين وكان شابا من رجال الدين ! ثم حانت من بابوك التفاتة الى مدعو آخر ، وكان قاضيا وقورا ، فاذا هو قد ضم الى صدره ـ وفى حضور زوجته وعلى مرآى منها ومسمع !! ـ أرملة شابة من المدعوات ، فى حرارة لافحة !.. أما الارملة الشابة فكانت تطوق عنق القاضى الشيخ بذراع ، بينما مدت ذراعها الثانية الى شاب آخر كان بجوارها ، أخذ يدها بين يديه فى لهفة ونهم !.. أما زوجة ذلك القاضى الكبير فانها ، بدورها ، ذهبت الى حجرة مجاورة لتتجاذب أطراف « الحديث » مع رئيس زوجها !!.. ويظهر أن هذا الرئيس ، أو كبير القضاة ، كان على درجة عظيمة من البلاغة .. وقوة التعبير .. والشخصية .. وأنه أفاض عليها من سحر بيانه وقوة تعبيره وهما منفردان معا فى الحجرة المجاورة ، الى الحد الذى عادت بعده السيدة وقد التهبت وجنتاها ، وبدا عليها اضطراب واضح فى الكلام .. ولاحظ سائر المدعوين انها تكاد لا تقوى على المسير !!

حينئذ استولى الاشمئزاز على قلب بابوك ، وعاوده الاعتقاد بان الآله « أتوريل » هو دائما على صواب ! .. وكانت منحة « الثقة » التى خصه بها قبل رحلته ، سببا فى حظوته بثقة السيدة والنفاذ فى يسر الى تضاعيف قلبها وأسرارها .. فاعترفت له بغرامها برجل الدين الشاب ، وأكدت له أن ما يراه فى بيتها الآن ليس بدعا ولا حدثا شاذا خارقا لان نظيره وأكثر

منه يحدث فى بيوت جميع أفراد الطبقة الراقية فى مدينـة « برسيبوليس » !!٠٠ فاستنتج بابوك أن مجتمعا على هذه الصورة من القبح والتلوث لا دوام له ٠٠ وان الغيرة والشر وحب الانتقام لا بد أن تهدم دعائم الاسرة فيه ٠٠ وانه لا بد وأن يكون مسرحا لمآس خلقية بشعة تراق فيها الدموع، والدماء، والشرف !٠٠ وان الازواج ينتهى مصيرهم اما الى أن يقتلوا عشاق زوجاتهم أو يقتلهم هؤلاء العشاق !٠٠ وان « أتوريل » على صواب اذا هو هدم بقبضة واحدة ساحقة مدمرة مدينة كهذه المدينة تركت نهبا لهذا الانحلال الخلقى الوضيع !!

المناصب تباع وتشترى !

◆ **وبينما** هو غارق فى هذه الافكار المحزنة اذا به يفيق على رؤية رجل تبدو عليه سيماء الجد والرصانة ، متدثر بمعطف أسود ، وقد جاء يبغى مقابلة قاض شاب كان ضمن المدعوين الى الحفلة ٠٠ فسمح له بالمقابلة ، وأخذ يتحدث الى القاضى الشاب الذى سلمه بكبرياء وغطرسة بعض الاوراق دون أن ينظر اليه أو يعيره أدنى التفات ، ثم أمره بالانصراف !٠٠ فسأل بابوك : من يكون هذا الرجل ؟٠٠ فأجابته السيدة بصوت خافت : «انه من أكبر المشرعين فى البلد ، وقد قضى خمسين عاما وهو عاكف على دراسة القانون ٠٠ وكان هذا القاضى الشاب ، البالغ من العمر خمسة وعشرين عاما ــ والذى عين فى وظيفته منذ يومين اثنين فقط ! ــ قد طلب اليه أن ينسخ له محاضر قضية يجب أن يحكم فيها ، وأن ينير له الطريق الى كيفية الحكم ٠٠ لانه لم يدرسها بعد !! » فقال بابوك : « ان هذا الجاهل يحسن صنعا اذا هو استشار ذلك الشيخ المشرع العالم ٠٠ **ولكن لماذا لا يكون هذا الشيخ نفسه قاضيا ما دام هو من العلماء وأفذاذ القانون ؟» ٠٠ فأجابه أحد الحاضرين : « انك لتمزح حين تقول هذا القول، فاولئك الذين شابت نواصيهم فى الاعمال التى تتطلب الكد**

والكدح وأعمال الفكر ، لن يستطيعوا الوصول الى المناصب الرفيعة ‥ فهذا القاضى الشاب يشغل منصبه الرفيع هذا لان أباه من الاغنياء !‥ وفى بلدنا هذا لا يمنح حق اعتلاء منصة القضاء الا لمن يدفع فيه أغلى ثمن !!

فصاح بابوك: « ياالضيعة الاخلاق فى هذا البلد التعس!! انها الفوضى المجسمة ‥ فهؤلاء الذين يشترون حق اعتلاء منصة القضاء بأغلى ثمن ، لا شك يبيعون هذا الحق لمن يدفع فيه أغلى ثمن من المتقاضين !‥ واننى لابصر أمامى هوة سحيقة قد فغرت فمها لتبتلع أبشع أنواع المظالم ! »

الموت من أجل الامبراطور !

◆ وبينما بابوك غارق فى الالم والدهشة ، اذا هو يفيق على صوت انسان – وكان جنديا عاد أخيرا من ميدان القتال – يوجه اليه السؤال الآتى : « لماذا لا يروقك يا سيدى أن يشترى فى بلدنا حق القضاء بالمال ؟! لقد اشتريت أنا حق مواجهة الموت بالمال ‥ فقد كنت على رأس فرقة مكونة من ألفى مقاتل ، وقد دفعت مقابل تولى قيادتها مبلغ أربعين ألف دينار من الذهب ‥ فى مقابل أن أفترش الارض فى ميادين القتال ثلاثين ليلة على التعاقب ، أصاب أثناءها باصابتين بالغتين ما زال صدرى يتمزق بسببهما من الالم ‥ فاذا كنت قد ألقيت بنفسى الى التهلكة لاخدم امبراطورا لم يقع بصرى عليه ، فلهذا القاضى الشاب الحق فى أن يدفع أى مبلغ من المال ليحصل على متعة الانصات الى المرافعات أمام الجماهير ! »

أحس بابوك عند سماعه هذا بقشعريرة تستحوذ على بدنه كله ، ولعن بلدا توضع فيه مناصب القضاء والجيش ، ومصائر السلم والحرب ، فى سوق المزايدات !‥ ان «أتوريل» لن يكلف نفسه فى هذه المرة مشقة استئصال شأفة هذه المدينة ، لان سوس الفساد الذى ينخر فى عظامها كفيل بتقويض دعائمها ، وازالة معالمها !

وزاد سوء ظنه بالمدينة وأهلها عندما رأى رجلا ضخم الجثة يدخل فى تلك اللحظة ويحيى الضابط الشاب ثم يتجاذب واياه أطراف الحديث ويعتذر اليه من عدم استطاعته اقراضه الا خمسين ألف دينار من الذهب فقط لان مصلحة الجمارك التى كان الرجل البدين قد تعاقد مع الحكومة على « شرائها » منها لم تدر عليه فى ذلك العام الا ربحا « ضئيلا » لم يزد على ثلثمائة ألف دينار من الذهب ٠٠ فقط !

وبعد تناول طعام العشاء توجه بابوك الى معبد جميل من معابد المدينة وأخذ مجلسه بين عدد من الرجال والنساء حضروا الى ذلك المعبد « لتمضية بعض الوقت » !٠٠ **ووقف أحد رجال الدين على منصة عالية فى المعبد ثم أخذ يتكلم طويلا عن الفضيلة والرذيلة، ويقسم موضوعه الى عدة أقسام ، بينما الموضوع لا يحتمل التقسيم !٠٠ ويبرهن بأسانيد قوية على أمور لا تحتاج الى برهان !٠٠ ويعلم الناس ما هم فى غنى عنه لانهم يعلمونه جيد العلم !٠٠ ويتحمس فى فتور وقد بلله العرق ٠٠ عندئذ أفاق الحاضرون من الرجال والنساء وقد خيل اليهم أنهم كانوا يستمعون الى موعظة !!** ٠٠ فتمتم بابوك لنفسه قائلا : « لقد بذل هذا الرجل جهدا كبيرا ليرهق أعصاب مائتين أو ثلثمائة من مواطنيه ٠٠ ولكنه كان حسن النية والمقصد على أى حال ، لانه لا يبغى من صنيعه الا الخير ٠٠ واذن فليس هناك من سبب ولا ذريعة يتذرع بها (أتوريل) فى هذه الناحية لاهلاك برسيبوليس !! »

التجار وفلسفة الغلاء !

ومن هناك قصد بابوك الى بعض تجار التحف الرخيصة فى صحبة صديق له من أذكياء المدينة كان قد تعرف اليه ، فابتاع من هذه الحلى الرخيصة ما راقه ٠٠ ولكن التاجر أرغمه بأدبه وملقه على أن يبتاع من بضاعته أكثر مما يريد ! فلما عاد بابوك

وصديقه الى المنزل أراه الصديق كيف أن التاجر قد غشه ، فسجل بابوك اسم التاجر فى مفكرته الخاصة حتى لا ينساه ، وحتى يلفت اليه نظر (أتوريل) بصفة خاصة فى اليوم المعد لعقاب المدينة ٠٠ وبينما هو يدون اسمه اذا به يسمع قرعا على الباب ، وكان القادم هو التاجر الذى غشه ٠ جاء الى بيت بابوك ليرد اليه حافظة نقوده التى كان قد نسيها فى متجره !٠٠ فلم يتمالك بابوك نفسه من أن يصيح فى وجه التاجر قائلا : «كيف يمكن أن يكون تاجر غشاش مثلك على هذه الدرجة من الامانة ؟؟ انك لم تتورع عن أن تبيعنى بضاعتك بأربعة أضعاف ثمنها الحقيقى » !!٠٠ فأجابه التاجر : « ليس فى هذه المدينة كلها تاجر واحد كان يتردد فى أن يعيد اليك حافظة نقودك اذا كنت قد نسيتها فى متجره ٠٠ ولكنهم خدعوك اذ قالوا لك اننى بعتك هذه الاشياء بأربعة أضعاف ثمنها الحقيقى ٠٠ اذ الحقيقة اننى قد بعتك اياها بعشرة أضعاف هذا الثمن ! والدليل على صدق ما أقول انك اذا أردت أن تبيع بدورك هذه التحف الرخيصة بعد شهر فانك لن تحصل على عشر الثمن الذى دفعته فيها ! **ولست** أرى يا سيدى فى هذا غشا ولا سرقة ٠٠ فان مزاج الانسان ، **ورغبته فى الشىء ، وتعلقه به ، وهواياته ، هى التى تحدد ثمن السلعة وترفع من قيمتها ٠٠ وان هذا التعلق والغرام والولع بالتوافه هو الذى يدر الرزق على مائة عامل يعملون فى متجرى فى صنع هذه التحف ٠٠ وهو الذى يدر على من الارباح مايجعلنى فى رغد من العيش ٠٠ فبفضل هذه الهوايات والتعلق بالاشياء التافهة أسكن فى منزل فخم ، وأركب عربة تجرها الجياد المطهمة ٠٠ الخ ـ ولا تنس يا سيدى ان هذه الهوايات هى الحافز الاول على ازدهار كل الصناعات وتهذيب الذوق الانسانى والاكثار من التداول والانتاج ٠٠** كل هذا مصدره مزاج الانسان وتعلقه بالبهرج والزخرف وحبه للمتعة والراحة ٠٠ واننى لابيع

هذه الزخارف التافهـــة للامم المجاورة بأغلى من الثمن الذى اشتريتها أنت به منى ٠ وبهذا أعتقد أننى رجــل نافع لبلدى ومفيد للامبراطورية !! »

فلما أمعن بابوك الفكر فيما سمع ، قرر أن التاجر على صواب ٠٠ وعليه فقد شطب اسمه من مفكرته التى كان يزمع عرضها على الآله أتوريل !

مكافأة « سخية » ٠٠ للعفة و « الزهد » !

◆ **واستولت** على (بابوك) حيرة شديدة ، وبدأ يتأرجح فى القرار المزمع اتخاذه نحو مدينة (برسيبوليس) ٠٠ فان التناقض والتعارض واختلاط الامور ، خيرها وشرها ، ليس مما يساعده على اتخاذ قرار حاسم ٠٠ ومن ثم عول على اللجوء الى الحكماء من رجال الدين ، عساهم يساعدونه فى مهمته العسيرة ويعينونه على استصدار عفو عن المدينة ، رغم ما فيها من أخطاء وعيوب !

وهكذا قصد فى صبيحة اليوم التالى الى احدى كليات الدين وقابل اسقفها الذى يدير شؤونها ، فاعترف له الاسقف بأنه يتمتع بدخل سنوى قدره مائة ألف فرنك لانه تعهد بأن يعيش فى طهر وعفاف ! وان تعهده ـ فوق ذلك ـ بأن يعيش فى وداعة وتواضع ، قد مكنه من أن يبسط سلطانه على كثيرين !

وبعد أن فرغ الاسقف من الحديث مع بابوك استدعى أحد تلاميذ الكلية وأمره بأن يعنى بالضيف القادم ، **فأخذ التلميذ يجوس معه خلال ذلك « القصر » المنيف الذى شيد ليلجأ اليه الناس الذين يرغبون فى عيشة « الزهــد » واذلال النفس ! فارتعدت فرائص بابوك مما رآه فيه : فقد رأى اناسا مفروض فيهم الزهد والتقشف والحكمة ٠٠ فاذا بحكمائهم مثال للجهل ، وزهادهم مثال للجشع ، وودعائهم مثال للطغيان والجبروت ٠٠ واذا جميع سكان هذا القصر الشامخ يحيون فى جو مسمم مشبع بالدسائس والضغائن والاحقاد والبغضاء !** ٠٠ فخرج بابوك من

الدير مؤمنا ايمانا عميقا بأن (أتوريل) قد أصاب عين الصواب حين أزمع هدم تلك المدينة على رؤوس ساكنيها !

أدباء ذلك العصر !

◆ **وعاد** بابوك الى بيته حائرا آسفا فارسل فى شراء بعض الكتب عسى أن يكون فى اطلاعه على ثمار الادب ونتاج القرائح ما يخفف من ألمه ٠٠ وفى الوقت ذاته رأى أن يدعو بعض الادباء الى بيته لتناول طعام العشاء فقد يجد فى صحبتهم ما يؤنس تلك الوحشة ويملأ ذلك الخواء الذى يستشعره فى أعماق نفسه ٠٠ فلبى دعوته ضعف العدد الذى دعاه، مثلهم مثل الزنابير التى تتجمع حول الشهد !٠٠ واندفع هؤلاء الطفيليون فى الاكل والكلام اندفاعا ٠٠ ولفت نظر بابوك من حديثهم بنوع خاص انهم **كانوا يخصون بالثناء فريقين من الناس لا ثالث لهما: أنفسهم أولا ومن مات من الكتاب ثانيا ! فلم يفه واحد منهم بكلمة ثناء واحدة على أحد من المعاصرين الاحياء الا رب الدار!! فاذا بدرت من أحدهم ملاحظة تدل على الفطنة والذكاء ، أو سمو التفكير ، غض الباقون طرفهم وهم يعضون شفاههم ويصرون على أسنانهم حسدا له ، لانهم لم يسبقوه الى ما قال !** ٠٠ وكانت قدرتهم على اخفاء مشاعرهم وضبط أعصابهم أضعف من قدرة القساوسه ورجال الدين، لان أطماع الكتاب مهما تشعبت فهى أقل من أطماع رجال الدين ! ٠٠ وأخذ بابوك يصغى اليهم وأحدهم يسب الآخر فى خبث وهو يظن أنه انما يقول سحرا من البيان ودررا من الحكمة وآيات فيها فصل الخطاب! وكان قد نمى الى علمهم طرف عن المهمة التى بعث من أجلها بابوك ٠٠ فمال أحدهم على أذنه يهمس طالبا اليه أن يقتل أحد الكتاب لانه نشر منذ خمس سنوات مقالا فى احدى الصحف لم يخصصه كله للثناء على عبقريته والاشادة بألمعيته !٠٠ وطلب اليه مؤلف آخر أن يهدر دم أحد مواطنيه لانه لم يضحك ولا مرة واحدة عند مشاهدته

احدى مسرحياته الكوميدية ! ٠٠ وطلب اليه ثالث ازالة معالم « الاكاديمية الادبية » من الوجود لانه رغم ما بذل من مساع لم ينجح فى أن يعين عضوا فيها !

وعندما دنت ساعة الانصراف راع بابوك أن يراهم وقد انصرفوا جميعا فرادى لانه لم يكن بين هذا الجمع الحاشد من رجال الادب وحملة الاقلام اثنان يطيق أحدهما اصطحاب الآخر أو التحدث اليه ، الا اذا استثنينا بيوت الاغنياء التى كانوا يدعون اليها لتناول الطعام ! ٠٠ عندئذ قرر بابوك انه لن يحدث أى ضرر من ابادة هذه الحشرات الخبيثة عندما يحين أوان تقويض دعائم مدينة برسيبوليس !

أبشع جريمة ٠٠ !

وما كاد يخلو بابوك الى نفسه بعد انصراف هؤلاء الدجالين المشعوذين حتى بدأ يقرأ بعض الكتب التى ألفوها ، **فهاله أن يرى بين يديه لا ثمارا من ثمار الفكر الرفيع بل مستنقعات آسنة يظنها الناس محيطات متلاطمة الامواج ٠٠ وروعه أن يرى نتاج الفكر لا يزيد على سلعة لابتزاز المال والثراء الحرام بتزييف صناعة القلم وتسميم مناهل العلوم ٠٠ وهى جريمة تزيد فى نظره بشاعة على كل ما عداها :** تزيد على جشع المرابين وشراء مناصب القضاء والجيش التى قد تنجح فى بعض الاحايين فى اعداد قواد قادرين وقضاة فقهاء ٠٠ بل تزيد فى بشاعتها على النوازع والشهوات والدسائس والحقارات التى رآها فى أوساط رجال الدين لان هؤلاء ولا شك يعملون كثيرا لتنوير الناس وحضهم على الفضائل !

نعم! فليست هناك جريمة أبشع ولا أشنع من جريمة السطو على الفنون ومسخ معالم الآداب وتشويه جمال الفكر الانسانى الرفيع باقحام هذه البضاعة الفجة المزجاه عليه ونسبتها اليه ٠٠ وعرضها ممسوخة شائهة فى ساحات العلوم والفنون والآداب !

فى مكتب الوزير !

◆ **ولما** كان بابوك قد أراد أن يجعل من تقريره سجلا وافيا وصورة كاملة صحيحة لكل ما يجرى فى المدينة ، فقد عول على أن يقابل أحد الوزراء · ووصل الى مكتب الوزير فى سهولة ·· وما ان استقر به المقام فيه حتى ألفاه غاصا بالزوار والمنتظرين من أصحاب الحاجات والوساطات ، من جميع الطبقات : من النساء والرجال ، والقضاة والحكام ، والتجار والمحامين ورجال الاعمال··وطال به الانتظار ساعتين كاملتين امتدتا الى ساعتين أخريين ، دون أن يسمح له بالمثول بين يدى الوزير ··فاستشاط بابوك غضبا وعول على رفع أمر هذا الوزير وحجابه الوقحاء الى (أتوريل) ! ولم يكن وحده الذى ضج بالشكوى بل شاركه فيها جميع المنتظرين فى مكتب الوزير ·· **وزاد الآخرون عليه انهم لم يتورعوا عن سب الوزير وكيل اللعنات له··وخاصة النساء اللواتى كن فى غضبهن يتمنين لو أحلت الدولة مكانه وزيرا من الشبان !** غير ان بابوك ثاب الى رشده واستعرض الحقائق بعيدة عن المؤثرات النفسية والشخصية فقال : « ان هذا الوزير لمن السعداء حقا ، فقد ساق الله أعداءه اليه ووضعهم عند موطىء قدميه · وهاهم ينتظرون « لفتة » منه ! وقد جعله الله فى مركز يستطيع فيه الانتقام منهم ومن جميع لاعنيه وحاسديه !! »

وبعد طول الانتظار سمح له بالدخول الى مكتب الوزير ، فرأى أمامه شيخا وقورا أثقلته الاعباء والسنون · وأخذ الوزير يشكو الى بابوك الدنيا والناس والايام : **شكا له ظنون الناس انه غنى وهو فقير ! ·· ثم استطرد فى شكواه قائلا : « اننى رجل تعس ، وقد طالما اسديت خدمات الى جاحدين ·· والناس يحسبوننى قويا قادرا على كل شيء ، مع اننى أحارب فى عقر دارى ومقر عملى ، من جانب زملائى الحانقين الحاسدين ! »**



مست الرحمة قلب بابوك على هذا الوزير التعس ، الضعيف القوى، الفقير المحسود، والمجهد المكدود .. فاعتزم أن يسجل ما رآه وسمعه فى تقريره الذى قرر رفعه الى (أتوريل) !

وبينما كان بابوك يتجاذب أطراف الحديث مع الوزير ، اذا بالباب يفتح فجأة وتدخل منه المرأة التى كان بابوك قد تناول عندها طعام العشاء منذ أيام! .. دخلت المرأة وقدتملكها الغضب والالم وانفجرت توجه أقسى عبارات اللوم والتقريع الى الوزير .. واستبد بها الغضب فلم تتمالك مشاعرها وأجهشت بالبكاء . وحين تمالكت نفسها قالت توبخ رجل الحكم العجوز : « انك رفضت أن يتولى زوجى منصبا من حقه أن يتولاه بحكم ثقافته وعراقة نسبه ، خصوصا وانه كان من الجنود الشجعان الذى أبلوا بلاءا حسنا وأصيبوا فى ميادين القتال .. »

وكانت المرأة تعبر عن مشاعرها بقوة وحماسة وبلاغة متدفقة دلت على مقدار غيرتها على زوجها وحرصها على صالحه ومستقبله .. ثم أبت أن تغادر حجرة الوزير الا بعد الحصول على وعد منه برفع الغبن عن زوجها ورد حقه اليه !

الزوج .. والعشيق !

وعندما همت المرأة بالخروج وقف بابوك يحييها مشدوها مذهولا ، ومد يده اليها قائلا : « اننى ياسيدتى لا أكاد أصدق ما أرى وما أسمع! اذ كيف تكلفين نفسك كل هذه العناء من أجل رجل لا تحبينه ، بل يدل مسلكك نحوه على أن لديك من الاسباب .

ما يجعلك تكرهينه وتخشين بأسه !؟ »

فأجابت المرأة فى جراة مقرونة بالدهشة أيضا : «**ماذا تقول؟! زوجي لا أحبه ؟! فلتعلم ياسيدى ان زوجي هو أعز صديق عندى فى الوجود٠٠وانني مستعدة لان أضحي فى سبيله بكل شيء٠٠ ما عدا عشيقى !! وهو بدوره مستعد لان يضحي فى سبيلي بكل شيء ٠٠ ما عدا عشيقته الحسناء أيضا !! أو لم يسبق لك أن عرفت عشيقته ياسيدى ؟ ٠٠ دعنى اذن أقدمك اليها ، وسترى انها فاتنة ذكية حاضرة البديهة ذات أخلاق فاضلة نبيلة !!** اننا سنتناول الليلة طعام العشاء معا : هى وزوجى ، وصديقى الذى أحبه وأنا ٠٠ فهلا حضرت الليلة لتشاركنا فى هذه السهرة الممتعة ؟! »

المرأة الساقطة ٠٠ دعامة العظماء !

وأمام اصرار الزوجة على أن يلبى بابوك دعوتها للعشاء ، لم يجد مناصا من القبول ٠٠ وتوجه الى منزلها فى المساء فى الموعد المضروب ٠ وحين التأم الشمل لاحظ بابوك ان الزوج يرمق زوجته بنظرات الحنان وعرفان الجميل !! ورآه يقبلها أولا ٠٠ ثم يقبل عشيقته ثانيا، ثم صديق زوجته أخيرا ! ٠٠ وكانت السهرة ممتعة حقا ، أشاعت الزوجة فى جوها البهجة والمرح والسرور ٠٠ وكأنها لاحظت الدهشة المستولية على بابوك فمالت عليه تهمس فى أذنيه قائلة : « فلتعلم جيدا ياسيدى ان ماتدعونه بالمرأة « الساقطة » أو المرأة الخائنة ، انما هى الدعامة التى يقوم عليها الرجال العظماء فى أغلب الاحايين ! ٠٠ ولكى أقنعك بهذه الحقيقة تعال معى غدا لنتناول طعام العشاء عند «تيون» ! ألا تعرف من هى « تيون » ؟ انها امرأة محسنة نقية الضمير مرهفة الاحساس سباقة دائما الى فعل الخير ٠٠ وان لها الفضل فى تكوين عشيقها ورفعه الى أسمى المناصب ، حتى أنه الآن ليحمر خجلا أمامها اذا ترك ـ هو بدوره ـ فرصة لفعل

الخير لم يقتنصها ٠٠ وذلك لعلمه بمقدار ما يجلب لها هـذا العمل من السرور ٠٠ **فقد لا تعلم ياسيدى ان ليس هناك حافز لاتيان الاعمال النبيلة المجيدة أقوى من ذلك الحافز الذى يحس به الانسان حين يعلم ان كل عمل حسن يأتيه انما هو محل تقدير واعجاب المرأة التى يعشقها ويبتغى رضاها !** »

ولم يشأ بابوك ان يتخلف عن هذا الموعد الشائق ، فذهب الى حيث وجد نفسه فى منزل المدعوة « تيون » ، التى أشاعت فى الجو بمرحها بهجة وسرورا بالغين ٠ كانت امرأة فاتنة حقا ، ذكية حقا ، مهذبة حقا ، وكانت تاج الحفلة وروحها ، وقـد أخذت تتحدث الى كل فرد من مدعويها باللغة التى يهواها ٠٠ وبسطت على المكان جوا من البساطة والالفة ، وعدم الكلفة ٠٠ وكانت فى كل حركاتها طبيعية لا تتصنع ولا تتكلف، فبهرت المدعوين جميعا !

وفى حضرة هذه المرأة الجميلة ، أحس بابوك ــ لاول مرة ــ بأنه اذا طال به المقام فى (برسيبوليس) فانه سينسى المهمة الخطرة التى كلفه بها (أتوريل) ! ٠٠ وبدأ يشفق على المدينة المهددة بالفناء ، حتى لقد تغلب عطفه عليها على بغضه لبعض ما يجرى فيها ! آه من هذه الفاتنة «تيون» ، انه ليتردد الآن في اعداد التقرير الذى أمره (أتوريل) باعداده عن هذه المدينـة وأهلها ، فى غير تحيز ولا محاباة !!

معدن الانسان !

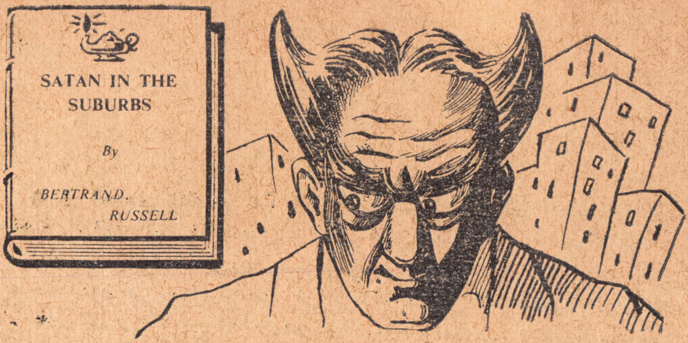
وألفى بابوك نفسه فى هذا المأزق الضيق : فهو لا يريد لهذه المدينة أن تهلك وتدمر وتهدم على رؤوس ساكنيها٠٠ كما انه لا يريد أن يتخلى عن المهمة التى كلف بانجازها ! ٠٠ وبعـد حيرة وامعان فكر ، عمد الى طريقة ماكرة خبيثة تخرجه من هذه الورطة : فقد ذهب الى أمهر صانع للتماثيل فى المدينة وطلب اليه أن يصب له تمثالا مخلوطا من جميع المعادن : من كل معدن

نفيس ، ومن كل معدن رخيص ٠٠ من الجواهر الحرة الغالية، والحلى البخسه المزيفة ٠٠ من الماس والياقوت والمرجان ٠٠ ومن الخزف المتفتت الذى لا يقوى على لمس اليدين ! ٠٠ أوصاه أن يصب له التمثال خليطا من كل هذه المعادن ، والنفائس ، والتوافه ! فلما أتم له المثال صنع التمثال كما أراده تماما ، حمله بابوك وعاد أدراجه الى الآله (أتوريل) ، فقدمه اليه خاشعا وهو يقول : « **أتراك يامولاى ستحطم هذا التمثال الجميل الدقيق الصنع ، لانه ليس مصنوعا كله من الماس والذهب ، والياقوت والمرجان ؟؟** »

فأطرق (أتوريل) مليا ، وفكر فى الامر طويلا ٠٠ وأخيرا قر رأيه على أن يعدل عن فكره اهلاك مدينة برسيبوليس ! بل لقد عدل حتى عن فكرة تأديبها ، وعول على أن يترك « العالم كما يسير» ! لانه ــ كما قال ــ : «اذا لم تكن الامور تسير كلها على الوجه الاكمل ، فانها تسير على الاقل على الوجه المحتمل ! »

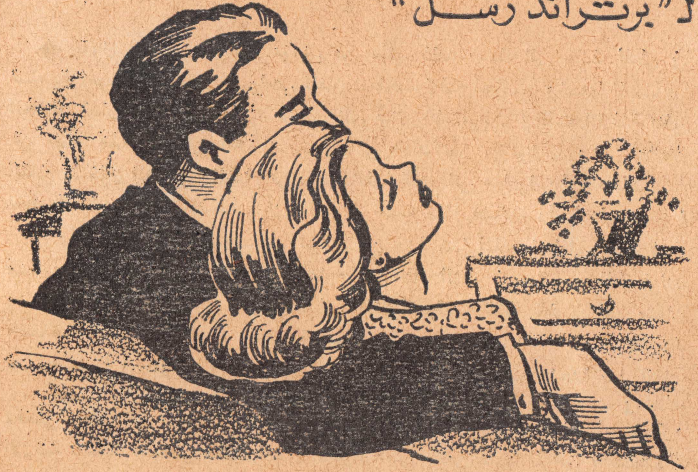
أما بابوك فانه لم يتذمر من صدور هذا القرار ٠٠ ولم يفعل كما فعل النبى (يونان) ــ يونس ــ من قبله عندما تذمر من عدم اهلاك مدينة (نينوى) !

غير أن الفارق بين الاثنين ــ بابوك ويونان ــ كبير : فليس مزاج الذى يعيش ثلاثة أيام فى بطن « حوت » ، كمزاج الذى يذهب الى الاوبرا ، والمسارح ، ودور الملاهى ٠٠ ويقضى لياليه فى صحبة الغانيات !



الشيطان على الأرض!

لـ "برتراند رسل"



هذه القصة ..

◆ فى العددين الماضيين من (كتابى) قدمت لك الفصلين الاولين من هذه القصة الرائعة التى فاجا بها العالم فى مطلع هذا العام الفيلسوف المعاصر «برتراند رسل» ، الفائز بجائزة نوبل فى الادب عن سنة ١٩٥٠ ... أقول «فاجا» العالم لان رسل لم يعود قراءه طيلة الثمانين عاما المنصرمة من حياته أن يكتب قصصا ، بل كان نشاطه وأدبـه قاصرين على الفلسفة والابحاث النفسية والاجتماعية .. لذلك كان بدعا منه أن يدلى بدلوه فى أواخر عمره فى ميدان جديد عليه .. وبرغم ذلك فقد جاءت القصة تحفة نادرة المثال ، بحيث اشفقت ان افقدها بالتلخيص الموجز شيئا من جمالها ، فآثرت أن اقدمها اليك فى تلخيص مطول أقرب الى الترجمة الكاملة ، مما اضطرنى الى تجزئتها الى أجزاء ثلاثة ، تقرأ الثالث والاخير منها فيما يلى ..

ولكن قبل أن نسترسل فى رواية القصة ، يحسن أن أذكرك – فى سطور – بما سبق نشره منها :

❊

◆ يقول الراوى : «عند عودتى من عملى ذات مساء الى حيث أقطن فى ضاحية (مورتليك) – من ضواحى لندن – لمحت لافتة نحاسية وضعها المستاجر الجديد لدار كنت أمر بها فى طريقى الى بيتى كل يوم . وكانت اللافتة تعلن عن مهنة هذا الساكن الجديد – ويدعى «الدكتور ملاكو» – وهى معالجة الذين يشكون الضجر والسأم من الحياة بارشادهم الى مغامرات أو «مخاطرات» تعطى لحياتهم طعما جديدا ، أو بالاحرى تقلب نظام حياتهم رأسا على عقب !

وأثارت اللافتة فضولى .. ثم زاد من حدة هذا الفضول اننى لمحت ذات مساء جارى «مستر أبركرومبى» خارجا من تلك الدار فى حال من الاضطراب والشرود تلفت النظر !.. وفى الليالى التالية رأيت ثلاثة آخرين من سكان الضاحية فى نفس المكان ، ونفس الاضطرب !.. ثم علمت بعد أيام أن الاربعة قد احتجبوا فى بيوتهم فى ظروف غامضة ، فمضيت لزيارتهم واحدا بعد الاخر .. لكنهم أبوا جميعا أن يفصحوا لى عما أصابهم فبدل حالهم .. وعندئذ دفعنى القلق الى زيارة الدكتور ملاكو نفسه ، لعله يشرح لى جلية أمر زواره الاربعة ، لكنه صدمنى معتذرا بأن الاسرار التى يأتمن عليها المرضى «أطباءهم»

لها حرمة الاعتراف الدينى !.. وهكذا قنعت مرغما بانتظار ما تأتى به الايام .. حتى فوجئت ذات يوم بنبأ القاء القبض على أولهم «مستر أبركرومبى»، ثم بنبأ انتحار الثانى «مستر بوشامب» !.. ومن حديثى مع الاول فى سجنه، ومن الرسالة التى تركها الثانى للمرأة التى أحبها ، وقفت على مأساتيهما :

الضحيـة الاولى ..

وتتلخص مأساة الاول - وكان مديرا لاحد المصارف ومرشحا لعضوية البرلمان - فى أن الشيطان الارضى «الدكتور ملاكو» قد أغراه باختلاس مبلغ كبير من المال ومحاولة الصاق التهمة بأحد مرؤوسيه ، لكن أمره كشف فقضى على مستقبله وزج به فى السجن !

الضحية الثانية !

أما الضحية الثانية - وكان رجلا فاضلا يعيش من توزيع الكتب الدينية - فتتلخص مأساته فى أنه وقع فى حب امرأة لعوب ، فلما ذهب يستشير الدكتور ملاكو فى كيفية اغراء هذه المرأة بأن تبادله حبه ، هداه «الشيطان الارضى» الى أن نجع وسيلة لكسب المرأة هى اغداق المال عليها بلا حساب .. أما كيفية الحصول على هذا المال فليس أبسط منها : ففى وسع الرجل أن يتفق مع أحد ناشرى الكتب المبتذلة والمطبوعات المريبة على أن يتقاضى منه اجرا كبيرا نظير الدعاية لمطبوعاته باعتبارها نماذج تشرح لقراء الكتب الدينية ماهية الخطايا التى تحذرهم منها كتب الدين !

وبعد معركة رهيبة بين ضمير الرجل وبين اغراء هذا الشيطان ، انتصر الاخير .. فوقع مستر بوشامب فى الفخ ، وأعد عدته لتنفيذ ذلك الاتفـاق الشائن .. لكن أمره انكشف بواسطة بوليس الآداب ، فلم يجد التعس مخرجا ينقذه من السجن والعار سوى الانتحار .. ففعل ، بعد أن ترك رسالة وداع للمرأة التى أحبها وارتكب من أجلها ما ارتكب ، يشرح لها فيها مأساته ..

الضحية الثالثـة

◆ بعد هذا المصير المفجع لمستر بوشامب ، انقضت اسابيع قبل أن اقف على ما جرى للضحية الثالثة «مستر كارترايت» ، وكان مصورا «فوتوغرافيا» شهيرا ذهب يستشير الشيطان الارضى الدكتور ملاكو فى طريقة يتخلص بها من الضرائب الباهظة التى تبتلع جزءا كبيرا من ايراده .. فاغراه الشيطان باتباع خطة «جهنمية» توصله الى غرضه : كلف مساعدته الفاتنة بترقب

وصول الشخصيات الاجنبية البارزة فى مداخل الفنادق الكبرى التى يحلون بها ، ثم التظاهر أمام النزيل «الدسم» منهم بالاغماء ، كى يخف لنجدتها .. وفى اللحظة التى يحيطها فيها بذراعيه ليحميها من السقوط ، يلتقط المصور الماكر ــ الذى يكون مترصدا لهما ــ صورتهما فى هذا الوضع الفاضح !.. وفى اليوم التالى يمضى لزيارة صاحبنا فى جناحه بالفندق ومعه نسخة مطبوعة مكبرة من الصورة الملتقطة ، ثم يسأله عن المبلغ الذى هو مستعد لدفعه ثمنا للحصول على أصل الصورة وجميع النسخ التى طبعت منها ! فاذا كان الضحية سياسيا أمريكيا مثلا أو رجلا بارزا من رجال الدين ، لم يتردد فى دفع مبلغ كبير اتقاء للفضيحة !

وكان الضحية الاولى لهذه الخطة الجهنمية اسقف انجليزى يعمل فى أواسط أفريقيا ، وكان يزور لندن لمناسبة عقد مؤتمر دينى كبير فيها .. وسار كل شىء طبقا للخطة المرسومة : فسقطت الحسناء بين ذراعى الاسقف الوقور ، وأحاطت الذراعان بجسمها اللين دون ادنى اجفال ظاهر ! وبرز مستر كارترايت من مكمنه فى اللحظة المناسبة ، ثم زار الاسقف فى جناحه فى اليوم التالى حاملا اليه معه صورة كبيرة «معبرة» !.. وكان الثمن «المتواضع» الذى طلبه المصور من الاسقف ثمنا لتلافى الفضيحة الف جنيه كاملة .. عجز المسكين عن دفعها فأعطى دائنه كمبيالة بها على أقساط !

لكن الاسقف لم يقبل الهزيمة صاغرا ، بل راح يقدح زناد فكره حتى اهتدى الى خطة للانتقام ، نفذها فورا : فارسل ممثلا مغمورا (كان شديد الشبه بالسفير السوفيتى) ليقابل المصور ويسلمه ظرفا «فارغا» مكتوبا عليه باكبر خط : «بداخله عشرة ملايين روبية» ، وفى اللحظة التى مد فيها المصور يده لاستلام الظرف ، التقطت له صورة !.. وانقلب الموقف ، فصار الاسقف هو المتحكم الذى يملى شروطه ، ويتقاضى ثمن سكوته عن ابلاغ السلطات !.. وهكذا استرد صاحبنا كمبيالة دينه ، وفرض على المصور أن يواصل تجارة التقاط الصور الفاضحة وابتزاز أموال أصحابها ، على أن يعطيه تسعين فى المائة من الايراد ، كى يستخدم هذا المال فى نشر الدين بين قبائل أفريقيا الوثنية .. وحين اكتمل المبلغ المطلوب لهذا الغرض ، أجبره على السفر معه الى افريقيا بصحبة مساعدته الحسناء ، والتخلى عن المرأة لرئيس احدى القبائل مقابل اعتناقه الدين ونبذه الوثنية هو وجميع اتباعه !.. واخيرا فرض الاسقف على المصور أن يتفرغ فى موطنه الجديد لانجاب اكبر عدد من النسل من نساء القارة الوطنيات ، تمهيدا لهداية هذه الارواح الناشئة

الى حظيرة الدين .. على أن يسترد حريته فى العودة الى بلاده ـ مع مساعدته الحسناء ـ متى بلغ سن السبعين !

وكان هذا مصير الضحية الثالثة من ضحايا الشيطان الارضى «الدكتور ملاكـــو» !

والآن تستطيع أن تتابع القصة ، التى يستأنفها راويها فيما يلى :

- ١ -

◆ وأثناء توالى هذه الاحداث التى وقعت للضحايا الثلاثة : أبركرومبى ، وبوشامب ، وكارترايت ، لم أهمل شأن الزائرة الرابعة من زوار الدكتور ملاكو ، واعنى بها «مسز اليركر» ، التى كان قلقى عليها يتزايد يوما بعد يوم !

كان زوجها ـ مستر اليركر ـ يعمل «مصمما» للطائرات ، وكانت وزارة الطيران تعتمد عليه فى هذا الباب باعتباره أخصائيا من أقدر رجالها ، لا ينافسه فى هذا المضمار غير شخص واحد فقط يدعى «كانتوكس» ، كان بدوره يقطن ضاحية مورتليك ..

وبقدر اتفاق الرجلين فى مهنتهما ، كان اختلافهما فيما عداها من نواحى الحياة : كان «اليركر» ذا عقلية علمية محضة ، لا يتذوق الاداب أو الفنون ، ولا يتقن الحديث أو يلمع فى مجتمع .. على النقيض من منافسه كانتوكس ، الذى كان ذا ثقافة واسعة ، ومواهب اجتماعية ملحوظة ، حاضر البديهة ، بارع الدعابة يستطيع أن يؤنس أية جماعة بحديثه الجذاب وتعليقاته اللاذعة وتحليله النافذ الى الاعماق ..

كان الاول قليل الخبرة بالنساء ، لم ينظر يوما الى غير زوجته .. بينما كان الثانى ذا عين جائلة ذواقة ، مستحقا للاستهجان والازدراء لولا فائدته القومية لوطنه التى أرغمت دعاة الاخلاق على التعامى عن نقائصه والتظاهر بالجهل بها ، مثلما فعل الانجليز ازاء بطلهم نلســون وعلاقتــه الشائنــة بالليدى هاملتون !

وفى أكثر هذه النواحى ، كانت مسز اليركر بطبعها اقرب الى كانتوكس منها الى زوجها ، سيما وقد نشأت فى مجتمع يخلط الدعابة بالحكمة ، ولا يحفل كثيرا بمقاييس الاخلاق والفضيلة التى سادت فى العصر الفيكتورى ، وهى المقاييس التى كان زوجها شديد الحرص على التزامها !.. وكان جيرانها فى مورتليك ينقسمون الى فريقين : فريق يعجب بحديثها الخلاب ، وفريق يخشى أن تقترن «خفتها» فى الحديث بتحلل خلقى فى مسلكها الشخصى ! .. فريق ، قوامه الكهول المجربون ، يرتاب فى عفتها ويرثى لزوجها الساذج .. وفريق آخر يرثى لحالها هى ويتخيل تعليقات زوجها التافهة الجافة على مائدة الافطار وهو يتصفح جريدة «التيمس» المحافظة !

وعلى أثر رؤيتى للزوجة خارجة ترنح من دار الدكتور ملاكو ، ثم وقوفى على ما أصاب ضحيته الاولى - مستر ابركرومبى - رأيت من واجبى أن أحذر مسز اليركر من الرجل ، لكنى لم أجد داعيا لهذا الاجراء حين لمست منها نفورا تاما من كل فكرة اتصال به .. ثم عاودنى القلق عندما علمت انها ومستر كانتوكس يلتقيان اكثر مما ينبغى بالنسبة لامرأة يعتبر هذا الرجل منافسا لزوجها فى عمله !.. وقد المعت الى هذا المعنى ذات يوم فى حديث لى معها ، فثارت احتجاجا على «الشائعات الكاذبة» واضافت أن كانتوكس رجل لا تقبل أن تسمع كلمة سوء فى حقه !.. وكانت لهجتها غاضبة الى حد جعلنى أكف بعد ذلك عن زيارتها ، فأفقد بذلك كل صلة بها ..

.. حتى فتحت صحيفة الصباح ذات يوم ، فاذا بى اطالع فيها أن طائرة من طراز جديد - وضع تصميمه مستر اليركر - قد احترقت عند تجربتها ومات قائدها فيها .. ثم اضافت الصحيفة أن التحقيق الذى قامت به السلطات قد أفضى الى العثور بين أوراق مستر اليركر على الدليل الذى يثبت انه ارتكب بعض الاخطاء فى التصميم عامدا ، لمصلحة دولة أجنبية !.. فلما اكتشفت وثائق هذه الخيانة العظمى ، عمد الرجل الى الانتحار بتناول جرعة من السم !

تلك كانت رواية صحيفة الصباح ، على أن «سوابق» الدكتور ملاكو مع الضحايا السابقين جعلتنى أرتاب فى صحة هذه الرواية .. فبادرت بزيارة مسز اليركر ، فوجدتها فى حالة أقرب الى الذهول ، والرعب ، منها الى الحزن . كانت تتوقف عن الكلام فى منتصف العبارة وتبدو كمن تنصت لشىء لا اسمعه ، ثم تتنبه من شرودها فتسألنى : «ماذا ؟ .. ماذا كنا نقول ؟» .. وبرغم قلقى عليها فانها أبت ان تصارحنى بشىء ، فوجدتنى عاجزا عن مساعدتها كل العجز !

.. وفى تلك الاثناء كان مستر كانتوكس ينتقل من مجد الى مجد ، بعد أن خلا له الجو بخلاصه من منافسه ، وصارت الحكومة تعتمد عليه باعتباره أملها الوحيد فى سباق التسلح ، والصحف تتنافس فى الاشادة بعبقريته وجهوده !

وانقضى شهر أو شهران لم يجد فيهما جديد ، حتى سمعت ذات يوم أن مسز اليركر قد فاضت بها الكأس فهرعت كالمجنونة الى وزارة الطيران واصرت على مقابلة الوزير ، فلما أدخلت الى مكتبه اندفعت تروى قصة غريبة بدت له أقرب الى هذيان مخبولة أودى الحزن بعقلها ! وكان كل ما فهمه الوزير من القصة أن المرأة تنسب اتهامات غامضة غير معقولة الى مستر كانتوكس والى نفسها .. فاستدعى على الاثر طبيبا نفسانيا لفحصها ، وايدت نتيجة فحصه أن المرأة قد خولطت فى عقلها . ولما كان مستر كانتوكس رجلا ذا قيمة جوهرية لوطنه ، فلا يليق أن يوضع تحت رحمة امرأة مخبولة .. وهكذا انتهى الامر بنقل مسز اليركر الى احدى المصحات العقلية !

وصادف ان كان مدير المصحة صديقا قديما لى ، فذهبت لزيارته وذكرت له اننى على علم بظروف حالة مسز البركر ، وانه لو سمح لى بمقابلتها على انفراد فأغلب ظنى اننى ساستطيع اكتشاف مصدر اضطرابها والارشاد الى طريقة علاجها !

ووافق الطبيب ، بعد تردد .. فلما انفردت بالمرأة ابتدرتها قائلا : «لست اعتقد أن بك أى اضطراب عقلى .. فأنا أعرف الدكتور ملاكو ، ومستر كانتوكس .. كما انى كنت أعرف المرحوم زوجك ، ولست أصدق انه ارتكب شيئا مما نسب اليه ، فى حين أن الدكتور ملاكو ومستر كانتوكس قديران فى اعتقادى على التآمر لتدمير حياة رجل شريف !.. فاذا كنت مصيبا فى شكوكى ففى استطاعتك الاعتماد على لوزن وتقدير أية معلومات تفضين بها الى ، باعتبارها حقائق صحيحة وليست أوهام عقل مريض ..»

فأجابت المرأة فى حرارة وترحيب : «فليباركك الله من أجل هذه الكلمات، فهى أول عبارة أسمعها توحى الى بالامل فى أن يصدق الناس الحقيقة . وما دمت راغبا فى سماع قصتى فسأرويها لك بجميع تفصيلاتها الاليمة ، دون ان أخفى دورى فيها .. على بشاعته ! ولكن صدقنى أن العذاب الذى اقاسيه قد طهرنى من الاثم الذى انزلقت اليه ، واست أبغى سوى التكفير بقدر طاقتى عما لحق بذكرى زوجى المسكين من لوثة !»

ثم شرعت تسرد لى قصتها الرهيبة :

*

بدأت الحلقة الاولى من المأساة على يد الدكتور ملاكو ـ كما توقعت ! ـ حين فكر مستر البركر ان يزوره بصحبة زوجته ، ترحيبا بجيرته فى الحى ، وتحية لمؤهلاته العلمية التى سمع عنها .. ولم تمض على بدء الزيارة دقائق حتى استدعى الزوج بالتليفون كى يرسل الى وزارة الطيران مستندات هامة كانت فى حوزته بمنزله ، فخرج للقيام بهذه المهمة ، واعدا بالعودة لاخذ زوجته حين يفرغ منها ..

وكان دكتور ملاكو قد أدرك بفراسته المعهودة ، ومن سياق حديثه مع الزوجة ، مدى الضجر الذى تعانيه فى حياتها مع ذلك الزوج السمج الذى تثير عشرته أعصابها .. فراح «الشيطان» يحدثها عن أزواج يحترفون تصميم الطائرات ـ مثل زوجها ! ـ بعضهم تافه الشخصية سمج الحديث ، وبعضهم ظريف جذاب .. واضاف معلقا أن السخفاء منهم هم الذين رزقوا زوجات فاتنـــات !

ثم استطرد «الشيطان» من هذا ـ كأنما دون قصد ـ الى سرد قصة اثنين متنافسين من المشتغلين بتصميم الطائرات ، كان قد عرفهما فى بلد آخر غير انجلترا .. وكان احدهما يملأ قلبه الحسد المر لمنافسه الناجح ،



وزاد من غيرته منه أن ذلك المنافس كان شخصا ثقيل الظل لا يتحدث أو يهتم بشيء يخرج عن حدود مهنته ، فى حين كان هو ظريفا لبقا جذاب الحديث!.. وحين استبد بالحاسد حنقه راح يتودد الى زوجة غريمه حتى أوقعها فى هواه فشغفت به حبا الى درجة الجنون .. لكنه حرص فى الوقت نفسه على أن يدعها فى شك من مدى حبه هو لها ، الى أن أضلها هواها ذات ليلة فاعترفت له فى لحظة اشتهاء أنها لن تحجم عن شيء فى سبيل أن تظفر بحبه! .. عندئذ بدا عليه التردد قليلا ، ثم قال فى النهاية أن هناك خدمة بسيطة تستطيع أن تؤديها له اذا ارادت : وهى أن تترقب اليوم الذى يحمل فيه زوجها الى بيته الخرائط النهائية لتصميم الطراز الاخير للطائرات ، فاذا نام الرجل وأرتفع شخيره تسللت هى الى غرفة مكتبه فأحدثت بالقلم فى التصميم بعض التعديلات الطفيفة التى سيرشدها هو اليها !

ونفذت المرأة تعليمات حبيبها .. وحمل الزوج تصميماته الى وزارة الطيران ، فصنعت الطائرة الاولى على أساسها . وفى اليوم المحدد لتجربتها ركبها مصممها فخورا ليثبت صلاحيتها ويشرح مزاياها .. فلم يكد يرتفع بها فى الجو حتى اشتعلت فيها النار ومات الزوج محترقا مع حطامها !.. أما المنافس الحاسد فكافأ عشيقته على فعلتها بالزواج منها ـ بعد مرور فترة الحداد المعقولة طبعا ـ ذرا للرماد فى العيون !

وختم الدكتور ملاكو قصته بقوله : «وقد تحسبين يا سيدتى أن وخز الضمير قد أفسد سعادة المرأة بحبيبها .. لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فقد كان الرجل على قدر من الجاذبية والشخصية الممتعة بحيث لم تندم لحظة واحدة على الزوج الثقيل الذى ضحت به! وانما كان هناؤها كاملا لا تشوبه غصة أو شائبة .. وما يزال الحبيبان الى اليوم من أسعد الازواج الذين عرفتهم .. »

وعند هذا الحد هتفت مسز البركر مذعورة : «يا الهى ، هل فى الدنيا مثل هؤلاء النساء الشريرات ؟!» .. فكان جواب الدكتور ملاكو : «نعم ، هناك فى الدنيا نساء والفات فى الشر ، كما أن فيها رجالا يبعثون على الضجر !»

وخلال حديث «الشيطان» كانت مسز البركر ـ التى عاشت حتى تلك الساعة حياة عفة وطهر ، وان يكن بصعوبة ! ـ نهبا لهواجس ملحة ودت

لو تقمعها ، لكنها لم تستطع! كانت قد التقت بمستر كانتوكس فى عدة مجتمعات، فأبدى فى كل مرة اهتماما بها ، واعجابا بحديثها ، وبشخصها وعقلها .. لكنها لم تتنبه الا الآن فقط - خلال حديث الدكتور ملاكو - الى أنها عقب تلك الاجتماعات لم تكن تملك نفسها من التفكير فى مدى ما كانت تكون عليه الحياة من امتاع ولذة لو كان زوجها هو كانتوكس ، وليس البركر !.. وكان هذا الخاطر يراودها فى كل مرة فتقمعه لساعته ، بحيث ظل مختنقا فى أعماقها حتى هذه اللحظة ، حين فتح له حديث الدكتور ملاكو الباب على مصراعيه .. وأطلقه من عقاله !.. وأنه ليطالعها الآن وجها لوجه ، بغير قناع ، بحيث تتخيل - بل تكاد تحس - ما سوف تشعر به لو رمقتها عينا كانتوكس بنظرة اشتهاء ، أو أحاطت ذراعاه بخصرها ، أو اطبقت شفتاه على شفتيها !..

ومع أن هذه الافكار قد جعلتها ترتعد فزعا ، فانها لم تستطع أن تطردها من مخيلتها .. فراحت تحدث نفسها : «ان عقلى يكاد يصيبه التبلد والانحلال فى صحبة هذا الرجل .. وتعليقاته على أنباء الصحف ، على مائدة الافطار ، تكاد تجعلنى أصرخ غيظا .. وفى المساء ، حين نشرع فى قضاء سهرة فراغ ممتعة بجوار المدفأة ، يروح منى فى النوم .. ويرتفع شخيره !.. أواه ، كم كانت حياتى تكون مغايرة لو قضيتها فى رفقة عزيزى «أوستاس» - كما يحلو لى أن أطلق على مستر كانتوكس فى أحلامى ، على الاقل .. كم كنا لنكمل أحدنا الآخر ، ونكون «ثنائيا» رائعا !.. وما أمتع ما كان يبديه عندئذ نحوى من حب، عارم، نارى - ولطيف فى الوقت نفسه! - لا حب ثقيل، سمج..»

كل هذه الافكار والصور تدافعت الى مخيلتها أثناء حديث الدكتور ملاكو .. ولكن فى الوقت نفسه كان هناك صوت آخر ، أقل ارتفاعا ، والحاحا - وان تكن له مع ذلك قوته ! - راح يذكرها بأن زوجها «البركر» رجل طيب، لم يدخر وسعا فى تأدية كل واجب كان يتنبه اليه .. وانه يضطلع بمهمة ممتازة ، ويعيش حياة مشرفة .. فهل تستطيع هى أن تحذو حذو تلك المرأة الشريرة فى قصة الدكتور ملاكو، فتقضى على مثل هذا الرجل بتلك الميتة الاليمة؟

ومزقها الصراع بين الواجب والشهوة ، وتقاذفها تنازع الشفقة والرغبة .. حتى نسيت كل شىء عن عودة زوجها المرتقبة ، ففرت من دار الدكتور ملاكو لا تلوى على شىء ، ولم تجاوز عتبة الباب حتى سقطت مغشيا عليها !

وفى حمى انفعالاتها المتضاربة وحيرتها ، حرصت خلال الايام التالية على تجنب الالتقاء بمستر كانتوكس فى مكان ، على الاقل حتى يستقر عزمها على قرار فى شان الاتجاه الذى تنوى أن تسير فيه ! .. ولكن لم تمضى أيام حتى وقعت الواقعة ، حين جاءها زوجها يخطرها بانه سوف يدعو غريمه ومنافسه مستر كانتوكس لتناول الشاى فى بيته ، جريا على سنة المتنافسين المهذبين فى هـــذا العصر !

ولم يكن ثمة مفر .. وجاء مستر كانتوكس .. وبعد أن جالسه مفسفه

فترة من الوقت أضطر للانزواء فى غرفة مكتبه لانجاز عمل عاجل ، تاركا زوجته تنوب عنه فى الترحيب بالضيف ومؤانسته !.. فلم يكد الزوج ينسحب من المكان حتى أحست الزوجة بالحرج والاضطراب ، لكن كانتوكس لم يدع هذه الفترة تطول ، فقال يخاطب المرأة : «يا عزيزتى أماندا - اذا سمحت لى بمخاطبتك باسمك المجرد - لقد طالما اشتقت الى هذه الفرصة منذ التقينا لاول مرة فى تلك الحفلة السخيفة التى لم يخفف وطأتها سوى وجودك .. وهل فى هذه الضاحية المقفرة مخلوقة غيرك يستطيع المرء أن يجاذبها حديثا شائقا ؟.. وانى لآمل ان تجدى بدورك فى - كما أجد فيك - شخصا متمدينا قديرا على التحدث باللغة التى يؤثرها كلانا ..»

وكانت بقية جلستهما أحاديث منوعة فى الكتب والموسيقى والصور ، وسواها من الموضوعات التى كان مستر اليركر يجهلها ، والضاحية لم تسمع بها من قبل !.. ونسيت ربة البيت فى أحاديثها مع ضيفها كل تحفظ ، فلما نهض لينصرف كانت عيناها تلمعان ببريق غريب .. فدعاها لتشريفه بزيارتها يوما كى ترى محتويات بيته من التحف واللوحات والكتب ، التى يمتعه أن يعثر على امرأة تفهمها وتقدرها !

وترددت برهة ، ثم غلبتها نزوة طائشة فقبلت .. وتحدد موعد يكون فيه الزوج حتما فى مكتبه ! وفى الموعد كانت الزوجة تدق جرس بابه فى عصبية. وكان هو الذى فتح لها ، فأدركت من أول وهلة انهما وحيدان فى المسكن !.. ثم قادها الرجل الى غرفة مكتبه ، ولم يكد يغلق الباب حتى .. أخذها بين ذراعيــــه !

*

◆ وحين انتزعت نفسها منه أخيرا ، وقد اقترب موعد عودة العزيز «اليركر» الى البيت ، أحست التعسة أن صلتهما لن يكتب لها الاستمرار - لاكثر من مغامرة عابرة - الا اذا دعمها رباط أقوى وأمتن من مجرد شهوة الجسد .. فقالت لصاحبها وهى تعانقه : «اوستاس ، لكم احبك .. وما من شىء لا افعله من أجلك راضية اذا كان فيه لك المزيد من السعادة !»

فأجابها : «يا حبيبتى ، لا استطيع أن أثقل عليك بمشكلاتى ، فأنت بالنسبة لى بمثابة شعاع الشمس وضياء النهار ، ولا أود أن اربطك فى فكرى الى عجلة الكفاح اليومى من أجل العيش ..»

لكنها استطردت ملحة : «اواه ياحبيبى ، لا تنظر الى هذه النظرة ، فلست مجرد فراشة جميلة - أو «بلبل صغير مغرد» كما يحلو لزوجى أن يطلق على ! - وانما أنا امرأة ذات ذكاء واقتدار ، أستطيع مشاركة الرجل كفاحه الشاق ، وكفانى أن اعامل فى البيت باعتبارى لعبة للهو فحسب .. كلا ، ليس هكذا أريدك انت أن تعاملنى يا حبيبى !»

وبدا على مستر كانتوكس مظهر التردد ، لحظات ، ثم كأنما حزم أمره

اخيرا .. فسمعته مسز اليركر - وقد تملكتها نوبة رعب عابرة - يردد نفس الطلب الذى جاء على لسان الدكتور ملاكو فى قصته المزعومة ! : طلب اليها أن تضيف الى تصميمات زوجها للطائرات بعض التعديلات الطفيفة التى سيرشدها اليها .. وبذلك تسدى اليه - والى نفسها - خدمة كبرى !

واجابته دون وعى : «سوف افعل .. ما عليك الا أن ترشدنى ..» ثم اندفعت من بيته لا تلوى على شىء !

كانت كلمات كانتوكس صدى رهيبا للعبارات التى وردت فى قصة الدكتور ملاكو .. وأكملت الايام التالية بقية الصدى ، فتكررت خطوات التنفيذ ومراحله خطوة خطوة .. حتى جاءها زوجها ذات يوم يبشرها مزهوا بان الطائرة الجديدة التى وضع تصميمها قد تم صنعها وسوف تجرب فى الغد!

ومن هنا بدأت الحقيقة تختلف عن قصة الدكتور ملاكو : فلم يقم اليركر نفسه بتجربة الطائرة وانما تولى ذلك عنه أحد الطيارين ، فمات محترقا حين اشتعلت فيها النار !.. وعاد اليركر الى بيته فى حال من الفجيعة واليأس لا يوصف .. وجاء رجال البوليس فى أعقابه ، فوجدوا بين أوراقه مراسلات تثبت عليه الخيانة العظمى والاتصال بدولة أجنبية ! وأدركت مسز اليركر لتوها أن هذه المستندات مزيفة ومدسوسة على زوجها بمعرفة حبيبها (أوستاس) ، لكنها أمسكت لسانها عن الكلام .. حتى بعد أن تناول زوجها السم ومات !

واذ خلا الجو لكانتوكس - بغير منافس - بدأ نجمه يرتفع فى تقدير الشعب يوما بعد يوم ، ومنحه الملك أرفع وسام فى الدولة ، تقديرا لكفاءته ! .. اما بالنسبة لمسز اليركر فقد ظل بابه مغلقا فى وجهها ! .. وحتى حين كانا يلتقيان فى قطار أو شارع كان هو يكتفى بالتلويح لها محييا من بعيد ! انها فى نظره قد أدت مهمتها وانتهى الامر .. وتحت وطأة هذا الاحتقار انطفأت عاطفتها نحوه ، وماتت .. فأعقبها ندم ووخز ضمير مرير ، لا يحتمل ! .. فى كل مناسبة كانت تسمع صوت زوجها الفقيد يردد سخافاته العذبة ، التى اعتبرتها أثناء حياته كريهة لا تحتمل !.. عند ما كانت تعود من جولاتها الليلة التى تحاول بها الخلاص بعض الوقت من عذاب أفكارها ، كان يخيل اليها كأنها تسمع صوت زوجها يقول لها : «لا تخاطرى بالخروج فى هذه الليالى التى يخيم عليها الضباب يا (أماندا) ، فهى لا تناسبك . انها لم تجعل للنساء المرهفات الرقيقات .. أترين شحوب وجنتيك ؟ ان كفاح الحياة الشاق انما خلق للرجال ، وينبغى علينا أن نحمى كنوزنا الصغيرة من جميع المتاعب والاضطرابات التى تنغص حياتنا نحن !»

وفى كل لحظة ، وسط أحاديثها مع الجيران ، أو أثناء شرائها الحاجيات من الاسواق ، أو فى القطار ، كانت تسمع على الدوام عباراته التافهة تهمس فى اذنيها ، حتى لم تعد تستطيع أن تصدق أنه غائب عنها حقا ! وأنها لتدير بصرها مسرعة حولها ، فيسألها الناس عما بها .. وعندئذ يتملكها خوف رهيب ، لا قبل لها بوصفه ..

.. والصوت الهامس يزداد الحاحا عليها كل يوم ، والذكريات العذبة تمعن فى تعذيبها ، وفترات الراحة من هذه الكوابيس تقل رويدا رويدا حتى تتلاشى .. واخيرا لم تعد تحتمل .. كان التكريم السامى لمستر كانتوكس بمثابة «القشة» الاخيرة .. فاندفعت من البيت كالمخبولة الى حيث حاولت أن تروى مأساتها لمن بيدهم الامر .. لكنهم لم يسمحوا لغير جدران المستشفى الصامتة أن تسمع المأساة !

✢

◆ وعلى أثر سماعى هذه القصة المخيفة تحدثت الى مدير المستشفى ، والى رؤساء البركر فى وزارة الطيران .. تحدثت الى كل أنسان توسمت فيه أحتمال أن يسدى خدمة للارملة المسكينة .. لكننى لم أجد مستمعا واحدا يصغى الى قصتى ! كان جوابهم جميعا يدور حول هذا المعنى : «كلا ، ان (سير) كانتوكس رجل يؤدى للوطن خدمة خطيرة لها قيمتها ، ولا يسعنا ان نسمح لاسمه بأن تلطخه الشائعات .. فلولاه لما استطعنا ان نقف على قدم المساواة مع مصممى الطائرات الامريكيين ، ولولاه لتفوقت الطائرات الروسية على طائراتنا !.. وقد تكون القصة التى ترويها صحيحة ، ولكن سواء كانت صحيحة أم زائفة ، فانه ليس مما يتفق والمصلحة العامة أن تعرف ! .. لذلك فنحن نطالبك ـ بل نأمرك ـ بأن تمسك لسانك ! »

وهكذا بقيت مسز البركر فى سجنها ، تضمحل يوما بعد يوم ، بينما كان مستر كانتوكس ينتقل من مجد الى مجد ، ومن ثراء الى ثراء !

ـ ٢ ـ

◆ كان فشلى فى مد يد المعونة الى مسز البركر سببا فى اضطراب وبلبلة فكرية شديدة اصابتنى .. فقد رحت اسائل نفسى : «ايمكن حقا أن يكون جميع اولئك الساسة والاطباء الذين انتقيتهم من أرفع طبقات الافراد فى مجتمعنا ، المفروض أنه مهذب ، مستعدين لان يتركوا هذه الارملة المسكينة ـ تتعذب وترمى بالجنون ، فى حين يقفز المجرم الحقيقى المسؤول عن مأساتها ، من مجد الى مجد ؟! »

وامتلأت نفسى مقتا وكراهية للجنس البشرى !.. وتطرقت بى أفكارى فى تلك الساعة الكئيبة الى الدكتور ملاكو ، فحدثت نفسى : «ان الدكتور ملاكو هو ملك الدنيا .. لان فيه ، وفى عقله الخبيث وذكائه المدمر تتجمع وتتركز كل حقارة البشرية ، وقسوتها ، وكل ذلك الحنق الاعمى للبشر الاقزام الذين يتطاولون الى أن يكونوا عمالقة !.. ان الدكتور ملاكو رجل شرير ، ذلك أمر مفروغ منه ، ولكن لماذا كان ناجحا فى شره ؟ لان فى قلوب الكثيرين من الذين يبدون فى طهارة الملائكة يعربد الشوق الى الخطيئة ، بملذاتها ومتعها ، والرغبة فى السيطرة والتدمير .. وقد أدرك الخبيث ذلك فخاطب هذه النزعات الخفية فى بنى الانسان ، واليها ترجع قوته المخيفة !»

واستطردت فى تفكيرى : «ان الكون يكون أجمل واعذب لو خلا من البشر .. فحين يلمع ندى الصباح كالماس فى ضوء شمس الصباح ، فى يوم من أيام سبتمبر ، ترى جمالا ونقاء باهرا فى كل حشيشة من حشائش المروج .. ومن البشاعة حقا أن تقع على هذا الجمال أعين تلوثها الخطيئة ، فتلوث بدورها جمال الطبيعة بمطامعها القاسية الخبيثة .. ولست أفهم كيف يصبر الله ، الذى يرى كل ذلك الجمال ، على ضعة وحقارة البشر الذين يتباهون فى قحة وتجديف بانهم قد خلقوا على مثاله وصورته ! »

◆ وكانت ابحاثى العلمية قد هدتنى الى طرق عدة لانهاء الحياة البشرية .. فلم استطع الا أن أحس بان من واجبى أن أستكمل بحث احدى هذه الطرق حتى ابلغ بها درجة الكمال .. وبدت لى أسهل الطرق التى اكتشفتها على الاطلاق طريقة يمكن بها التوصل الى جعل مياه البحار والانهار تغلى ، فيموت البشر من الظمأ ! .. وصنعت جهازا توخيت فيه أن يحقق هذا الغرض فى الوقت الذى يروق لى .. !

شىء واحد عاقنى عن تنفيذ خطتى : هو اشفاقى على الاسماك التى فى البحار من أن تموت حين تغلى مياهها ! .. ولم يكن فى قلبى يومئذ أى حنق على هذه المخلوقات اللطيفة المسالمة ، حتى جرنى الحديث يوما مع أحد علماء الاحياء المائية الى هذا الموضوع ، فقال لى الرجل جادا : « لاتشغل قلبك بالاشفاق على الاسماك ، فان شرورها لاتقع تحت حصر : أليست تأكل بعضها البعض ، وتهمل صغارها اهمالا اجراميا ؟.. ثم اليست تمارس تلك العادات الجنسية الشاذة التى يعتبر ارتكاب البشر اياها خطيئة مميتة ؟ لست أرى أن ضميرك من حقه أن يتحرك احتجاجا على قتل الحيتان المفترسة مثلا !»

وقادتنى هذه العبارات الى خليط من الخواطر والافكار : «اذن فليس الانسان وحده الذى يمتلىء قلبه خبثا وشرا !.. وأنما الشر لابد جزء من الحياة ، الحياة الحيوانية على الاقل ، التى لا تعيش الا على افتراس بعضها البعض !.. الحياة ذاتها اذن شر ، ولو ماتت جميعا واختفى كل أثر لها من الكون فصارت الارض كوكبا ميتا كالقمر ، لغدت جميلة وبريئة مثله !»

وهكذا عكفت على أستكمال ابحاثى فى صبر وتكتم بالغين .. وبعد فشل متكرر توصلت اخيرا الى صنع جهاز يجعل نهر التيمس يغلى فى البداية ، ثم يتبعه بحر الشمال ، فالمحيط الاطلنطى ، فالهادى ، واخيرا المحيطات القطبية المتجمدة !.. فاذا تم ذلك ارتفعت حرارة الارض شيئا فشيئا ، وتزايد ظمأ البشر ، الى درجة الجنون فالموت !

«وعندئذ» ـ تطرقت بى أفكارى ـ «لاتبقى فى الكون خطايا على الاطلاق !»

✻

◆ وبمجرد فراغى من تركيب جهازى ، أوصلته بساعة تحدد موعد سريان مفعوله .. وفى الساعة العاشرة من صباح أحد الايام ضبطت الساعة على وقت الظهر تماما .. ثم انطلقت لزيارة الدكتور ملاكو !

واندهش الرجل لرؤيتى ، فقد كان يعلم أن نواياى نحوه ليست ودية — على الاقل ! — فاستقبلنى متسائلا فى خبث عن سر تشريفى اياه بالزيارة ؟ فأجبته على الفور : «ليست هذه مجرد زيارة اجتماعية عادية ، ومن ثم فمن العبث أن تقدم لى كأسا من الويسكى ومقعدا مريحا ، فانى لم آت لاتبادل معك ثرثرة مرحة .. وانما جئت لاقول لك بايجاز أن ملكك قد انتهى، وان سلطانك على عقول وقلوب التعساء من البشر الذين أوقعهم سوء حظهم فى قبضتك سوف يتلاشى بعد فترة وجيزة ، نتيجة لخطة محكمة لا تقل ذكاء وجرأة عن خططك ، وان امتازت عليها بانها تستهدف هدفا نبيلا !.. ذلك انى — أنا العالم المتواضع الذى لم تكن تقيم له وزنا ، والذى فشلت كل جهوده فى منع المآسى التى تسببت انت فيها .. قد توصلت اخيرا الى وسيلة تمكننى من وضع حد لاطماعك ، ففى معملى الان ساعة تدور غير وانية ، حتى اذا التصق عقرباها عند الظهيرة تماما ، بدأ العمل جهاز خاص سوف يقضى فى خلال أيام معدودة على كل أثر للحياة على هذا الكوكب .. وبالتالى يقضى على حياتك أنت !»

فقاطعنى الدكتور ملاكو : «مرحى ، مرحى ، يالها من لهجة مسرحية شائقة ! لولم تكن فى الصباح الباكر لحسبتك مخمورا .. واذن فلم يبق الا أن أرتاب فى سلامة قواك العقلية !.. ولكن اذا كنت ترى القصة ممتعة حقا فانى على استعداد لان أتسلى بسماعها .. »

— جميل منك أن تسخر على هذا النحو ، ولكن لعل السخرية هى كل ما بقى لك .. فلن يمضى وقت وجيز حتى تكف عنها وتبدأ رحلتك الى العدم . وعندئذ سوف تعترف مضطرا انك قد غلبت على أمرك ، وأن لواء النصر الكامل انما عقد لى أنا !

— مهلا مهلا ، وكفانا من هذه اللهجة التمثيلية .. واذا لم يكن باقيا على حياتينا غير ساعات معدودات ، فخير ما نقضيها فيه أن نتحدث حديثا علميا نافعا .. فهات ما عندك واشرح لى خطتك ، لعلنى افيدك فيها برأى..

وكنت واثقا من خطتى ، فلم أر بأسا فى أن اطلعه عليها ، سيما ولم يبق على موعد سريانها غير ساعة وبعض ساعة .. لكن فألى خاب حين اكتشف اللعين فى الخطة ثغرة هامة اقنعنى بها ، وهكذا قضى فى لحظات على آمالى التى هدهدتها أياما .. واخيرا قال لى شامتا : «والآن ياصديقى المسكين ، لقد صدق ظنى : وحين تدق الساعة الثانية عشرة سوف ينفجر جهازك دون نتيجة .. أما البحار فستظل باردة كما هى !»

واذ اثبت لى كلامه بالادلة العلمية ، انطفأت حماستى وآلمتنى الهزيمة، فتهيأت للانصراف .. لولا أنه استوقفنى قائلا : «انتظر قليلا ، لا تحسب أن كل شىء قد ضاع وانتهى .. ففى وسعنا أن نعمل متعاونين ، بعد أن عملنا متحاربين .. وقد اهتديت أثناء نقاشنا الى طريقة لمعالجة الثغرة التى فى جهازك ، وبذلك يمكننا أن نمضى فى تنفيذ خطتك ! انك قد تصورت ان فناء

العالم سوف يحزننى ، ولكن يبدو انك لم تفهم من افكارى غير القشور الخارجية . ولما كنا سنعمل معا من أجل هدف واحد ، فلست ارى بأسا فى ان افتح لك قلبى :

«انك توهمت اننى سعيت الى المال والنفوذ والمجد طمعا فيها ، لذاتها .. فى حين انى طالما استهدفت من ورائها اهدافا وغايات مجردة وغير ذاتية . وأنت تحسب أنك تمقت الجنس البشرى ، بينما لو وزن المقت الذى فى طرف اصبعى نحو هذا الجنس لوجد أشد وأقوى الف ضعف مما ينطوى عليه جسمك باكمله .. وأن لهيب الكراهية الذى يشتعل فى أعماقى لكفيل بأن يحيلك فى لحظات الى كومة من الرماد ! .. فانك لا تملك القوة ، ولا الصبر ، ولا العزيمة ، كى تعيش طاويا قلبك على الحقد الذى فى قلبى أنا ! .. ولو اهتديت من قبل الى ما هديتنى اليه الآن من طريقة لابادة الجنس البشرى ، فهل تحسبنى كنت أتردد لحظة ؟ ان الموت كان دائما هدفى وغايتى، وقد كنت أقذف اليه بضحاياى من الافراد التعساء ـ الذين أثاروا شفقتك الحمقاء ـ لا لشىء الا لانى كنت جاهلا بالطريقة التى تقتل البشر بالجملة ! بل انى لم أدخر وسعا فى هذا السبيل ، بقدر طاقتى ، ولعلك لا تعلم اننى فى الوقت الذى كنت أمد فيه كانتوكس بوسائل الفتك بالناس بطائراته ، كنت أمد علماء الدول المعادية بأسلحة أخرى مضادة تزيد نار الحرب اشتعالا وتطيل اجلها ، كى تفنى أكبر عدد من بنى الانسان ! .. نعم ، ان الانتقام دينى وديدنى ، وحافز حياتى الاوحد .. الانتقام لا من فرد أو أفراد بعينهم ، وانما الانتقام من هذا الجنس الشرير باكمله ، الذى أنتمى لسوء حظى اليه !

◆ « وقد اعتنقت هذا الهدف منذ صباى الباكر ، من فرط تعاسة الظروف العائلية التى نشأت فى جوها : كان أبى أميرا روسيا ، وأمى خادمة فى بنسيون بمدينة لندن ، وقد هجرها أبى قبل أن أولد واشتغل ساقيا فى مطعم بنيويورك ـ وهو يستمتع الآن بضيافة سجن (سنج سنج) ! ـ لكن أمره لا يهمنى كثيرا ، فانه المسؤول عن كارثة أمى ، التى أدمنت الخمر على أثر هجره اياها ، بحيث لم تكن تفيق منها الا نادرا .. وهكذا فقدت عملها ، وتشردت .. فعشت سنوات صباى جائعا ، لا أكاد أجد ما يسد رمقى .. وبمجرد ان صرت قادرا على الحبو تعلمت أن أنبش أكوام القمامة بحثا عن لقمة تائهة أو نفاية بطاطس، أو أى شىء يخرس صراخ بطنى الجائعة ! وكانت أمى تضربنى من أجل جولاتى هذه ، وحين تتذكر جوعى تغلق على الباب وتخرج على وجهها الى أحد بيوت الدعارة .. ثم تعود منها محطمة ثملة فتضربنى حتى تدمى جسدى ويغمى على ، كى تتخلص من صراخى !

«وذات يوم ، وكنت فى السادسة ، فيما كانت تجرنى فى الطريق وهى مخمورة لا تقوى على المسير ، طلبت طعاما .. فبدأت تنهال على ضربا كالمعتاد ،

وفى محاولتى الدفاع عن نفسى دفعتها عنى بكل قوتى، فاختل توازنها وسقطت على الارض ٠٠ وفى تلك اللحظة كانت سيارة نقل كبيرة تعبر الطريق ، فقضت عليها !

« وصادف ان وقع على ساعتئذ بصر سيدة محسنة كانت مارة فى الطريق ، فلما رأتنى وحيدا فى أعقاب الكارثة ، أدركتها الشفقة على ٠٠ فأخذتنى الى بيتها حيث نظفتنى وأطعمتنى وكستنى ٠ وكان البؤس الطويل قد شحذ ذكائى فتعلمت كيف أخدع المرأة بالتظاهر بالطيبة والمسكنة ، حتى أدخلت فى روعها اننى نموذج للخلق القويم ٠٠ وهكذا تبنتنى وعلمتنى ، وصرت أتملقها وأكسب رضاءها بالاكثار من الصلاة أمامها ، والاشادة بخالقى فى كل مناسبة وفقا لتعاليمها ـ وان انطوت نفسيتى فى الوقت نفسه على الكثير من مشاعر الحنق الاسود على الاقدار التى جاءت بى الى هذا العالم ! ـ وأخيرا ، كنتيجة لرضى المرأة عنى ، انتهزت فرصة بلوغى الحادية والعشرين فكتبت وصية أوصت لى فيها بكل ثروتها وتستطيع أن تستنتج أنها لم تعش طويلا بعد كتابة تلك الوصية !!

« وبعد موتها صارت حياتى رغدة ميسرة ٠٠ لكننى لم أستطع مع ذلك أن أنسى ـ للحظة واحدة ـ تلك السنوات الباكرة المريرة من حياتى ، ولا قسوة أمى ، واضطهاد جيرانى ، والجوع والوحدة واليأس الاسود الذى اكتنف حياتى .. فقد ظلت هذه الذكريات تسمم كيانى برغم ظروفى الحاضرة السعيدة ، من فرط ما تغلغلت فى ألياف جسمى وأعصابى ووجدانى !

« وهكذا تجدنى الآن ، لا ينجو انسان على ظهر البسيطة من كرهى وحقدى ، وشوقى الى أن أراه يتعذب ويقاسى أفظع ما يمكن أن يقاسيه البشر ! ٠٠ ولقد اطمعتنى الآن فى أن أرى جميع سكان المعمورة يظمأون الى حد الجنون ، ويعانون أقسى ميتة واحتضار ٠٠ فياله من مشهد جميل ! ولو كنت أملك الشعور بعرفان الجميل لاحسسته نحوك الآن ، لكن القدرة على الاحساس بمثل هذه المشاعر قد ماتت فى منذ بعيد ، قبل أن أبلغ السادسة من عمرى !

« والآن ، تستطيع أن تعود الى معملك لتشاهد جهازك ينفجر انفجاره العقيم ، فى حين ان انتصارك الذى منيت به نفسك على ، سوف يكون من نصيبى أنا ٠٠ فلسوف أتولى تنفيذ خطتك ، بعد سد الثغرة التى فيها ٠٠ وفى الوقت الذى ستقاسى فيه أنت عذاب الموت ظمأ ، سأكون أنا قد اخترت لنفسى ميتة سهلة لا ألم فيها ، بمجرد ادارتى عجلة الجهاز الذى سوف يفنى جميع الاحياء ! »

وفيما هو يتكلم ، كانت الافكار تتسابق فى مخيلتى مختلطة متضاربة ، وقد أصيبت برد فعل مفاجىء ! أخذت أحدث نفسى : « اما ان هذ الرجل شرير زنيم ، فهذا ما لا شك فيه ٠٠ ولكن ما دام هو يبغى افناء العالم فلابد ان



افناءه أمر شرير ، ينبغى أن أحول دونه بكل قواى ! ٠٠ وفجأة بدأ العالم الذى كنت أكرهه ، يبدو لى جميلا ! بدأت أحس أن كراهية الجنس البشرى ، التى كانت فيه نزعة متأصلة ، انما كانت بالنسبة لى جنونا عابرا ٠٠ ومن ثم اعتزمت أن أفسد عليه انتصاره الذى أخذ يتباهى به ويزهو !

وفى تلك اللحظة أطل «الشيطان» من النافذة وهو يتمتم « كم من البيوت الجميلة ترى من هنا ! ٠٠ ان كل بيت منها سوف يتحول بعد أيام الى جحيم مروع ، يفر منه سكانه كالمخبولين صارخين مولولين اننى لن أراهم، لكن صورتهم سوف تنطبق فى خيالى وأناأموت ميتتى الهادئة قبلهم بساعات ، فتمتعنى فى لحظاتى الاخيرة متعة معدومة النظير ! ! »

وفيما كان يتكلم كان ظهره الى ٠٠ فومض فى ذهنى خاطر ، بادرت الى تنفيذه فورا : أخرجت من جيبى المسدس الذى كنت قد حملته احتياطا للطوارىء ٠٠ وقلت وأنا أسدده الى ظهره : « كلا ، هذا لن يحدث ! » ٠٠ وفى اللحظة التى استدار فيها الى محنقا ٠٠ أرديته قتيلا !

ثم مسحت المسدس من آثار بصماتى ولبست قفازى ، وضغطت أصابع القتيل على المسدس حتى انطبعت بصماته عليه ٠٠ ثم ألقيته الى جواره على الارض ! ٠٠ وهرعت من فورى الى الآلة الكاتبة فكتبت عليها رسالة صغيرة بلسان الدكتور ملاكو يعترف فيها « بانتحاره » ! ثم مضيت متخفيا الى دارى

- ٣ -

◆ على أثر وضع حد لحياة « الشيطان الارضى » الدكتور ملاكو ، أحسست براحة عميقة ، وكأنى تخففت من عبء ثقيل ٠٠ وقضيت الاشهر التالية أنعم بنوم هانىء طويل ، لم أعرفه منذ حل الدكتور ملاكو فى ضاحيتنا فعاث فيها فسادا !

وفى هذه الاثناء التقيت بامرأة جذابة ذكية ، مولعة بالتحليل النفسى ، راقت فى ناظرى ٠٠ فلم ألبث أن تزوجتها ، وحسبت بذلك أن سعادتى قد اكتملت ٠

لكن أفكارا مختلطة من ذكرياتى تجربتى الاخيرة الرهيبة ، كانت لا تفتأ تعاودنى بين الحين والآخر ، فتلحظ زوجتى - بفراستها وذكائها - شرودى

الطارىء فاذا سألتنى عن سببه اختلقت لها عذرا كاذبا يتركها حائرة بين التصديق والارتياب .. !

لكن هذه النوبات تزايدت بمرور الايام ، لا سيما حين بدأت تتراءى لى فى خيالى صورة الدكتور ملاكو فى أوضاع مختلفة مفزعة ! .. وتلاحق ظهور خيال ذلك الشيطان اللعين لى فى اليقظة والمنام ، حتى صرت أتوهمه متجسدا أمامى بسترته السوداء وشعره اللامع ! .. وذات مرة تقدمت منه محاولا لمسه كى أقنع نفسى انه مجرد خيال ، ولكن فى تلك اللحظة يبدو أن نسمة هواء هبت على وجهى فحسبتها أنفاسه تلفحنى ، وصرخت مفزوعا .. ودخلت زوجتى على صرختى لتجدنى شاحبا متداعيا أكاد أسقط مغشيا على ، والعرق يتصبب من جسمى !

وخيل الى أننى لو اعترفت لاراحنى الشبح من ظهوره وانقطع عن زيارتى .. وألحت هذه الفكرة على ذهنى ، وتفاقم تأثيرها على كلما عيرنى الشبح بجبنى ونذالتى ، وتحدانى أن أفخر بفعلتى ما دمت أعتقد أنها كانت صوابا ! .. وذات ليلة صحوت من نومى فى أعقاب كابوس من هذه الكوابيس وأنا أصرخ : « أنا الذى فعلتها .. أنا الذى فعلتها ! » فسألتنى زوجتى مدهوشة : « فعلت ماذا ؟ »

ـ قتلت الدكتور ملاكو ! انك قد حسبت نفسك تزوجت من عالم تافه لا هم له غير معمله .. لكنك واهمة ، فلقد تزوجت رجلا ذا شجاعة خارقة وعزيمة نادرة ، رفعتاه الى أن ينفرد دون سكان الضاحية جميعا بتعقب ذلك الشيطان المريد حتى أورده حتفه . لقد قتلت الدكتور ملاكو ، وأنا فخور بذلك !

فكان جواب زوجتى على ما حسبته هذيانا منى : « ألا ترى أنه يحسن بك أن تعاود النوم ؟ » .. واذ ذاك صحت غاضبا وثرت ثورة عنيفة ، لعدم تصديقها اياى .. لكن ثورتى زادتها خوفا منى وارتيابا فى عقلى .. فلما جاء الصباح رأيتها تتجه الى التليفون !

والآن ، وأنا أطل من نافذتى أرى حارسين يخفران الباب ، وطبيبا نفسانيا مشهورا يجىء لفحصى .. اننى أرى فى انتظارى نفس المصير التعس الذى شملت فى انقاذ مسز اليركر منه .. أرى أمامى سنوات طويلة موحشة من الوحدة والعزلة عن الناس ! .. شعاع واحد ضئيل من النور يثقب ظلام مستقبلى : أن عادة المصحات العقلية قد جرت على السماح لاحسن النزلاء وأحسن النزيلات مسلكا ، باللقاء مرة كل عام ، فى رقصة مشتركة .. تحت حراسة الرقباء ! واذن فسوف ألقى مسز اليركر العزيزة يوما كل عام .. وعندئذ سوف نتساءل كلانا : ترى هل فى الدنيا بأسرها غير شخصين اثنين .. عاقلين ؟!

وزارة المعارف العمومية

منطقة القاهرة الجنوبية

اعلان مناقصة عامة

تقبل العطاءات بمنطقة القاهرة الجنوبية التعليمية (بالدور السابع بمبنى المجمع ميدان التحرير مكتب بريد الحرية — القاهرة)

عن اعمال الصيانة والترميمات الاعتيادية والصحية للمبانى والمدارس التابعة للمنطقة من سنة مالية تبدأ من أول يوليو سنة ١٩٥٣ لاخر يونية سنة ١٩٥٤ وقد حدد يوم السبت ١٩٥٣/٧/١٨ لفتح مظاريف العطاءات للاعمال الاعتيادية ويوم الاحد ١٩ منه للاعمال الصحية فى الساعة الثانية عشر ظهرا

ولجميع المقاولين حق الاطلاع على قوائم الاثمان . ويمكن الحصول على استمارات العطاءات نظير القيمة المحددة لها من تفتيش المبانى بالمنطقة . شراء استمارات العطاءات على ورقة تمغة من فئة ٥٠ مليما (خمسون مليما) لكل استمارة — وعلى مقدمى العطاءات أن يرفقوا بها وقت تقديمها التأمين الابتدائى المؤقت المبين قيمته باستمارة العطاء — وكل عطاء غير مرفق به التأمين المذكور لا يلتفت اليه . ٤٨٩٦

توريد أغذية

للمستشفيات الجامعية بالاسكندرية

تقبل عطاءات بمكتب حضرة الدكتور مدير مستشفيات جامعة الاسكندرية بشارع المستشفى الاميرى بالاسكندرية لغاية الساعة الثانية عشر ظهر الايام المبينة بعد عن توريد بعض الاغذية اللازمة للمستشفيات المذكورة لعام ١٩٥٣/ ١٩٥٤ على أن يكون كل عطاء مصحوبا بتأمين قدره ٢٪ من قيمته الاجمالية

التاريخ	المناقصة
الاربعاء ١٥ يوليه سنة ١٩٥٣	(١) مناقصة الفراخ والارانب (٢) مناقصة بعض اصناف البقالة

ويمكن الحصول على قوائم هذه المناقصات من المستشفيات المذكورة مقابل ٢٥٠ مليما لكل قائمة وتقدم شراء القوائم على ورق مدموغ من فئة ٥٠ مليما

٤٩٠٣

محتويات الكتاب

كتابي

السابع عشر

".. وللأول مرة - فيما يذكر - أحس فتحي أنه .. تعس !
.. وتولاه سخط قوي على نفسه. كيف يعيش عفيفا محروما
وفي الدنيا مثل هذا الجمال .. المباح ؟. والى متى يظل يحيا
على هامش الحياة ، ينظر الى دنيا المتعة والخمر والنساء
نظرة السجين الى حياة الحرية واللهو والانطلاق ، بل نظرة
القانع بأن يقف مكتوفا وصحاف الطعام تتوالى أمامه حافلة
بالمشهيات ، وموكب الحسن يتتابع أمام بصره مغريا بالحماقات ؟..
الى متى يظل سجين هذا الخجل الممقوت الذي يكبل شبابه
بأغلال موجعة ، اغلال من حرير ، أشد إدماء من أصفاد
الحديد ؟.. هذا الخجل الذي "نكبته" به نشأته
المحافظة ، في عصر كل تحرر .. ودنيا كلها أحرار ؟
.. ام ترى قد كتب عليه أن يكون الراهب الوحيد
في معبد كله زنادقة ؟ "

(من قصة «الأرملة المرحة» احدى قصص هذا العدد)